



Princeton University Library



32101 079541270

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

IN-PROCESS BOOK

Return To
Circulation Division
Firestone Library

XXXXXXXXXXXX
JUN 13 1986
NOV 19 1986

الاول من

الجامعة اليوسفية

بمراكش

في تسعة سنين

بقلم

محمد عثمان المراكشي

الفهكتاريخ لنشأة الدراسة في الكلية اليوسفية
منذ عهدها التأسيسي الى الان

(حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف)

١٣٤٠
٥٥
عثمان
الجامعة اليوسفية

بمراكش

في تسعمائة سنة

بقلم

محمد عثمان المراكشي



الفه كتاريخ لنشأة الدراسة في الكلية اليوسفية منذ عهدها
التأسيسي وأبرزه كذكرى تاريخية لتأسيس رمز الفخامة :

مراكش الحمراء

﴿ حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ﴾



المطبعة الاقتصادية بالرباط * صاحبها مصطفى بن عبد الله

١٣٥٦ * ١٩٣٧

(RECAP)

LG 631

M39073

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

«وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»

الحمد لله الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم . والصلاة والسلام على منار الهدى ومرشد الخلق سيدنا محمد المبعوث بدین الحق الى سائر الامم . وعلى آله واصحابه الذين اقتبسوا من اخلاقه الطاهرة . وآياته الباهرة . مارفعوا بعليائه الرؤوس . وحبروا بذكر محاسنه الصحف والطروس . وعلى اتباعه الذين ورثوا الفضيلة فنشروا لواءها . وحملوا اعباء الشريعة فبسطوا في الشرق والغرب رداءها .

اما بعد فلما كان علم التاريخ شريف الغاية . سامى البداية . ينبئنا عن احوال الماضين . ويحفظ لنا خصال آبائنا الاولين . ويملي علينا عزائمهم العظيمة وما كانوا عليه من النبل والكمال . والعزة والجلال . وكانت مقاصد المؤرخين تختلف بحسب سمو المقصود وخسته . فرب باحث عن الفضيلة يبعثها من مرقدھا ويثير محاسنها لتكون للملأ منارا يهتدى به الصغير ويتذكر تراث آباءه الكبير . فيشرف المقصود بشرف الغاية .

وكم من جامع لانواع الاخبار يتبعها . ومحيطات الاحوال يتطلبها . فيستقصى الاخبار ويثبتها . بلا تمحيص صحيحها من سقيمها . على ان هنا لك من ينض الطرف عن الحقائق الثابتة وينمض العين عن المحاسن بلا قصد تعديل

او تجريح . فيشير الفتنة من اجدائها كهزاه بنفسيته . هازل بامته . يتجر بثاب
الاعراض فيقدم الجماعة تضحية في مصلحته الشخصية . ويوجه لذعائه السامة
للأبرياء ليعد في صفوف النقاد والمصلحين ؟ وتلك لعمري ناحية
خسيسة من النواحي التاريخية لا تفيد المجتمع الانساني سوى تسجيل الحزى
في جبين شعب عظيم له كرامته بين سائر الشعوب .

غير ان هناك جهة اخرى من الجهات التاريخية عزيزة الوجود ، لطيفة
الورود ، لها من الشرف المسكاة الاولى ومن التهذيب واثير الحق الغاية العليا .
تجد الاقلام قد تغافلت عنها ولم توجه اليها عناية الاشارة خفية تظفر بها في
دواوين المؤرخين تكلف الراغب فيها ثمنا غاليا وهي الناحية العلمية من حيث
نشأتها في المعاهد المغربية وكيف تطورت وما هي الادوار التاريخية التي
مرت بها الى هذا العصر .

وكانت جامعتنا اليوسفية بالحضرة المراكشية اعز الله حماها . وضاعف
للمكرمات علاها . قد تعلق في ايام عزتها باقراط الثريا وتضاعدت في سماء
العلوم رايته . تباهي بمعارفها سائر الجامعات بما قدمته للانسانية من ترقية
المدارك في عهد الدولتين المرابطية والموحدية ومن جاء بعدها من دول المغرب
الاقصى . ولم يزل قدر تلك الجامعة يسمو الى ان صارت في بعض ايامها
الحاضرة العليا في المغرب والجزيرة بما ساهمت فيه من تهذيب العلوم وتقديمها
حتى انجبت من فضلاء الكتاب والادباء ورجال العلم والقلم ما يحفظه لها
تاريخها المجيد .

تلك كانت الجامعة اليوسفية التي قد اعترتها فترة كبا فيها جواد ابداعها
مما اضعف من مركزها العلمي كغيرها من سائر المعاهد العلمية في المغرب
حتى تراجعت عن موقفها القويم لاسباب سنسبسطها في غير هذا المقام بحول
الله مما مهد لكثيرين ممن يضررون لها السوء أن ينزلوا بها عن مكانتها السامية
الى مكانة تجعلها دون شقيقتها الاخرى استضعافا منهم لانبائها وما ذلك الا
لقصور نظرهـم وعدم امعانهم في تراجم رجالها العظماء الذين أبرزتهم للعالم
الاسلامي ليسجل عليهم ما شاء من الاحكام . ولعمري ان تلك النفثات التي
ينقشها اولئك المرورون في عصر العلم والمدينة لتعتبر في نظر التاريخ جناية لا
تغتفر لما انطوت عليه من التدليس التاريخي والمهالاة .

ولعل ليونة شعورهم هي التي سوّغت لهم ان يحكموا على هذا المعهد
العلمي بحكمهم القاسي الذي لا يستسيغه جماعة ممن أمدتهم هذه
الجامعة بمعارفها .

لذلك حركتني تلك العاطفة وذلك الحنو نحو جامعة قد أمدتني بمعارفها
في أوّل نشأتي العلمية بدروس اولية رأيتها في الاعتبار كأهم عنصر أسست
عليه ثقافتني الشخصية فرأيت من البرور بها والانصاف لاهلها التفكير في
البحث عن اطوارها العلمية وما قامت به نحو بني جلدتي من تقدم وتخريج
على ان لي مقاصد أخر في احياء تلك الروح المعنوية في هذه الجامعة لتسترد
مكانتها الاولى وتتصل بذلك حلقة الاحفاد بالجدود .

وليس لهذه الغاية وصول الابحياء عزتها التاريخية والبحث عن انبائها
العظام ورجالها المبتكرين .

ولما تحدثتُ مع من يهمني امرهم في استخراج هذه الفكرة من الخيال
الى الحقيقة استجزوا هذا المشروع آملين ان يكون ذلك اول حجر اساسي
يوضع لتشييد هذه الذكري العظيمة عسى ان يكون ذلك نواة لبناء تاريخ
مجيد يعتز به ابناء الحمراء ويكون مرآة صادقة لما قامت وتقوم به جامعتهم من
بث العلوم في صدور القاصدين اليها من طلاب الحقيقة وقد استوجب علي
الوعد بذلك الوفاء سيما امام من لا يسعني تجاه رغبته الا الايجاب ممن أعد
استنجاهه كافيا للشروع في هذا الموضوع .

على ان هنالك بواعت آخر سأبسطها في تمهيد يوضح مقاصدي من
هذه الرسالة الموجزة وبالله التوفيق .

تمهيد

يمكن للباحث ان يقول حين يقفُ على هذه الكلمة التي خصصتها
للاشادة بجامعةنا اليوسفية :

ما هي البواعث التي تحمل على هذه الظاهرة التاريخية لمعهد عظيم كان
ولا يزال مقر العلوم والمعارف منذ قرون متطاولة حتى تبوأ مقاما اعلى بين
سائر المعاهد العلمية في مختلف العصور فهو غني عن الاشادة بذكره وقد
حفظ له التاريخ ما حفظ ؟

اقول وفقني الله واياك للحق والاعتراف بالجميل ان الذي يحملني على البحث في هذه الجامعة واطوارها العلمية ومقدار آثارها الفنية ، من حيث الثقافة العامة بواعث شتى :

منها ان التاريخ المراكشي لم يتناولها الا من حيث التأسيس والتجديد وذلك الموقع الجغرافي في وضعها وإحكام قبلتها . ولم اعثر على من غني عناية خاصة بمن تخرج منها وكوّن مجموعته العلمية بين جدرانها ولا على ما اعترأها من الاحوال في مختلف الاوقات ولا على ما هي العلوم التي كانت تقوم بامدادها للافراد الذين يقصدونها من كل ناحية وصوب الا ما ذكر في بعض التراجم الموجزة من وصف بعض رجالها .

ولم يكن ذلك قصورا من حملة الاقلام المرّاكشيين وانما كانت ثقتهم التامة بمقامها العلمي في نفوسهم هي التي تركتهم يهملون هذا الجانب المقدس من تاريخهم المحيد ويجعلون قيامها بمهمتها العلمية اكبر شاهد على ما تسديه للانسانية من انواع الجميل . على ان اهل مراکش اهملوا جانباً عظيماً من تاريخ فخرهم القديم . ولعل حسن نيتهم وعدم تركيتهم للنفس هو العامل الفعال لاهمال تلك الناحية العلمية ، بيد ان المراكشي بطبعه لا يميل الى الافتخار والاعجاب بالرأي لانه يرى في ذلك نقصاً اخلاقياً ولذلك تجده لا يعد نفسه لتحمل الالقاب الضخمة ولو مع استحقاق بخلاف من يحبون ان يحمّدوا بما لم يفعلوا ولتلك العوامل المتعددة تجد تراجم المرّاكشيين موجزة لا تعطيك مرآة ذات جلال وروعة كما تقف على ذلك في تراجم جماعة حتى من بسطاء

العقول عند غيرهم مما ترك مرا كش تظهر بمظهر لا يتفق مع عظمتها التاريخية وجلالتها العلمية بل يصعب انطباق ذلك على الحقيقة ولا يخفى على الباحثين ما في ذلك من الاسفاف بحقوقها وواجباتها على جميع من أمدتهم بمعارفها من رجالات المغرب . وكم تأخذك الدهشة حين ترى من بعض اخواننا الزائرین ظاهرة التعجب وكلمة الاستغراب في الوقت الذي يشاهدون فيه الجامعة اليوسفية مزدهرة بدروسها قائمة بقسطها العظيم من الثقافة العامة قيما لا ينقص عن شقيقتها القروية .

وما ذلك الا لانهم لم يقفوا على تاريخ قويم لهذه الجامعة التي كانت لها الرياسة العلمية في بعض عصورها القديمة على انهم لو تتبعوا بعض تراجم علماءها في بطون التاريخ لا استطاعوا ان يحكموا عليها حكما عادلا لا يحجب بحقوقها وانها في مستوى غيرها بل ربما تتفوق عليها في بعض العلوم كما شهد بذلك بعض المنصفين من رجال العلم وسنبسط ذلك بحول الله في محل تبادل الافكار بين الكلّيتين ونضرب لذلك مثلا بما سطر في بطون التاريخ والفقہ . وقد وقعت لنا محاورة في هذا الموضوع سنة اربع وخمسين وثلاثمائة وألف مع بعض الاساتذة الذين أنكروا ان يكون في مرا كش علماء كعلماء فاس وان تكون فيها دروس صالحة لتثقيف الشباب وتكوينه تكوينا علميا الى غير ذلك ممّا وقعت المناظرة فيه مع الاستاذ الذي قد أنكر قبل ذلك في محاضراته ان يكون علماء حتى في فاس . . . وأنكر ان يكون كذلك في الرباط علماء .

ولعل الذي سهّل على الفقيه ان يقول كلمته بلا تريث ولا امعان هو ما وقع له مع بعض العلماء الذين لا يحسنون غير الفقه والنحو ان ناقشهم في مسائل اجتماعية قد يمنعونهم جمودهم وتمسكهم بالتقديم من الخوض في امثالها مما جعله كمقدمة للبحث معهم في مسألة التنظيم التي زعم انه قد بالغ اقصى مجهوده في انجازها طبق مشروع الاصلاح المنشود بالحمراء وقد قابلوا مقالته بالتسليم فظن ان اولئك الجماعة هم حاملوا لواء العلم بالجامعة اليوسفية فقال كلمته وكان فيها من الخطئين لان من الجلي لدى العموم ان البرامج الاصلاحية للمعاهد الدينية بالمغرب قد أسند صاحب الجلالة امرها الى وزارة العدلية مع الصدارة على ان تكون هيئة علمية تمثل المجلس العلمي للمعهد الذي منح النظام على ان تعديلا وقع في تلك المنظمات بتأسيس مجلس اعلى بالرباط يضم في صفوفه الوزراء تحت رعاية جلالة مولانا الملك ايده الله .

وقد كان من معارضة حضرة الاستاذ أن سأل عن المدرسين وما ذا يدرس من الفنون في معاهد مراکش . . ؟

وقد استند في معارضته بعد ذلك على عدم رؤية أولئك الاساتذة (ولا يبعد ان يكون قد غالط نفسه في هذه الحقيقة) حيث اجتمع ببعض رجال العلم بمراكش (وان كان شأن العلماء هاهنا ان لا يهرعوا للسلام على وزير ولا شبه وزير) .

وقد حاولت إقناع الاستاذ في معارضته الغريبة بسر ما ينيف على

الثلاثين ممن يشتغلون بالتدريس فلم أفلح في اقناعه لانه قد ألحَّ في جداله واستفهم في معارضته : وما ذا يقرءون . . ؟

فأجبتُ بما حضرني من الدروس التي تلقي في الجامعة اليوسفية دفعة واحدة في الأول والثاني وعند الزوال وبينت له انَّ جلَّ المساجد الكبيرة بمراكش لا تخلو من الدروس الليلية مما يستلزم توزيع طلبة المدارس وابناء الحمراء للارتواء من الينابيع العلمية على اختلاف صنوفها قياما منهم بواجبهم العلمي وقد خصصت له بالتسمية نخبة من الشبان المراكشيين ممن خصصوا اوقاتهم الثمينة للدراسة العلمية دراسة تفكير وإمعان وقد حليت نجاحهم باختيار المحفوظ من منظوم ومنثور زيادة على ما أوتوه من الذكاء الفطري الذي يضمن لهم النجاح اذا تبادوا على دراستهم وثابروا على معين الفنون الغضة التي تمي الفنُّ والذوق وقد استطردت للفقهاء جماعة ممن قرأوا عمدة الاحكام لابن دقيق العيد وقد يستحضر جل ما كتب عليها بامعان وما استنبط من احاديثها بتفكير ونظر ولم تكن العمدة وحدها كل ما عند الطالب المراكشي من جودة المحفوظ بل له عناية كبرى بالمحفوظات الادبية وولوع شديد بالاستطلاعات التاريخية مما يعد بحق ثروة ادبية بالنسبة للمدة التي قام فيها بالواجب العلمي خير قيام وعند تنظيم الجامعة اليوسفية تبرز تلك الطائفة للميدان العلمي . ولا ادري ما اذا كانت قيمة هذه الكلمة من نفس الاستاذ وان كنت قد فهمت من حجاجه الارتباب وسواء صدق او بقي مرتابا فاني شخصيا لا يهمني ذلك ما دمت مطمئنا للحقيقة قد ارضيت ضميري وانصفت

التاريخ غير انّ ما بقي في النفس من تلك البادرة العجيبة ألزمني ان اطلب من الفقيه تعيين وقت للاجتماع بطائفة من الشباب المراكشي ليختبر معلوماتهم القيمة وتظهر الحقيقة .

ولكن الفقيه قد اعتذر عن ذلك بمفاجأة السفر وعسى ان تسمح له الظروف بذلك الاجتماع ليرى من ابناء تلك الجامعة ما يسره ويطمئن اليه ضميره ان انصف مرا كش وأنصف اهلها . ومما يوسف له ان تجد مثل هذه الفكرة الشاذة بعض المروجين لها من مرتزة شيوع الاخبار المزيفة ممن لا يقصد وراء ذلك الا القضاء المعنوي على مركز مرا كش العلمي والادبي تحت ستار الوحدة العلمية والمصلحة العامة ولو انصفوا الحق لكان خيرا لهم لان المقاصد السيئة التي يضررونها لجامعة ظلت تحارب الامية منذ تسعمائة سنة مقضي على ترويجها بالفشل الدائم ولو كره المجرمون .

على ان من البواعث المهمة لنشر هذه الكلمة هو تعريف اخواننا الشرقيين بمكانة هذه الجامعة التي لا تزال عند الكثير منهم من مجاهل افريقية حيث انهم يظنون ان القرويين وحدها هي الكلية المراكشية التي تمد المغرب الاقصى بمعارفها لان كثيرا من اخواني المصريين وجماعة من الحجازيين اذا استفهموا عن الحالة العلمية في المغرب ربما يجري على لسانهم ذكر القرويين ظنا منهم انها التي تمثل المغرب تمثيلا علميا .

وقد حاولت افهامهم بأن القرويين كلية تمد فاسا وما اليها والجامعة اليوسفية تمد مرا كش ومن حو لها حتى سوس الاقصى ودرعة وتمثل معلومات

الجنوب تمثيلاً علمياً لأن كثيراً ما يقصد أفراد تلك النواحي القاصية الجامعة اليوسفية لتتميم دراستهم العليا وسأذكر ذلك في تراجم بعض العلماء الذين أشادت الثقافة المراكشية مجدهم في العالم الإسلامي وكانت لهم أفكار سامية في تهذيب العلوم مما ضمنوه في تأليف عدة توجد في بعض المكاتب الكبرى بالشرق والغرب وقد أُلح علي بعض اخواني المصريين من قادة السنة وهداة الفكر في إبراز تاريخ مختصر عن حياة الجامعة اليوسفية التي لم تكن معلومة لديهم فتعهدت بإجابة طلبهم في إنجاز هذا المشروع بعد رجوعي من الأراضي المقدسة بالحجاز وكان لزاماً علي الوفاء بذلك الوعد وقد وقع لي مثل ذلك الحادث مع جماعة ممن عرفتهم بمكة المكرمة أخص منهم الاستاذ الجليل مفتي المالكية بمكة المكرمة الشيخ محمد علي حسين فقد استفهمني حين ذهبت لاستجازته عن المعاهد التي تلقيت فيها دروسي فذكرت له الجامعة اليوسفية بمراكش وقد تحدثت معه في شأنها وفي ما اعتزمته من تصنيف تاريخ لها فبذ الفكرة واستنجز المطلوب فشكرت له لقيامه ووعدته بإنجاز الموضوع كما وقع الوعد بذلك لجماعة ممن سأذكرهم في رحلي الحجازية بحول الله .

يضاف الى تلك العوامل السابقة عامل جديد تصنع فيه بعض الكاتين وزلت به راحلته في وضع الجامعة اليوسفية في محل غير لائق بها كتحكم في تصارييف الاحوال ومن الواضح الجلي ان هذه الجامعة لا تحمل الضيم بعد الآن .

وسنغتنم فرصة اخرى لتزييف تلك الفكرة السامة وكل آت قريب .

هذه هي العوامل التي تلجئني لأن اجعل اول بحث أعرضه على اخواني هو معالجة هذا الموضوع الخطير الذي رأيت من الواجب على ان أساهم فيه بقسط وافر وان اقوم بمحظي في تاريخ معهد كبير له مقامه بين سائر المعاهد الاسلامية خدمة للعلم والتاريخ واظهارا للحق راجيا ان يكون تقرير هذه الرسالة من الكتاب والادباء هو النقد النزيه ان صدر عن حسن نية وسلامة ضمير والا فكل من تحمله الغباوة على التردد وعدم انصاف الحقيقة فلا يخضاعه ساعات . ولتبيد احلامه واوهامه اوقات .

تلك كلمتي التمهيدية التي أجمعها كمقدمة في التعريف بمقاصدي الحسنة من هذا البحث التاريخي الطريف الذي سأجعل فيه تراجم لبعض رجال العلم في مرا كش تمثل قادة الرأي في كل عهد من دول المغرب سواء في ذلك عهد التأسيس أو هذا العهد الزاهر ليكون ذلك كنموذج للعقلية التي أنضجتها التعاليم اليوسفية وساقصر في تلك التراجم على الناحية العلمية وحدها بقطع النظر عما يحوط بالشخصية المترجمة من جهات أخر سيما في هذا العصر الذي أصبح فيه الغموض محيطاً ببعض الافراد مما يستحسن الاغضاء عنه في هذا المختصر ولعلنا نوفي ذلك حقه إن شاء الله في معجم كبير خاص بتحليل التراجم نبين فيه مجملها . ونوضح مشكلها . غير انه قبل ان أتكلم على الجامعة اليوسفية في عهد الدولة المرابطية لا بد لي أن اذكر مقدمة موجزة لنشأة تلك الدولة التي أسست لنا عاصمة العلم والادارة مرا كش الحمراء :

كيف تكونت الدولة المرابطية

من المعلوم تاريخيا ان الدولة المرابطية تكونت اولا من عنصر الملمثين من قبائل صنهاجة في الصحراء بين البرابر والسودان وهم من اصل عربي حميري على ما نعتمده من قول جماعة من المؤرخين الذين ذكروا ذلك وحكوا القول الآخر بانهم كنعانيون من بني حام من بربر المغرب .

وقد كان شعارهم ان يتلمثوا حتى لا يمتاز شيخهم من شابهم بل ولا ساؤهم من رجالهم لشدة شكيمتهم واستعدادهم دائما للمفاجأة العدوانية . وقد كانت العرب تميل لاطهار الشيخ بمظهر الشاب الجلد في الحروب واقتفى هؤلاء تلك الشيم في تغاير السمات ولقد مدح لثامهم الكاتب الشاعر ابو محمد بن حامد وأثبت نسبهم العربي الحميري في شعره حيث قال :

قوم لهم شرف العلى من حمير ❀ واذا انتموا صنهاجة فهم هم
لما حووا إحراز كل فضيلة ❀ غلب الحياء عليهم فتلثموا
ولا تحاذ اللثام شعارا لهم لقبوا بالملمثين .

وقد كانت هذه القبائل الصنهاجية على دين المجوسية التي كانت منتشرة في برابرة المغرب الى ان تسرب لهم الاسلام بعد فتح الاندلس والقيروان . فأقروا حين ذاك بالوحدانية واطمأنّت عقيدتهم الى عبادة الله تعالى غير انهم لا يحسنون تطبيق العقيدة الاسلامية تطبيقا يتفق مع مبادئ الاسلام . لذلك بقيت عندهم عوائد شتى من عوائد المجوس وقد كانوا مع ذلك

شديدي التمسك بكلمة التوحيد حتى أنهم قد شنوا الغارة على السودان باسم الاسلام ففتحوا قسما منه وحملوا سكانه على التظاهر باعتناق الاسلام .
فدان باسم الاسلام كثير واستسلم آخرون تفاديا من الجزية وقبل جماعة إعطاء الجزية مع المحافظة على ديانتهم فقبلوا منهم ذلك على الشرط الاسلامي وكانت رياستهم شيعا ولهم رعوس يلقبونهم بالملوك واستمرت حالهم على ذلك مائة وعشرين سنة حتى انبعث من بين افرادهم ابو عبد الله محمد بن تيفاوت المعروف بتاسرت المثنوي فادعى الامارة .

كيف نشأ اول امير مرابطي

قام ابو عبد الله محمد بن تيفاوت فادعى استحقاق الامارة المثنوية لمكانته العليا بين سائر رعوس لمثونة فانقادت لدعايته الرعوس وخضعت لرياسته عظماء صنهاجة فاجتمعت كلمة القوم على تقديمه فبايعوه على السمع والطاعة وتوجوه على الرياسة والامارة وقد كان ذا فضل ودين ووجاهة في قومه يجمع الى ذلك رجحان العقل ووفرة الذكاء سيما وقد تأثر برحلته للديار الشرقية حيث حج وتنقل في تلك الاماكن المقدسة وتشرف بزيارة بقاعها المطهرة في عصر العلم والمدنية العربية فعلم من مبادئ الديانة الاسلامية ما يكفيه لتولي الزعامة الدينية وضمها للامارة المثنوية ليشرع في تكوين شعبه تكوينا معنويا يستمد حضارته من مبادئ الشريعة الاسلامية حسبما تنغذت بذلك فكرته في رحلته الشرقية .

ماهي الامور التي استقبلها ابو عبد الله بعد رجوعه

لما آب ابو عبد الله من رحلته الحجازية رجع مرفوع الرأس موفور الكرامة تحوطه الرعاية الربانية وتكتفه الزعامة المرابطة شرع بعد استقراره من عناء السفر بدعوى الجهاد في قومه ونادى بالنفير العام لتكون كلمة الله هي العليا فأجاب القوم دعوته وغزا وجاهد في سبيل الله الى ان استشهد في بعض غزواته لانه كان ممن يخوض المعامع الحربية بنفسه الى ان اخترمته المنون في بعض مواقفه التي ابلى فيها بلاء حسنا واستطاع بعزمه ان يذل عقبات في وجه الفتح الاسلامي في مدة امارته التي لم تتجاوز ثلاث سنين فكانت وفاته كتمهيد لنصب ابي زكرياء الكدالي على رياسة لمتونة .

قيام ابي زكرياء بالامر بعد استشهاد ابن تيفات

لما استشهد ابو عبد الله قام بالامر بعده ابو زكرياء يحيى ابن ابراهيم الكدالي الذي أراد الله ان يمهد ملك الدولة المرابطة على يده وان يدخر لهذه الدولة الفخيمة من المجد والعز ما لم يسمح الزمان به لدولة قبلها في المغرب الاقصى فكن لها في الارض ومهد السبيل لتويج اميرها الثاني ابي زكرياء الكدالي على تلك القبائل الممتونة باتحاد القبيلتين العظيمتين كداله وملتونة اتحادا امتزاجيا ينطوي تحته اخاء دائم باندماج احدهما في الاخرى حتى اصبحتا كقبيلة واحدة لها اتجاه متحد يبحث عن رفع شئون الدولة المغربية على اساس الوحدة القومية مما صار معه ابو زكرياء مستطيعا القيام باعباء الامارة

المرابطة وقد استطاع ان يعمل لرفع الراية الاسلامية بتآزر القبيلتين وذودهما عن الحوض الاسلامي بقوة ذلك الاتحاد الروحي سيما وعنصر واحد يشمل عشائرهم وتستمد منه عوائدهم التي ما لبثت ان كان لها الاثر الفعال في استمرار ابي زكرياء في نشر دعايته وبث امره وتوطيد مركزه بين رؤساء المشونة على ان حياة ابي زكرياء كانت مفعمة بجلال الاعمال من جهاد في سبيل الله واصلاح في الهيئة الاسلامية مما يحدثننا عنه التاريخ فيما قام به من الاصلاح والفتح الاسلامي الى ان كانت سنة سبع وعشرين واربعمائة فاعتزم رحلة للبلاد الشرقية برسم حج بيت الله الحرام . واداء فريضة الاسلام .

رحلة ابي زكرياء يحيى الى الشرق

اعتزم ابو زكرياء رحلته برسم الحج وقصد الاطلاع على احوال المسلمين في عهد الحضارة والعمران العربي وريعان المدينة الاسلامية فاستخلف على سلطانه ولده ابا إسحاق ابراهيم ابن يحيى فارتحل للحجاز تكتفه الرعاية الربانية وتؤيد همته العزيمة القوية ففاز بذلك الفضل العظيم والنفع العميم وحج بيت الله المكين وقد كانت شيمته الوفاء لقصده زيارة دار المصطفى صلى الله عليه وسلم . وقد جمع الله له بين الحسينين . ومكن له في الهجرتين . حيث تنقل في طيبة المنورة دار هجرة الرسول وينوع المعارف الالهية اعظم بها بقعة كانت ملائكة الرحمان تتجلى بين سهولها وجبالها وآيات القرآن تتلى في دورها وفوق

رباها تتأثر بمواعظها القلوب وتقتبس من انوارها الالباب وتتغذى
بمعارفها الارواح .

كيف كان رجوع ابي زكرياء الى المغرب

لما تمم الله للامير يحيى بغيته يبلوغه اقصى مرامه . قفل راجعا الى بلاده
يحمل بين ضلوعه تلك المبادي السامية والمعارف المحمدية . اقتفى في رجوعه
الطريق الذي سلكه الصحابة رضوان الله عليهم في فتحهم الاسلامي لافريقية
قاصدا مدينة القيروان التي كانت في ذلك العهد زاهرة بالعلوم والمعارف
فحضر دروسها الدينية في مسجدها العظيم وانشرح صدره لما زآه بها متمنياً
ان بنال امته قسطها الاوفى من تلك المعارف الدينية التي رآها تدرس في
المجالس العلمية حين تخللها اثناء اقامته بمدينة القيروان وقد ساعده الحظ
بمصادفة درس الشيخ ابي عمران الفاسي الذي سبق له ان ام القيروان لطلب
العلم الذي لم تكن العاصمة الادريسية اذ ذاك على استعداد تام لاداء الواجب
منه مما كان سببا قويا في هجرة ابي عمران للحصول على مطلوبة العلمي غير ان
ابا عمران لما فاز بمرغوبه طاب له المقام بمدينة القيروان قاتخذها وطنا وقد
جذبه المغناطيس الوطني للبحث مع ابي زكرياء في حالة بلاده العلمية وكيف
تدرس فيها الشرائع الاسلامية فأخبره ابو زكرياء بالحالة الموسفة التي ترك
عليها بلاده من قلة العناية بالعلوم الاسلامية والمسائل الدينية مما أدى بالناس
الى التغافل حتى على حفظ كتاب الله الكريم الذي يجب ان يكون اول

وديمة في صدر الطفل تسمو بها معارفه وتتغذى بها ميوله الفطرية ليصبح مثالا للفضيلة باسمي معانيها وبلاد أدى بها تهاونها الى هذا الحد كيف تكون عنايتها بالقوانين الوضعية . على ان ابا زكرياء لم يكن بذلك قد بلغ درجة اليأس من امته التي يعلم من شعورها الديني ما يزيل عنه تلك المخاوف التي ساورتها لذلك اخبر ابا عمران بان الروح الدينية لها سريان في افراد تلك القبائل الصحراوية مما يبشر بنجاح اذا هي وجدت لها رائدا عنده من المؤهلات العلمية ما يسوغ له تولي الزعامة الدينية محاولا بذلك فتح مذاكرة مع ابي عمران في جلب اساتذة من القيروان للصحراء ليبشروا في تلك الاراضي القاصية بمحاسن الاسلام ويبلغوا الرسالة .

محاولة ابي زكرياء لجلب اساتذة من القيروان

لما استأنس ابو زكرياء بالشيخ ابي عمران عرض عليه محاولة لطيفة بفكر فيها الامير يحيى وهي جلب اساتذة من القيروان الى بلاده ليستمد الناس من معلوماتهم الدينية وتتصل بذلك قبائل صنهاجة بالقيروان محاولا بعرض تلك الفكرة استمالة الشيخ ابي عمران الى تأييده في مرغوبه لما شاهده فيه من الورع والميل الكثير للتظاهر بالمظاهر اللائقة بالاسلام على ان ابا زكرياء افصح . عن رغبته الاكيدة في مصاحبة بعض رجال العلم لتولية قراءة القرآن ودراسة مبادئ الشريعة الاسلامية متمنيا وراء ذلك نتيجة حسنة يتوخى فيها تفقه تلك القبائل في امر الدين تفقها يستند في نشأته على الكتاب والسنة

ليستطيع بذلك الوصول الى تمنياته التي يعتبرها كادات لتكوين شعبه تكويناً علمياً تخرج به تلك القبائل الصحراوية من جفوة البداوة الى حضارة الحضارة مما نير لنا الحكم على ابي زكرياء بوفرة الذكاء والطموح الى المعالي حيث اتخذ كل هذه الوسائل وتخيل كل هذه التخيلات التي يراها ضرورية لرفع مستوى امته كي يضعها في محل تمثل معه الفضيلة الاسلامية مما صير الشيخ ابا عمران يفكر جيداً في تنفيذ رغبة ابي زكرياء بارسال بعثة اسلامية الى الصحراء مع الامير يحيى لتبشر بحاسن الاسلام على الوجه الحق وقد كان سعي ابي عمران مشكوراً في استجاز تلك الغاية بعرض فكرة الذهاب على بعض تلامذته باذلا كل ما في وسعه لتتيم ذلك المشروع الخطير، غير انه مع الاسف الشديد لم يصحبه التوفيق في محاولته حيث قابل اولئك التلاميذ رغبة شيخهم بالرفض معللين ذلك بصعوبة السفر لبلاد لمتونة . على ان الباحث اذا حلل تحليلهم تبين له ان ضعف العزيمة هو الحائل الاكبر بينهم وبين نيل هذه الفضيلة لان دخول الصحراء لم يكن مخيفاً الى هذا الحد الذي جعلوه كعقبة ارتطمت فيها امنية ابي عمران حيث خاب في مسعاه وفشل في تنفيذ المأمورية التي وضعت على عاتقه وقد يكون السر في فشل ذلك تمهيد السيل امام المربي الكبير عبد الله بن ياسين على ان ابا عمران لم يكن قد تواني بعد ذلك في اعطاء ارشادات قيمة لابي زكرياء مكنته من الفوز ببعض رغباته .

إشارة ابي عمران على ابي زكرياء بالبحث عن وجاج

لما حبطت كل المساعي التي بذلت لجلب اساتذة من القيروان الى لمتونة

وأيس أبو عمران من الموافقة على ذلك أبدى ارشادات للامير أبي زكرياء حيث أحاله في مطالبه التي تعذرت في القيروان على الاستاذ وجاج بن زلو الممطي الذي كانت تربطه بأبي عمران علاقات علمية وقتئذ كان وجاج الممطي يطلب العلم ويرتوي من معينه الفياض في مدينة القيروان فكان من امره ان تعلم ورجع الى واد نفيس من ارض المصامدة فاتخذها دار قرار له يعلم الناس فيها تعليماً دينياً تردد صداه في قبائل المصامدة . وليس ببعيد ان تكون بين وجاج وأبي عمران علاقة مستديمة بواسطة المراسلة سهلت على أبي عمران أن يكتب لوجاج في مسألة أبي زكرياء كتاباً وجهه مع الامير نفسه حلاه فيه أبو عمران بأوصاف تدل على مقدار ما لوجاج من الاعتبار في نفس الشيخ أبي عمران ضمن فيه رغبته الخالصة في اصطفاء من يوثق بعلمه ودينه ليرافق أبا زكرياء الى قبائل صنهاجة ويتولى التبشير بالمبدأ الصحيح للإسلام حسبما يريد أبو زكرياء .

وهذا كل ما استطاع الشيخ أبو عمران ان يقدمه لامير لمتونة خدمةً للعلم وتنفيذاً لرغبة الامير الطموح وهذا نص رسالة أبي عمران للفقير وجاج كما يحدثنا بها التاريخ رأينا اثباتها اعترافاً بالجميل لأبي عمران « اما بعد اذا وصلك حامل كتابي هذا وهو يحيى ابن ابراهيم الكدالي فابعث معه من طلبتك من تثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته ليقرئهم القرآن ويعلمهم شرائع الاسلام ويفقههم في دين الله ولك وله في ذلك الثواب والاجر العظيم والله لا يضيع اجر من احسن عملاً » .

« ارتياح ابي زكرياء للكتاب وقدمه على وجاج »

أحرز ابو زكرياء من الشيخ ابي عمران على تلك الرسالة التي اعتبرها كفوز له ببعض الرغبات التي كان يترقبها حيث امكنه ان يجد في شعبه من يتحمل اعباء الارشاد لذلك قصد الفقيه وجاج في داره المعدودة لرواد الحقيقة ممن منحهم لقب المرابطين لرباطهم في سبيل العلم وحفظ كتاب الله الكريم والتفقه في الدين المكين بحسب ما تقتضيه الثقافة في عصره مما كان سببا في ذيوع خبره في قبائل المصامدة حتى اصبح عندهم بمثابة مرشد كبير له المرجع الاستشاري في المسائل العامة ويده زمام التهذيب والتربية في تلك القبائل وبينما هو على حالته العلمية ينشر لواء الاسلام اذ قبل عليه الامير ابو زكرياء يحيى الكدالي وكله آمال في الحصول على رغبته المقصودة لدى الفقيه وجاج . ومما لا ريب فيه ان الامير يحيى قد أبدى للفقيه وجاج رغباته والنوايا التي جاءت به الى ديار المصامدة وما يحاول وراء ذلك من النتائج نحو شعبه النبيل حيث كلفه ذلك المقصد الاسمي في القيروان تدابير كثيرة باستعمال مجهوده العظيم في جلب مرشدين منها لبث العلوم الدينية في ديار لمثونه كانت نهايته تعذر محي تلك البعثة التبشيرية التي اتجهت لها رغبة الامير غير انها كانت سببا في احرازه على نتيجة موفقة بالحصول على ارشاد من الشيخ ابي عمران الى دار المرابطين والاتياف برسالة الى الفقيه وجاج تفصح عن مقاصد ابي زكرياء وتكون سببا في اتصاله بالفقيه وجاج ذلك

الاتصال الذي كان في سنة ثلاثين واربعمائة حسبا يحدثنا بذلك التاريخ .

اتصال ابي زكرياء بوجاج وتنفيذ رغبته

علم مما قدمناه آنفا ان ابا زكرياء قد وقع اتصاله بالفقيه وجاج وكان لذلك وقع حسن ونتيجة موفقة يدرك مداهما الباحث في تكوين تلك الدولة الفتية مما مكن الامير يحيى من المباحثة مع الفقيه وجاج بما اذا امكن الاتصال الديني الذي يرجوا امتداده الى قبائل لمتونة بواسطة مرشد من رباطه ينشر المبادي التي اجملها الشيخ ابو عمران في خطابه الذي افسح المجال لابي زكرياء في الافصاح عن كل ما يختلج ضميره من الغايات التي جعل حياته موقوفة على تنفيذها باقتحام كل ما سبق من الصعوبات . وتدليل ما استعصى من العقبات .

ولما عرف الفقيه وجاج جميع ما املته عليه عزيمة ابي زكرياء جعل يفكر جيدا في تنفيذ رأيه السديد فنهض وجمع تلاميذه كاستعرض لجيشهم اللجب امام نظراته يفرس في جموعهم بتلك اللحظات التي يختلسها منهم مجاوزا في بحثه على شخصية ممتازة بينهم اقصى حدود البحث حيث رأى استكشاف نفسياتهم بقراءة خطاب ابي عمران على مسامعهم ليعلم مقدار ما سيكون له من التأثير في نفوسهم والاعتبار في انظارهم وما سيبعثه من الشعور نحو تنفيذ تلك الرسالة المحتاجة في تبليغها الى عبقرية فذة تؤهل الموصوف بها ابلاغ رسالته في رزانة واخلاص غير هياب ولا وجل على ان الفقيه وجاج

في اختياره قد لا يهمل النواحي الاخلاقية لمن يقدم نفسه لتولي تلك السفارة الدينية في قبائل صنهاجة لا اعتبره كمنار يرشد للوحدة الاسلامية في تلك الصحراء البقع التي قدر لها ان تكون مطلع فجر الحياة الجديدة بالمغرب الاقصى .

وهنا يمكنك ان تتساءل هل اجيب الفقيه وجاج الى طلبه ونجح الامير يحيى في مقصوده ؟

ذلك ما استجاب عنه بكلمة الاثبات وتسجله بنخوة وطرب في صحيفة البطل العظيم عبد الله بن ياسين الذي تحركت فيه تلك العاطفة السامية فكان اول من اجاب داعي الشيخ وجاج في تنفيذ رغبة امير لمتونة ابي زكرياء .

انتخاب عبد الله بن ياسين بعد ان رشح نفسه

اراد عبد الله بن ياسين ان يحرز على فضيلة الاسبقية فندب نفسه للقيام بامورية الارشاد في قبائل صنهاجة آملا ان يكون الزعيم الديني والمؤدب الرباني في الصحارى المتونة وراجيا وراء ذلك ما سيحدثك عنه التاريخ لهذا تقدم الى شيخه وجاج مرشحا نفسه للاماني التي دعا اليها الفقيه وجاج الذي وافق على ذلك الترشيح وليس ببدع ان يرى الاستاذ في تلميذه من المؤهلات العقلية والصفات الفاضلة ما يجعل من صاحبها واعظ الوقت ورجل المستقبل الوحيد لذلك تم انتخابه لعبد الله بن ياسين ليحقق تلك الآمال التي كان يطمح لها ابو زكرياء على ان المواهب التي انفرد بها عبد الله بن ياسين

لا تخفى على من درس حياته دراسة كافية حيث يقف له على نواحي جلية
امتاز بها في كثير من مواقفه الشريفة حيث جمع الى ثقافة عالية سماحة نفسية
وشهامة روحية وعزيمة قوية جعلته في صراع دائم مع مفاجأة الايام مما
يستخلص من حياته العملية فتلک هي الحال التي كونت لنا من ابن ياسين
ذلك الزعيم الديني المكين والفتاح العظيم والمرشد الممتاز مما قد يلاحظه
الفقيه وجاج في انتداب تليذه الموفق لهذه المهمة الشاقة الملقاة على كاهله .
سيما والفقيه وجاج قد يكون بطبيعة الحال واقفا عند الوصية المرسلة
اليه من لدن ابي عمران المضمنة في خطابه بقوله « ابعث معه من طلبتك من
تثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته » وقد روعيت كل تلك المؤهلات
في عبد الله بن ياسين .

نضوجه الفكري واتصاله بالاندلس

اقد افادنا ابن السماك في حلاله ان عبد الله بن ياسين لم يكن قد سمع من شيخه
وجاج تعاليم القيروان وحدها فحسب بل كان صلة وصل بين المغرب الاقصى
وجزيرة الاندلس حيث قضى فيها سبع سنين يتطلب المعارف من نيا بيعها
الفياضة ويستجلب الحكمة من مهلهما المستنير .

اذا فنضوج عبد الله بن ياسين الفكري كان نتيجة ثقافة عالية تثقفها في
الاندلس ايام غذي بلبانها وقتئذ كانت الانوار الاسلامية تنبعث من أفقها
فتسبل رداء العز والابهة العرفانية على سائر الاقطار العالمية .

فلا جرم ان يتصف عبد الله بن ياسين بصفات ممتازة وقد أمضى من
ايامه في جزيرة الاندلس الحضة سبع سنين أخصبت فيها مداركه وأينعت فنونه
فجاء من كل فن باحسنه يعلم من اسرار الشريعة الاسلامية قسطا وافرا
طمحت نفسه العالية في بثه وتطبيقه على المبادئ التي اقتطفها من الجزيرة
فرجع الى ديار المصامدة واستتر في وسط طلبة وجاج حيث اندمج في ذلك
الرباط يترب الايام تفسح امامه المجال في بلوغ مئاربه الى ان نادته يد
الاقدار لانشاء تلك الامبراطورية المرابطة .

ذهاب عبد الله ابن ياسين مع الامير يحيى

لما تم اختيار الاستاذ عبد الله ابن ياسين للذهاب مع ابي زكرياء بقصد
نشر الاسلام في قبائل صنهاجة زوده الشيخ وجاج بنصائح قد يستثمرها عبد
الله ابن ياسين في بث دعايته وعند ذاك ودع ابن ياسين من لدن رفقاءه مبارحا
بلاد المصامدة مع الامير ابي زكرياء يحيى الكدالي وهو مملوء ثقة بنجاحه في
المأمورية التي بارح ديار المصامدة من اجلها وهي القيام بدعاية اسلامية يبشر
فيها بمحاسن الاسلام وفضيلة تلك الديانة العربية التي تفرض على من تقلدها
الاقرار بالوحدانية وتستوجب عليه التحلي بالاخلاق الفاضلة والتمسك
باهذاب الشريعة قاصدا بذلك وصول تلك القبائل الممتونة الى المثل العليا في
الفضيلة والكمال الذين بهما تسعد الامم وترقى الى درجة العرفان تلك كانت
نواياه ، وما ذا كان بعد الوصول :

وصل ابو زكرياء الى مقر امارته وحل في قبيلته حلول يمن وسعادة مصاحبا في وصوله للمرشد الكبير عبد الله ابن ياسين الذي استقبل من قبائل الصنهاجيين بكل اجلال واكرام معتبطين بحلولة بين ظهرانيهم عظيم الاغتيال حيث بلغت خبره قبل قدومه فشفعوا بحبه قبل رؤيته لشدة ترقبهم لمن يسترشدون به في امر دينهم سيما وهم يظنون ان مبدأ العلم الصحيح يتفق مع ما هم عليه من المبادئ العرفية لذلك تيامنوا بمقدم عبد الله ابن ياسين مظهرين له التأييد .

كيف شرع ابن ياسين في اداء واجبه العلمي

بعد ان استقر عبد الله ابن ياسين في ديار لمتونة أخذ في أداء مهمته التي جاءهم من اجلها .

وكان اول عمل افتتح به مهمته الدينية التمهيد لحفظ القرآن الكريم الذي يعد اساسا لتكوين البشر تكوينا يتفق مع الكمال الانساني ثم اتجهت نيته الى تلقين التعاليم الدينية حسبما يتفق مع القانون المالكي وطبق ما انضجته العقلية الاندلسية داعيا بعد ذلك الى تنظيف العقيدة بيث معالم الايمان السلفية في تلك القلوب الساذجة سالكا في دراسته ما يلائم البداوة المتوترة كما تحدثنا بذلك اخباره .

اذا تبين هذا اتضح ان رسالة عبد الله ابن ياسين كانت منحصرة في اشياء ثلاثة :

اولا رسوخ مبادي الايمان وانماؤها في ضمائر السامعين .
ثانيا اقامة شعائر الاسلام وفق ما جاءت به السنة .

ثالثا الرجوع بالقانون الديني والمدني الى مذهب مالك الذي انجز للمغرب
الاقصى بواسطة القيروان والاندلس آملا بذلك ان تنشأ في تلك القبائل
الصحراوية عاطفة دينية تكون اكثر موافقة للمدنية الاسلامية والعمران
العربي اذ يتمكن مبدء المساوات في العقيدة والدين والقانون تخصب مراع تلك
الاراضي القاحلة وتزال تلك الفوارق الشخصية تحت رعاية العدل وحماية
القانون ذلكم المبدأ السامي هو الذي تقدم به عبد الله ابن ياسين الى قبائل
لمتونة وبه استطاع ان ينشي اول امبراطورية مغربية اجتمعت تحت لواها
كلمة المغرب والاندلس بشعارقوامه حفظ القرآن والخضوع للكتاب والسنة
والتمسك بالتقاليد الشرعية تحت قانون اسلامي ترتضيه الدولة لتشريعها .
ذلك كل ما قدمه ابن ياسين وكان شديد الحرص على تنفيذه في الديار
الصنهاجية بكل امانة واخلاص آملا الوصول بتلك الاماني الى شاطئ
السلامة والنجاح .

غير ان عواصف المعارضة أُلجأت الى الجنوح حيث تحطمت تلك
الآمال فوق صخرة المنازعات التي حالت بين ابن ياسين وبين تبليغ مبداه
الديني في وداعة وطمانينة .

اثر المعارضة في موقف عبد الله ابن ياسين

لقد علم من حياة ابن ياسين كل ما قام به من المحاولات في اقتناع

خصومه الدينيين بضرورة مبادئ الحق للعمران الانساني غير انه مع الاسف الشديد لم ينجح في محاولته ولا استطاع التقدم في خطته التي رسمها لتنفيذ مشروعاته الجليلة لما صادفه في سبيل نيته من العقبات الكأداء التي صعب عليه تذليلها بدون التجاء الى القوة وتحكيم السيف ، ومن الطبيعي ان يفاجأ عبد الله ابن ياسين في قبائل لتونة بغير ما كان يتربص من ساحة اخلاقها وليونة طباعها لان من الصعب جدا ان تزال الاعراف المتسلسلة في الامم بدون التجاء الى اراقة الدماء سيما اذا كانت فيها انواع من الحرية الشخصية لان الانسان ميال بطبعه الى عدم الخضوع للقيود الشخصية مهما امكنه التخلص منها وليس من السهل على ابن ياسين ان يلزم تلك القبائل بقيود دينية قد تعتبرها كحائل بينها وبين ما كانت تتمتع به من سائر الملذات النفسية والمحيطات العرفية بسلبها المميزات التي ترى فيها ما يوافق هواها لذلك تمرت عشائهم على ذلك المبدأ وأبى الخضوع الى ما يفرضه عليها عبد الله ابن ياسين في تعاليمه الدينية لعدوها التقيد بامور كانت طليقة منها اجحافا بحقوقها واهمالا لعوائدها التي تتمتع بمبادئها منذ قرون متطاولة ولو أن تلك القبائل تدبرت ما كان يرمي اليه مبدأ ابن ياسين لتوصلت الى ان المخلوق الانساني الممتاز بالادراك السليم لم يخلق عبثا وهملا يعيش كما تعيش العجاوات بل أحكم صنعه في احسن تقويم ، ليتقيد بما يستحسنه العقل السليم ، ويلائمه الطبع الفطري القويم ، من الخضوع للرسوم الدينية الخفيفة التي خلق الانسان وفرض عليه امتثالها وودعت فيه قوة التفكير ليدرك بها محاسن التشريع

فيسكن اليها بكل رعاية واجلال ، اذ بمعرفة ذلك وامثاله يصل الانسان الى مستوى الكمال ولكن ، أنى لقوم لم تتقدم مداركهم ولا قطعوا شوطا في التعليم يمكنهم من الفرق بين لذة المعرفة ولذة النفس ان يتوصلوا الى مدى ما يرمي اليه مبدأ ابن ياسين الديني لانهم لو ادركوا ذلك الفرق لا استطاعوا تحقيق آمال ابن ياسين من اظهار الحق وادحاض الباطل على ان ابن ياسين قد تمكن من تحقيق بعض ما يصبو اليه ببث العقيدة الاسلامية هنالك وشيوعها في افراد المrapطين وتمكن كذلك من بث بعض مراسم الاسلام باظهار شعائره واحلالها في القلوب محل القبول غير ان نجاحه في هاتين المسألتين لم يحل بينه وبين ما ارتطمت فيه سفينة الامل بتخفيف ما احاط بهم من التوغل في الشهوات النفسية والملذات البشرية بالانهمالك في تعدد الزوجات تعددا لا يتفق مع ما تحدده الشريعة الاسلامية بشرط العدل والمساوات بين افرادهن تلك هي المهمة التي قامت حولها المنازعة وتحطمت في شاطئها الغاية المنشودة حيث استصعب القوم التنازل عن بعض نساءهم الكثيرات امثالا لفروض الدين الاسلامي لذلك كانت صدمة عنيفة ترتب عليها اثر فعال بوقوفهم في وجه عبد الله ابن ياسين واعلانهم عدم الخضوع لشريعة لم تكن تملأ قلوبهم غبطة وايمانا ولا ورثوها عن آباءهم الاولين .

فلذلك انكروها ورفضوا التحديد الشرعي باربع نسوة مما نشأ عنه موقف غريب لعبد الله ابن ياسين اخرج مركزه وأضعف من آماله القوية في

تبلغ ما عهد اليه من امر الاسلام في قبائل صنهاجة على ان ابن ياسين لم يعدم له اتباعا بعد كل ما صادفه من الصعوبات يتظاهرون له بالتأييد والقبول وهم في الحقيقة خصومه اللدء المستترون تحت لواء المدارات او النفاق الاجتماعي كما يلقيه بعض اصدقائنا السوسيين اجل انه لحري بالتلقيب بالنفاق الاجتماعي ذلك المرض الخبيث الذي أصيبت به هذه الامة في الصميم حتى طغى سيله على بعض افرادها ممن اصبحت الصراحة فيهم على شفا جرف هار

تظاهر اولئك المدارون او المنافقون بالتأييد لابن ياسين في ساعة هو احوج ما يكون الى اتباع صريحين في اقوالهم مخلصين في صداقتهم ليستطيع باخلاصهم ايجاد جو ملائم للتخفيف من غلواء الصحراويين في التمسك بعوائدهم العتيقة وخيالاتهم الزائفة غير انه قد اغتر بتظاهر هؤلاء فكان صريحا معهم الى أقصى حدود الصراحة مما اختلقوا بسببه جوا فاسدا سُمِّمُوهُ بنفثاتهم الخبيثة التي اصتغت بدعاية سرية واسعة النطاق ضد كل ما يراه عبد الله ابن ياسين دستورا صالحا لايجاد مثل عليا في قبائل لمتونة يستند في تشريعه الى الاسلام فهوّلوا على القوم الخضوع للتقاليد الدينية ونفخوا فيهم روح التمرد على مبادئ الاسلام مما اثار في ابن ياسين شعورا جديدا نحو سائر الافراد يشوبه نوع من التصلب والشدة غير فيه أسلوبه الدعائي من وداعة وليونة الى غضب وشدة ينشأ عنهما انذار وترهيب . ومما يوسف له ان لا يجد ابن ياسين بعد كل ما سبق من المحاولات اذانا صاغية ولا قلوبا واعية لسماع ترغيبه وترهيبه في سكونه وثورته مما فكر معه في تصميم خطة جديدة

تمكنه من نواياه في مستقبل الايام لذلك اختار الانفراد ، واعتزم الرحيل بعد
يأسه من الوصول الى نقطة المفاهمة ودائرة الاتحاد .

تفكير ابن ياسين في الارتحال وموقف أبي زكرياء

لما يئس ابن ياسين من ابلاغ دعوته ، وقنط من الوصول الى بغيته ، شرع
يفكر في الخروج من مأزقه الحرج بالذهاب الى محل يطمئن فيه الى بث
مبادئه ويتأتى له فيه ايجاد قوة معنوية يستطيع بعدها ان يبث مبادئه في جو
تملاءه الطمانينة وتكتنفه القوة ويخضع له اولئك المنكرون الذين اتعبوه في
ترويدهم على الحق حيث ابوا الانقياد له الا تحت تأييد السيف ولم يجد
سبيلا يوصله الى ذلك الا بالرحيل الى بلاد السودان آملا بعد الذهاب اليه
ان يظفر هنالك بانصار ومؤيدين له من الجنس الاسود بعد ما اتعبته الاجناس
الآخر ولكن همة ابي زكرياء ابت ان تسمح للشيخ ابن ياسين وحده
بالرحيل الى ديار السودان بعد فشله في مهمته الدينية .

ولقد خفف الامير ابو زكرياء من فزع عبد الله ابن ياسين وغضبه
بارتياحه شخصا لجميع ما جاء به حيث يعتبر ان مصاحبته للشيخ كانت اولا
وبالذات للانتفاع بها الشخصي وليس على ابن ياسين الا البلاغ وسواء بعد
ذلك تبعه القوم او رفضوا ما دام ابو زكرياء مطمئنا اليه .

على ان النصر سيكون حليفه في النهاية وبذلك خف على ابن ياسين
بعض ما اصابه وتبين له من ديانة المتونيين انها لم تخرج عن دائرة النطق

والتسمية على سبيل التقليد الى دائرة العمل والتطبيق حيث انهم يظنون ان كل الاسلام هو التلفظ بالشهادة وحدها وان الشهادة هي كل الاسلام ولم يعلموا ولا انصتوا للعلم بان النطق بالشهادة لم يكن الا اساسا لقبول الاسلام وركنا توضع عليه شعائر الايمان وحينذاك اقترح ابو زكرياء على عبد الله ابن ياسين الخروج معه الى جزيرة ينزوون فيها فرارا من فتنه الاضطراب الطائفي الناشئ عن المخالفة الدينية فوافق ابن ياسين على الخروج لتلك الجزيرة التي يحدثنا صاحب العبر عن موقعها الجغرافي في النيل ولعله تساهل في التعبير حيث اطلق اسم النيل على نهر النيجر الكبير الذي يخترق بلاد سينغو وتنبتكو عند مروره بوسط السودان الغربي حيث نشأ عن تعاريفه شبه جزيرة تكونت بين خليجين لدى الاقتراب من خليج غنيا الشهيرة . وليس ببدع تسمية ذلك النهر بالنيل لوجود ذلك في التعابير القديمة عند المؤرخين حيث استعملوا اسم النيل على اطلاقه في النهر الكبير في السودان سواء كان له اتصال بالنيل اولا .

ولا إنخال الامير يحيى مع شيخه قصدا غير تلك الجزيرة النيجرية « يله شبه الجزيرة » .

هاجر ابن ياسين ومعه من المخلصين سبعة انفار ممن أخذوا الميثاق على نفوسهم ان لا يفارقوا الشيخ والامير في هجرتهم للجزيرة تطلبا للحقيقة وترويدا للنفس على الصبر والمجاهدة الى ان ياتي امر الله . وقد كان لهجرتهم اثرها الفعال ودويها الحلاب في قبائل لمتونة بإيجاد شعور طيب نحو سلوك

ابن ياسين الديني ذلك السلوك الذي رقت لنبه افئدة جماعة من الملتمين فصمموا على الاحاق بابن ياسين في جزيرته مطمئين لشعاره الديني .

ومن الطبيعي ان يصادف ذلك الشعور وتلك الهجرة المتتابعة رضي المربي الكبير الذي أصبح في دار هجرته ماسكا على ناصية كل من لجأ اليه يلزمه ما شاء من القيود ويفرض عليه ما يرى من الاحكام ، ولا جرم ان يكون ابن ياسين في هذه الفرصة شديد الحرص على تنفيذ دستوره الديني « ما جاء به القرآن » بأي طريق يضمن له النجاح بصراحة أوضح وصرامة أقوى مما قد يكون لازما على الدكتاتور المصلح ، على ان من الضروري جدا ان يتجدد نشاط عبد الله ابن ياسين في دعايته التبشيرية بعد ان قطع كل مامر من الاشواط ووصل الى هذه المرحلة التي هيأت له جوا صالحا لوضع تصميم نافذ المفعول لمشروعه الانشائي الجديد ، ذلك المشروع الذي افتتحه في عهده الهجري « الجزيري » بتلقين اتباعه آي القرآن وافهامهم محاسن الاسلام بتحليل يتفق مع عقليتهم ويوافق مقاصد التشريع مما تواضعوا به الى مبدأ ابن ياسين الديني في سكة واطمئنان تغشاهم الندامة ويخجلهم ما سبق من الخذلان مما ظهرت معه لابن ياسين بارقة أمل تبشر بعهد جديد ذلك العهد الذي تبددت لظهوره الغيوم القاتمة التي كادت تحول بينه وبين ابراز قبس من النور الاسلامي في قبائل الصحراء فأصبح قرير العين بانجلاؤها من سماء العقيدة مما يعد بكل افتخار فوزا سياسيا لابي زكرياء مع شيخه في ايجاد مكان صالح لانتشار دعوتها الاسلامية انتشارا كانت نتيجته الاولى توالى الوفود

من عقلاء ملتونة ووجهائها على الجزيرة حتى أصبحت مقراً لما ينف على الف رجل من المخلصين في افعالهم الصادقين في لهجتهم كما تبئنا عن ذلك حياتهم الاسلامية .

ومما هو جدير بكل تقدير ان تلك الجماعة الاسلامية هي التي تكونت منها اول قوة عسكرية أمكن لعبد الله ابن ياسين ان يستند عليها في تنفيذ مبادئه الدينية كما حدثنا بذلك تاريخه الانشائي لدولة المرابطين ، هذا ولقد اقتنعت تلك الجماعة الصنهاجية بسمو مبدأ ابن ياسين الديني ونبيل مقاصده التي يرمي اليها بازالة الفوارق الشخصية والانانية الفردية تحت لواء الوحدة الاسلامية فما جعل ابن ياسين يسكن الى استقرار عقيدتهم بثبوت الايمان في ضمائرهم . . حتى شرع يتوسع معهم في دراسة مبادئه التبشيرية دراسة تناول فيها تحليل معاني الفتح في نظر الاسلام . على ان عنايته الخاصة كانت موجهة الى تحليل معنى الرباط في سبيل الله وتوضيح ماله من انبل المعاني لدى الاسلاميين حيث تخلص بذلك الى ابتداع « لقب مرابط » وتفخيم شأنه الى درجة أصبح معها ذلك الوصف الممتاز كوسام عسكري من أوسمة الافتخار يستحق الاتصاف به من قدم تضحية في سبيل الذود عن الاسلام والدفاع عن مبادئه مما تشوق القوم بسببه الى نيل ذلك الفخر العظيم الذي اعتبر في نظرهم من اميز الصفات واعظم المقاصد .

ولا غرو اذا استغل ابن ياسين اكتشاف سر المرابط على الصفة التي أصبح عليها في نظر اتباعه فهو رجل علمته التجارب والاختبارات كيف

يستفيد من الحوادث والظروف على ان في ابتداء ذلك الوشاح الاكبر
« وصف مرابط » وتفخيمه للحد الذي وصل اليه ما يشعر بنضوج تفكير ابن
ياسين وحصافة رأيه .

وبعد فقد آن لعبد الله ابن ياسين ان يقول كلمته الفاصلة غير
هياب ولا وجل :

« اهتمامه بفتح اجداله وتعبئة الجيش »

شرع الامير ابو زكرياء مع زعيمه الديني عبد الله ابن ياسين في تعبئة جيشهم
المرابطي استعدادا للمنازلة الصنهاجيين في عقر دارهم اذا هم صمموا على معارضة
المبادئ الدينية التي ستعرض عليهم ثانيا ، لذلك عرض ابن ياسين تلك الفرق
العسكرية التي يبدو للباحث انها كانت مركبة من المشاة فحسب عرضا يقصد
به اذكاء الحماسة في شعورهم واستفزازهم الى منازلة المعاندين وقد تجلى
اهتمامه بذلك في خطبته الاستنهاضية التي حثهم فيها على الثبات ورباطة الجأش
عند اللقاء حتى أدى به ذلك الوجدان وتلك الحماسة الى الاغراب في كلمته
التي آمن بها اتباعه ايمانا قويا « لن يغلب الف من قلة » ، بعد كل ما سبق
خرج ابو زكرياء مع شيخه في معسكرهم يؤمون . . . قبيلة اجدالة ولما التقى
الجمعان دعاهم ابن ياسين مع زملائه الى الاسلام الصحيح مستعملين طريقة
اللين في دعوتهم مما كسبوا به انفاراً مؤيدين لمبادئهم الدينية . غير ان كسبهم
لاولئك الانصار في قبائل المثلثين لا يعتبر فوزاً نهائياً لابن ياسين الذي سخر

القوم بعد ذلك من امره وأبوا الاصغاء لدعايته مما اضطره الى خوض غمار الحروب الدامية التي أصبحت لامناص منها لارغام المتعنتين ولما فشلت كل المساومات التي قدمها ابن ياسين نادى في معسكره هلموا الى ساحة الوغي بالزحف على قبيلة اجدالة وما هي الا لحظة فاذا بالجيشين يلتحمان في معركة هائلة أسفرت على انتصار عظيم لابي زكرياء مع مستشاره الديني كانت نهايته خضوع تلك القبيلة الكبيرة التي تعتبر كالتاج على هامة تلك القبائل في البأس والشدة .

وبإخضاعها واستتباب الامن في اطرافها أرغمت على قبول التقاليد الدينية التي لم يتسع لها صدرها من قبل وعندئذ اهتم عبد الله ابن ياسين بفتح قبيلة لتونة الشهيرة فنقض بجيشه الجرار زاحفا على تلك القبيلة القوية داعيا اهلها الى الاسلام على طريقته المعتادة في جميع غزواته حيث لا يلجأ للسيف الا اذا نضب امل السلم . فتقابل الفريقان ودارت بينهما المعركة بشدة أظهر فيها المرابطون بطولة صادقة وثباتا عظيما تمكنوا بهما من انهزام لتونة انهزاما تنازلوا بعده عن عوائدهم وانقادوا لمبادي الاسلام .

ولما انضوت القبيلتان العظيمتان تحت لواء ابن ياسين فكر في فتح ثالثة القبائل مسوفة ذات البطش والشكيمة لذلك انتهر نشوة الانتصار فجهاز جيشا عتيداً لمازلتها ثم التحم الحيشان وأثنى المرابطون في صفوف تلك القبيلة حتى هزمت شر هزيمة امام القوة المرابطية وبتلك الانتصارات المتتابة أصبح لعبد الله ابن ياسين نفوذ ممتد في اعظم القبائل الصنهاجية استطاع به

محو كل اثر للاعراف المنافية للاسلام كما استطاع به ايضا تكوين تلك القبائل
تكويناً دينياً يستند في عصيته على الحامية الاسلامية التي أصبحت تمثل قوة
عظيمة تزلزلت لوحدها اركان الوثنية في المغرب الاقصى وتقلص ظلها في
ذلكم الربوع « اجدالة » « لتونة » « مسوفة » باندثار تلك العوائد المزمنة
على يد البطل العظيم والفاتح الكبير عبد الله ابن ياسين ذلكم البطل الذي
أصبحت جل القبائل الصنهاجية تدين لدعوته بدون مقاومة حيث داخلها
الرعب واستولى عليها الفرع وأيمنت ان ما حل بمن يمثل عزتها وشهامتها
سيحل بها اذا هي تظاهرت بالمعارضة . ولا جل ذلك نشأت فكرة التوبة
عند جماعة منحوا انفسهم لقب التوابين والتجسوا لابن ياسين معتذرين
ومعلنين توبتهم وانقيادهم للاسلام غير انه شرط عليهم لقبول التوبة ما ينبثق
عنه التاريخ :

شرط قبول التوبة عند ابن ياسين

لما توالى الانتصارات لعبد الله ابن ياسين بالاستيلاء على كبريات
القبائل وامهات القرى نسل اليه من كل حذب جماعة ممن ارتدوا دثار
التوبة راجين قبول انابتهم الى الله بسلوك السبيل السوى الذي يراه ابن
ياسين بلا تردد ولا مخالفة غير انه على عادته في الاتيان بأوابد الانظار
وشوارد الاحكام سلك معهم في قبول التوبة طريقاً غير مأنوس ولا مالوف
حيث شرط عليهم تحمل مشقة مائة سوط « كحد » مظهراً لهم انه يقصد

بذلك طهارتهم البدنية من ادران الخطايا . . . مما يحار المرء في تعليله وان كان في استطاعته ان يلتمس له تعليلا إقناعيا بانه نهج معهم ذلك السبيل ليختبر مقدار ما عندهم من الصبر وما هي الاعتبارات التي يمنحونها لاسم التوبة من حيث الصبر والثبات على مفاجأة الاحوال لان بصبرهم على تجرع مائة سوط يطمئن الى تمكن توبتهم الاعتقادية لانها حينئذ لا تنطوي على خداع ولا تدليس « والساسة تشريع خاص في ظروف خاصة » لانه يستبعد جدا ان يكون ابن ياسين قصد محتتهم على سبيل الانتقام مما كان بدر منهم في اول امره . « وان كان حب الانتقام من الطبائع البشرية » على انه لا مانع ان يقصد اشعارهم بانهم مسوقون في طريق الاختبارات والامتحانات العvisية كما انهم مسوقون لامثال إقامة الحدود وانواع التأديب والتعزير بل مسوقون الى التضحية بمهجهم في صفوف الوغي والنزال مما يستلزم الصبر والثبات والا فالتشريع السماوي لا يوافقه على هذا الشرط التطهيري الذي يبدو لاول الامر انه لغير سبب .

قبل اولئك المساكين ذلك التطهير البدني وتجرعوا كأسه المرة محتسبين ان لم يكونوا قد اعتقدوه حقا من الشروط السماوية لقبول التوبة وقد برهنوا بذلك على حسن استعدادهم لتحمل شروط الاسلام واختبارات الظروف آملين وراء ذلك مثوبة عند الله تعالى لذلك استظلوا بلواء الاسلام تحت زعامة ابن ياسين الذي اغتم فرصة خلودهم وسكونهم الى محاسن الاسلام فاشتغل بالترتيبات الادارية التي راعى الاسلام بوضعها مصالح البشر.

تطهير ديني يتلوه ترتيب اداري

لما انتهى عبد الله ابن ياسين من تنظيف العقيدة شرع في تنظيم الادارة المالية لتلك القبائل المشمولة بزعامته فاتخذ صندوقا لتوفير المادي يعرف في لسان الاسلام بيت المال « بنك حكومي ديني تجي اليه اموال الدولة » وقد كان مقصده السامي بذلك المؤسس الكبير توفير المال الكافي لتنظيم الدفاع عن الاسلام لهذا امر بجمع الزكاة وإضافتها الى المغنم وجعل ذلك ميزانية خاصة لشراء الخيل والدرق المطية وانواع الاسلحة المستعملة في ذلك العصر استعداداً للفتح الذي أصبح عقيدة راسخة في قلوب الاسلاميين من تلك القبائل الصنهاجية المتحفزة لتطهير بقية الصحراء من العوائد الخبيثة لذلك شنوا الغارة على اهلها قاصدين إرغامهم على اعتناق الديانة الاسلامية فتمكنوا بحسب استعدادهم واتحاد كلمتهم من الاستيلاء على كثير من ارضها بعد غنم اسلاب كثيرة من معاركها جعلها ابن ياسين فيئا للمرابطين وبعض رفاقه السابقين مما يعد إغرابا في الحكم .

على ان للمواقف اثرا على الساسة الشرعيين وليس من الغريب ان يقصد ابن ياسين بذلك تمييز من دخل في الاسلام طوعا فيستحق رعاية واختصاصات قد لا يستحقها من دخل في صفوف المسلمين تحت ظي السيوف . ومهما يكن من الامر فان ابن ياسين قد راعى في توزيع المغنم مصلحة رأى أنها تتفق مع ما يرمي اليه من المقاصد السامية . لذلك تجاوز

بعض انصاره الذين قاتلوا في صفه الى قدماء الاصحاب من مرابطي دار
وجاج ولعل ذلك لا مرين الاول احياء تلك الاواصر العلمية بروح مادية
تجعل اصحابه الاقدمين مطمئين الى مركزه الديني في قبائل الصحراء .
الثاني لفت انظارهم الى الاتجاه الذي يتجه اليه من ضم تلك القبائل
المصمودية الى لواءه حيث يستميلون القلوب هناك بنفخ روح الاسلام
الصحيح في روع كل من لهم به اتصال من رءوس المصامدة لما في ذلك
من بث دعاية حسنة للحياة الاسلامية الجديدة المنبثة في قبائل صنهاجة
تحت لواء ابي زكرياء مع شيخه الذين تأثلا مجددا شائخا وفخرا تاريخيا ملأت
رعايته القلوب ، وخضعت لنوامسه العشائر والشعوب .

كل هذه الاعمال العظيمة أنجزت في حياة الامير العظيم ابي زكرياء
الجدالي الذي استأثرت المنون بروحه الطاهرة ، بعد ان شاهد اعماله
الخالدة قد أثمرت بعض ما كان يصبو اليه من النتائج العظيمة ، التي يعد من
أعظمها إنشاؤه للامة المغربية إنشاء دينيا يتفق مع ما كان يطمح اليه وقتئذ
شاهد الحياة العلمية بمدينة القيروان في رحمت الله يا أبا زكرياء .

تولية ابي زكرياء للمتوني بعد يحيى الكدالي

لما وافى الاجل المحتوم صاحب الرعاية الامير ابا زكرياء يحيى الكدالي
الذي وطد اركان الحياة الاسلامية في قبائل صنهاجة فكر شيخه ابن ياسين
فيمن يخلفه لرياسة الحربية والامارة الاسلامية في قبائل الصحراء وقد بالغ

في التفكير حول شخصية ممتازة لها من الصفات الاخلاقية ما يؤهلها الرياسة تلك العشائر الاسلامية . وقد اهتدى بعد حين الى ترشيح العبقري الممتاز ابي زكرياء يحيى ابن عمر بن تكلابن الممتوني لتولية الامارة المرابطة فعرض امره على رؤساء ملتونة فارتاحوا الى ذلك الترشيح وقابلوه بكل اغتباط واعتبار لما لابي زكرياء الممتوني في قلوبهم من المسكنة السامية مما استقبل به ابو زكرياء عهداً جديداً وحياة اخرى جديدة بكل اكابر حيث أسندت اليه الرياسة الادارية والامارة المرابطة كمتضامن مع الزعيم ابن ياسين الذي اعتبر كمستشار ديني للامير الجديد الذي ألقى على عاتقه مقاليد الامور الادارية في تلك القبائل التي أجمعت على مبايعته مما انتقلت بسببه الرياسة من اجدالة الى ملتونة وقد اجتهد ابو زكرياء الممتوني في ارضاء القبائل الصنهاجية بتشديد صرح العظمة التاريخية للمغرب الاقصى على الاسس التي وضعها سلفه الراحل ليبقى ذلك مقرونا باسمه الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

عزم ابي زكرياء الممتوني على فتح بقية الصحراء

لما انتهت مقاليد الامور الى الرئيس الاداري الجديد يحيى الممتوني رأى من الواجب عليه اغتنام فرصة الاتحاد المرابطي لتطهير بقية الصحراء واختراق حدود السودان وضم سائر التراب المغربي الى الوحدة الاسلامية وقتما سنحت الفرصة بذلك سيما وقد أنس الموافقة التامة من مستشاره الخبير ،

على ذلك التطهير ، فقوي عزمه على تنفيذ تلك الفكرة لذلك شرع في ترتيبات الجيوش وتنظيمها تنظيما يستطيع به النهوض الى حيث شاءت عزيمته تأهبا لامتناع الحسام وخوض غمار الحروب التطهيرية في القبائل المتمردة على مبادئ الاسلام فجهاز جيشه وتقدم قوته العسكرية لاصطلاء نار الحرب الى أن أثنى في صفوف اعدائه الدينيين وخصومه الالاء حيث خرق صفوفهم وهتك سياجهم غير هباب ولا وجل مما يشف عن نفسية ذلك البطل الكبير ذي الشجاعة والرياسة وقد حالت يد الاقدار دون إصابته في المواقع التي شارك فيها بشخصيته غير أن ذلك الاقدام وتلك المغامرة أغضبا شيخه ابن ياسين الذي اعتبر ذلك من الهفوات الكبيرة والاغلاط القبيحة التي لا يسمح للقيادة العليا بارتكاب امثالها في مثل انظروف المحيطة بابي زكرياء الذي يمثل الروح المعنوية للجيوش المقاتلة التي تحتاج في مثل تلك الساعة الرهبة الى ارشادات فنية وتدابير محكمة اكثر مما تحتاج الى جندي يقاتل في صفوفها .

وعلى العموم فابن ياسين يرى أن فراهة القيادة العليا شرط اساسي للانتصار ، وسقطة واحدة من سقطاتها قد تستلزم الانكسار ، لذلك استوجب على ابي زكرياء الفتوني تأديبا حسيا يقدر بعشرين سوطا كمقدمة لتأنيب ادبي « ومن الغريب ان يرى ابن ياسين الضرب بالسياط في كل مناسبة » فقد (١) ضرب التائبين للتطهير البدني وضرب الامراء للهفوات الحربية (١) وضرب من فاتته الجماعة عشرة اسواط وضرب من فاتته ركعة واحدة خمسة اسواط ويعلم الله كم يضرب من فاتته الجمعة وصاحب القرية الخ

التي بدرت منهم وقد لا يخلو تأديبه المعنوي لابي زكرياء عن تفصيل ما يجب على من يخطبه مثل ذلك المنصب الخطير من أنه ينبغي له ان لا يكون خالي الذاكرة من المهمات التي قد تكون السبب الاكبر في الانتصار لذلك أمدته بالارشادات التفصيلية ولفت نظره الى النتائج التي يمكن ان تجنيها القيادة العليا بسبب التدابير المحكمة ، حيث ان الشجاعة لا تستلزم عليها المشاركة الفعلية . معللا ذلك بان حياة الجند بحياة اميره « وهي لعمري نظرية صائبة » نتجت عن فكر واختبار لان من تتبع الوقائع التاريخية وجد ان كل ما يحرز عليه الجند من الانتصار او الانهزام يرجع الى براعة القيادة العليا في تدبير الخطط الحربية ، وعدم تدبيرها كما ان شجاعة الجيوش ترجع الى الرياسة العليا قوة وضعفها فلو وضع زمام جيش باسل توفرت فيه شروط البطولة والاقدام تحت رعاية قيادة ضعيفة الرأي والارادة بسيطة التدبير لكان ذلك الجيش الباسل لقمة سائغة لتلهمها المنون وتفترسها براثن الاعداء مهمى كانت الاستعدادات الحربية والتجهيزات العسكرية وبعبارة ذلك اذا كانت القيادة العليا تمثل الشهامة وقوة الارادة وعندها من الثقة النفسية وحصافة الرأي ما يكفي لان يكون سلاحا قويا يضمن الفوز والنصر لها حتى ولو كان الجيش ضعيفا يملؤه الرعب ويفضل الحياة بقوة ارادتها وشدة عزيمتها وما تحكمه من التدابير اللازمة .

تلك كانت انظار ابن ياسين في المسائل الحربية التي حققها الايام وغنها

ينشأ تبديل الرياسة العليا ان أساءت في تصرفها الحربي ونحن الان لا نزيد البحث في تحليل التدابير الحربية باوسع معناها حيث تكفلت بذلك المذكرات وانما أشرنا الى هذه الجزئية التي كان يستعملها المرابطون في فتوحاتهم الكبيرة وهذا من مستشاريهم العظام يامر رئيس اركان حربيته يحيى الممتوني باتباعها في غزوه لبلاد الصحراء التي استولى عليها بعد ذلك كما استولى على كثير من بلاد السودان حيث اوغل في ترابه قاصدا التماهي في فتحه ونضاله الى ان توحد تلك الممالك المترامية الاطراف تحت لواء الاسلام . مما كان له دوي في اطراف المغرب اتجهت به الانظار الى امير الحق ابي زكرياء الممتوني اعترافا بفضله واستظلالا بسلطانه حيث اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعة وراسلوه مستجدين به وبجيشه الاسلامي على طاعتهم مسعود بن وانودين المغراوي الذي أرهقهم بانواع العسف والظلم وجرعهم كئوس الذل والهوان حيث عبست الايام في وجوههم وأصبحوا في ديارهم خائفين غير مطمئنين ولا آمنين مما رقت له قلوب المرابطين بإشفاقهم على اخوانهم المسلمين فاتفقت كلمة امرأهم تحت رياسة ابي زكرياء مع مستشاره الديني على انقاذ تلك القاعدة المغربية الكبرى من استبداد الحكم المغراوي البغيض مهما كلفهم الامر ، لذلك تقدم ابو زكرياء أمام جيشه الاوجب سنة ٤٤٧ قاصداً درعة فافتحم مداشيرها وأجلى عنها عمال المغراويين بعد ان اكتسح جميع ما كان ينسب للطاغية مسعود المغراوي الذي اغتاز لذلك

و ثارت ثأرته وأسرع بجيشه قاصدا معسكر ابي زكرياء اللمتوني حيث التقى
الجمعان وتقابل الجيشان بين درعة وسجلهاسة ودارت بينهما معارك دامية
كان النصر فيها حليف الجيش المرابطي العظيم الذي أرجع جيش مسعود
المغراوي على اعقابهِ خاسراً لرئيسه مسعود الذي وجد صريعا بين اشلاء
القتلى في تلك الموقعة التاريخية التي توافرت فيها للمرابطين مغنم كثيرة
خصص ابن ياسين خمسها لفقهاء سجلهاسة ودرعة ثم قصد ابو زكرياء
سجلهاسة فدخلها دخول الفاتحين وشرد كل من بدرت منه ادنى مقاومة
من بقايا المغراويين في تلك القاعدة الكبرى ثم نصب فيها اميراً من
المؤمنين المحافظة على الشعائر الاسلامية التي رفع منارها وأضاء سبلها بإزالة
سائر المنكرات التي أسسها المغراويون فخرقت دور الخمر ورفعت المكوس
وأزيلت المغارم المنافية للعدل الاسلامي ، ولما استقر الامن في سجلهاسة
ودرجت الطمأنينة الى القلوب انصرف ابو زكرياء قاصداً بلاد الصحراء
ليسترجع قوته ويتجه الى فتح بقية السودان حيث تهادى في إخضاعه الى
ان استشهد في بعض غزواته التي خاض غمارها بنفسه وأبلى بلاء حسناً في
حروبه التي دلل بها عقبات كأداء في وجه الفتح الاسلامي مدة إمارته
التي لم تتجاوز ثلاث سنين فإلى رضوان الله .

« تولية الامير ابى بكر بعد وفاة اخيه »

لما استشهد امير الحق ابو زكرياء اللمتوني في تراب السودان اختار ابو

محمد عبد الله ابن ياسين اخاه ابا بكر بن عمر الممتوني لتولية إمارة لمتونة على
الصفة التي كان عليها صنوه الشهيد وقد أحسن ابو محمد الاختيار حيث ان
الامير ابا بكر لا ينقص مكانة عن اخيه الراحل علما وورعا وشهامة
واقتراراً شهد بذلك قومه وسلم به رؤساء امته لذلك قبلوا رياسته بكل اطمئنان
ولم يكذبوا له قرار حتى نادى في قومه بالنفير الى غزو بلاد السوس الاقصى
وقبائل المصامدة فزحف بجيوشه المظفرة على المعازل السوسية مسنداً رياسة
مقدمة الجيش الى فخر المغاربة امير المسلمين يوسف ابن تاشفين الذي تألق
كوكبه في سماء الفتح الاسلامي لأول مرة تحت رعاية عمه الوقور ابي بكر
ابن عمر الممتوني الذي اختاره لمقدمة جيشه فقصدها من بلاد السوس جزولة
التي أبدت نضالا بسيطا قبل ان تقدم خضوعها للقوة المرابطة التي اقتحمت
بعد ذلك ماسة واخترقت صفوفها قاصدة قاعدة السوس الاقصى تارودانت
التي كانت مكمنا للرافضة من اتباع عبد الله البجلي الرافضي فأخضعوها
وقهر واءوسها ثم استولوا على بقية المعازل السوسية من دون إظهار مقاومة
من عصابات الموزعة في اطراف السوس وقد ألزموهم باتباع المناهج السنية
حسباً تقتضيه الشريعة الاسلامية .

ولما أنسوا منهم الثبوت على المبادئ الاسلامية ولوا وجههم صوب
المصامدة حيث عزموا على فتحها وضم قبائلها الى المملكة المرابطة التي
التأمت اجزاؤها وتوسعت سلطنتها تحت عرش الامير ناصر الدين ابي بكر
الممتوني فنزلوا على تخوم جبل درن العتيد فاستنزلوا كجانه الابطال ونازلوهم

فلانت قناتهم وتحطمت سهامهم إمام الجيش المرابطي الباسل الذي احتل ذلك الجبل وأوغل في قبائل المصامدة حتى فتح مدينة نفيس وتقدم نحو حدود رجراجة وحاحة اللتين قد متا خضوعهما للسلطة المتونية بلا مقاومة مما عبد الطريق امام الفاتح الكبير ابي بكر لقاعدة المصامدة الكبرى « مدينة انمات » التي طمع في فتحها الزعيم الكبير ابو محمد بعد فتح سجلماسة ودرعة والسوس الاقصى وجبل درن وغيرها من الحصون المغربية المنيعه حينئذ تشوف لمدينة انمات لماها من الاهمية الكبرى في الجنوب قبل تأسيس قاعدة المغرب العظمى « مراکش الحمراء » فحاصرتها الجيوش المرابطة حصاراً اشتد اثره على اميرها « لقوط بن يوسف بن علي المغراوي » الذي فر هارباً في نفر من انصاره قاصداً تادلا متنازلاً بذلك عن مدينة انمات بدون إراقة دماء وذلك سنة ٤٤٩ وقد استطاب المرابطون مناخ انمات فمكثوا فيها مدة ستين يوماً استرواحاً للنفس من وعثاء الاسفار ومشقة الحروب . ريثما استرجعت الجيوش نشاطها الحربي وقوتها المعنوية في جو انمات . ثم اقتفت اثر لقوط المغراوي الذي فر الى بلاد تادلا واستجار بملوكها اليفرنيين فاقتحمت عليه مقر اعتصامه بعد مقاومة بسيطة ناوش بها انصاره من بني ينرن ادت بهم الى استئصال ملكهم والظفر باجيرهم المغراوي الذي طويت على يده صحيفتهم من بلاد تادلا بما انفذ فيهم من السلب والتشريد الذي وضعت بسببه يد المرابطين على زوجة لقوط زينب بنت اسحاق النفزاوية (١) التي احتفظ بها ابو بكر

(١) زينب النفزاوية هي صاحبة الجلالة اميرة الجمال البربرية التي ضمت الى عرش

كانبل زوجة تربطه بها الصلة الزوجية الى ان صارت بعد في عصمة امير المسلمين يوسف بن تاشفين في قصة مشهورة يحفظها التاريخ المغربي لدولة المرابطين .

« فتح تامسنا واخضاع البرغواطيين »

لما انتهى الامير ابو بكر بن عمر من تطهير بلاد تادلا وقبائل المصامدة قفل حاملا الولاية النصر مع الزعيم الديني عبد الله بن ياسين يؤمان قبائل تامسنا بقصد فتحها وادخالها في حظيرة الوحدة الاسلامية بالديار المغربية لما اتضح لهم انها التي ظلت مثارا للفتن ومقراً لانبعاث البدع الذميمة في الديار المغربية . تلك البدع التي اخذ المرابطون العهد من انفسهم على استئصال جراثيمها اين ما ظهرت بهذه الديار .

وبينا هم يتعقبون اولئك الغلاة المتدعة بالا يغال في اصقاع تامسنا . اذ فوجئوا بنبي البرغواطيين (١) .

الجمال حصافة الراي وسداد التفكير مما جعلها تنبه في خيلاء الزهو . معتزة بما اودعه الله فيها من صفات الابداع . تلكم الغادة الحسناء هي زينب النغزاوية ساحرة الالباب التي يحق للتاريخ المغربي ان يمنحها بكل اعجاب ملكة الجمال المغربية . وقد بدأت حياتها الزوجية بيوسف بن علي وختمتها بيوسف بن تاشفين .

(١) قال صاحب العبر ما مؤداه برغواطة قبائل شتى من اخلاط البربر اجتمعوا الى صالح بن طريف الذي ادعى النبوة سنة خمس وعشرين ومائة في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان وتسمى بعالم المؤمنين الى آخر ما ذكر .

وعلى هامش ذلك اقول ظهر طريف في افق المغرب اول المائة الثانية مع ميسرة الحفير

ذوي الدعايات المنافية للمعتقد الاسلامي على مرآي ومسمع من المسلمين منذ انبعث بالتراب المغربي الدعي الخيث والشیطان المتمرد طريف الذي بذر فكرة النبوة وتشبع بروحها ولده الجريء صالح بن طريف الذي فاجأ القوم بدعوى نسخ الشرائع الاسلامية على يديه بما صاغه من

القائم بدعوى الحوارج الصفرية في المغرب الأقصى. وبد افول نجم ميسرة تنبأ طريف او بذر فكرة النبوة التي مهر في تثبيت دعائمها ولده صالح الذي اجتراً على وضع تشريع جديد قلب فيه مبادئ الاسلام بتغيير اركانه في وضعه الغريب الذي تقتطف منه في هذه العجالة ما يلتفت نظر الباحث فنقول: اول ما تظاهر به متنبى البرغواطيين الزهد والورع والتقشف في مناورات سحر بها الالباب واستولى على القلوب حتى تمكنت بذورة الخبيثة تحت ستار التورع والزهد، شأن المضللين في كل زمان ومكان. ولما اخذ بعقولهم واستمال بسطاءهم شرع ينفث فيهم سموه الفتاكة حيث تلقب بصالح المومنين تمهيداً لزعمه انه المذكور في القرآن . ؟

ولما تأصلت تلك العقيدة في اتباعه شرع لهم ما سولته له نفسه الخبيثة من التشريع الجديد الذي كان أساسه الوضعي الاعتراف بنبوته كمجدد للنبوة ومشرع يلتقي امره بطريق الوحي ، لذلك امرهم بصوم رجب بدل رمضان ، وفرض عليهم عشر صلوات فيما بين اليوم والليلة بعد تغيير أوقعه في هيأتها الاسلامية بجعل سجودها ايماء في سائر الركعات عدا الاخيرة فانه خصصها بخمس سجعات ؟

وقد حور كذلك في الوضوء حيث أوجب عليهم غسل السرة والخاضرتين ولعل ذلك تعبد . . . ووجب عليهم الاضحية في الحادي والعشرين من المحرم على ان تغير تسميتهم على الذبيحة والاكل والشرب بصيغة يظهر انها سرية يزعم انها تفسير لاسم الله تعالى ، وقد الزمهم باخراج الزكاة من كل التمار عكس ما هو عندنا اليوم من اسقاطها عن كل شيء في مقابل ما يدعى بالترتيب في فتاوي ما انزل الله بها من سلطان ؟ وقد اباح لهم التزوج بما شاءوا من النساء بلا قيد ، ولعل اكسير ذلك

السخافات العقلية التي اختلقها كشرية موهبها على العقلية الساذقة في السواحل المغربية وقد كان ذا حذق ومهارة في ابتكارات الكذب وصوغه مصاغ الحقيقة الثابتة في صور مدهشة بسرعة غريبة تحدثنا عنها فتنته التي اندلع لهيبها في قبائل تامسنا حتى طغت على معالم الاسلام وكادت تقضي على رسومه مما امر

هو الذي استولى على قلوبهم حتى قبلوا بفروضة الثقيلة ، وكان مما امر به قتل السارق تطهيرا له من خطيئة السرقة وجعل ديتهم من البقر . . . وكان فيما حرم عليهم اكل رأس كل حيوان مع كراهة اكل الدجاجة وتحريم اكل الديكة على ان من اكل ديكاً او ذبحه يعتق رقبة مما بقيت منه بقايا في قبائل درعة حيث لا يحضرون ذبح الديكة ولا يوافقون على اكلها وينتحبون اذا رأوا اعتداء وقع عليها ومن طوائفهم سقاءون كثير بمراكش حتى الان وهم قبائل تزرين وآيت عباس وغيرهم مما سنسط القول فيه في غير هذا التقييد .

وقد كان من افطع فروضهم على اتباعهم لحس بصاق رؤسائهم تبركا بسؤرهم واستشفاء بلعابهم مما بقيت منه بقايا في الاوساط المتصوفة بالمغرب حيث يشغلون في فم الاتباع بقصد تمكن الطريقة في قلوبهم ، بل لا يزال في الوسط الصوفي ما هو ادهى وامر حيث يشربون غسالة المشايخ ويديحون شرب فضلاتهم مما يعد عندهم من مفاخر الصفات وما قصة ابي بكر الطرابلسي عنك ببعيدة انظر صحيفة ١٨٢ من رسائل الشيخ محمد بن العربي الدرقاوي المطبوعة بفاس ، ولعل مبدأ الولاية عند اولئك المتصوفة موضوع على اساس الانحطاط النفسي والاستفزاز الظاهري حيث انهم يفتخرون بالجلوس على المزابل والرقاد في الطرقات واباحة المستفدرات مما هو مذكور في مناقبهم الكمالية ؟

وبعد فان لعق البصاق اخف من شرب الابوال واكل القاذورات وان كانا شريكين في الخساسة الروحية واستغفر المتصوفين من هذا التعليق البسيط المشارك لمبدأ البرغواطيين في استحلال ما تعافه النفوس . . .

وقد تسلسل ذلك المبدأ البرغواطي في المغرب الى ان تقلص ظله وانمحي اثره

امره وقوي في الساحل سلطانه حتى اصبح خطرا يهدد كيان الوحدة الاسلامية في المغرب الاقصى لذلك بادر عبد الله بن ياسين لتدارك تلك الفتن التي اتسع خرقها على دويلات المغرب قبل فأعد عدته لمنازلة اولئك الطغاة الكفرة قاصدا تخلص تلك القبائل الساحلية من مبادي ابي صبيح فزحف عليها في جيوش جرارة من المرابطين التحمت في غزوها مع جيش عبد الله بن عيسى في مواقع هلك فيها خلق كثير بما أبداه البرغواطيون من التجلد في الدفاع عن مراكزهم سيما في وقعة كريفلة من قبيلة زعير حيث أصيب الزعيم الديني عبد الله بن ياسين بجراحات أودت بحياته وأذاقته طعم المنون :

وفاة ابن ياسين واستقلال ابي بكر بالامارة

لما أصيب عبد الله بن ياسين بسهام البرغواطيين في ملحمة كريفلة التي خاض غمارها بنفسه وأحس بدبيب الموت يجري في عروقه تيقن انه لا محالة راحل من ساعته الى ما قدم . تشجع لا لقاء كلمة في معسكره ضمنها نصائحه

زمن آخر دعائهم عبد الله بن ابي غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف على يد دولة المرابطين . وقد ذم سعيد بن هشام المصمودي قبائل تامسنا التي اغتارت باولئك الادعياء في ابيات له حيث قال :

يقولون النبي ابو غفير * فاخزى الله ام الكاذبين

سيعلم اهل تامسنا اذا ما * اتوا يوم اقامة مقطعين

هنالك يونس وبنوا ابيه * يقودون البرابر حائرين

الى آخر ما ذكر في حياة البرغواطيين التي اقتبسنا منها هذه النبذة التاريخية لبيان ما كانت عليه العقائد في المغرب الاقصى قبل ظهور دولة المرابطين .

الارشادية التي يرى فيها فلاحهم اذا عملوا بمقتضاها في مستقبل ايامهم .
وقد رأينا من اللائق ان نختم بها ترجمته كما ختم بها حياته حيث قال
« يامعشر المرابطين اني ميت من يومي هذا لا محالة وانكم في بلاد عدوكم
فاياكم ان تجبنوا او تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وكونوا اعوانا على الحق
واخوانا في ذات الله واياكم والتحاسد على الرياسة فان الله يوتي ملكه من يشاء
من خلقه ويستخلف في ارضه من اراد من عباده » يحذرهم عاقبة التخاذل ثم
لفظ الروح الى خالقها عشية الاحد الرابع والعشرين من جمادى الاولى عام
احدى وخمسين واربعمئة أسبلت عليه سحائب الرحمة ودفن في محل إصابته
بوادي كريفلة وبني على قبره ضريح بسيط لا يزال معروفا حتى الآن
وما احراه بالاعتبار لو كان المغاربة يقدرون رجالهم العاملين .

هذا وقد صادفت وصيته آذانا صاغية ، وقلوبا واعية ، حيث جددوا بيعتهم
للأمير أبي بكر المكنى الذي استقل بامارتهم وانفرد برياستهم الموضوعة على
عاتقه فأحسن التديروا وحكم الامارة وقد رسم خططا موفقة في حرب خصومه
الدينين حيث اقتفى أثرهم واستعمل السيوف في رقابهم الى ان تفرقوا في المغاور
والكهوف ايادي سبا والجيوش المرابطية منقضة على رؤوسهم انقضا
الطير تملوهم بالسهم وترشقهم بالنبال الى ان استسلمت بقاياهم للقوة الاسلامية
تحت قعقة السيوف وركض الحيل حيث فرضت عليهم مبادئ الاسلام
فرضا تؤيده القوة المسلحة فأسلموا اسلاما يتفق مع التعاليم الدينية مما تم به
تطهير السواحل المغربية من ادغال البرغواطيين على يد الأمير الموفق أبي

بكر ذي المواقف الحاسمة التي استأهل بها كل اعجاب وتقدير حتى اعتبر
كأول مستحق للقب الامارة المرابطة عن جدارة واستحقاق . ولعل
صاحب رقم الحلل يرمز الى ذلك حيث جعله في مقدمة خلفاء المرابطين لما
قال في دولتهم :

واطلعت بمغرب لمتونه ❀ دولتهم عزيزة ميمونه
تجمع دينا وعفافا وكرم ❀ لم يدردر فضلها حتى انصرم
واذغت لحر بها الطوائف ❀ وظهرت من قومها خلائف
منهم ابو بكر حليف الدين ❀ ويوسف وهو ابن تاشفين
الى آخر ما سنقتطف منه في حياة امراء الدولة المرابطة .

رجوع الامير ابي بكر الى انعمات

لما يتقن ابو بكر باستئصال فتنة البرغواطيين من تراب المغرب آب الى
انعمات وألوية النصر ترفرف فوق كتائبه المظفرة وجيوشه الجبارة التي ألقت
رحلها في مدينة انعمات حيث مكث الامير ابو بكر مقدار ما جند فصائل
آخر من الصنهاجيين والمصامدة . ثم خرج بجيوشه زاحفا على جبال فازاز
وديار زناتة حيث انقضض عليها انقضاض الصقر على بغات الطير فأخضعهما
ثم هب على مكناسة فاقتحمها وقصد لواتة فحاصرها ثم خربها تخريبا لم
تعمر بعده .

ولما أخضع بني يفرن في مواطنهم وقهر الزناتيين في عقر دارهم رجع

ثانيا الى اغمات تتقدمه بنود النصر الحفاقة حيث اغتم فرصة الاستراحة وتأبط ذراع اميرة البهاء زينب النفزاوية محاولا بذلك رشف كئوس الهناء بين احضانها في تلك السويعات التي يختلسها من متاعب الحياة غير ان الاقدار قد فاجأته بفتنة تصاعد أوارها وكاد يتسمر لهيبتها بين اكدالة وملتونة مما اضطر بسببه الى مفارقتها ومغادرة اغمات لاطفاء نار الفتنة في قبائل الصحراء قبل اندلاعها واتساع نطاقها :

خروج ابي بكر للصحراء واستخلاف يوسف بن تاشفين

ما كادت سنة اثنين وخمسين واربعمئة تتم حتى استقام الامر لدولة المرابطين وتم لها الاستيلاء على جل التراب المغربي في حياة الامير ابي بكر الذي دانت له البلاد بالطاعة وقد اتخذ مدينة اغمات الحصيبة قاعدة ملكه ومقر سلطانه ومصدر امره لعماله وولاته فتوالى عليها الوفود وأقبلت عليها الوجوه من بلاد الصحراء حتى كثر الخلق وازدحمت المارة في شوارعها المكتظة مما تضرر به العموم فنشأت فكرة تأسيس مدينة عظيمة تستطيع القيام بلوازم الدولة لاحكام تخطيطها وفنية تصميمها الهندسي مما وقع بسببه الاختيار على بقعة مراکش التي يساق لذكرها الحديث غير ان ابا بكر قد باغته اخبار المنازعة التي ظهرت بدورها في الصحراء بين اكدالة وملتونة فرأى ان الواجب الديني يحتم عليه تلا في ذلك قبل فوات الاوان فأسند

العهد الى ابن عمه الكريم يوسف بن تاشفين المتوني الذي عقد له البيعة على بلاد المغرب وفوض له الامر في مصيره . بعد ان اشار عليه بتتبع بقايا المغراويين وبني يفرن وقبائل زناتة فقامه الجيش حيث احتفظ ابن تاشفين بنصفه وخرج ابو بكر الى الصحراء بنصفه الآخر بعد ما وقع الاجماع من اشياخ المرابطين ووجهائهم على بيعة الامير يوسف ابن تاشفين لما يعلمون من نبلة ودينه وشجاعته ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن طليعته فتحمل اعباء الامارة التي أسندت اليه وشرع في تنظيم جيشه الذي جعل مقدمته على اربعة فصائل كل فصيلة ترجع قيادتها الى قائد عظيم ممن رشحهم لذلك الامر .

ثم تنقل بجيوشه المنظمة في مناطق المغرب يجوس خلالها ويتربص منازل رؤساء اليفرانيين وغيرهم ممن دارت عليهم الدائرة بعد لقائه حتى دوح بذلك الديار المغربية التي انضوت تحت لوائه فتعاظم بانضوائها امره وتضخم ملكه وهابه اعداؤه مما طيرت انباؤه الى الامير ابي بكر في الصحراء حيث أصبح يفكر في مصيره :

تنازل ابي بكر ليوسف عن عرش المغرب

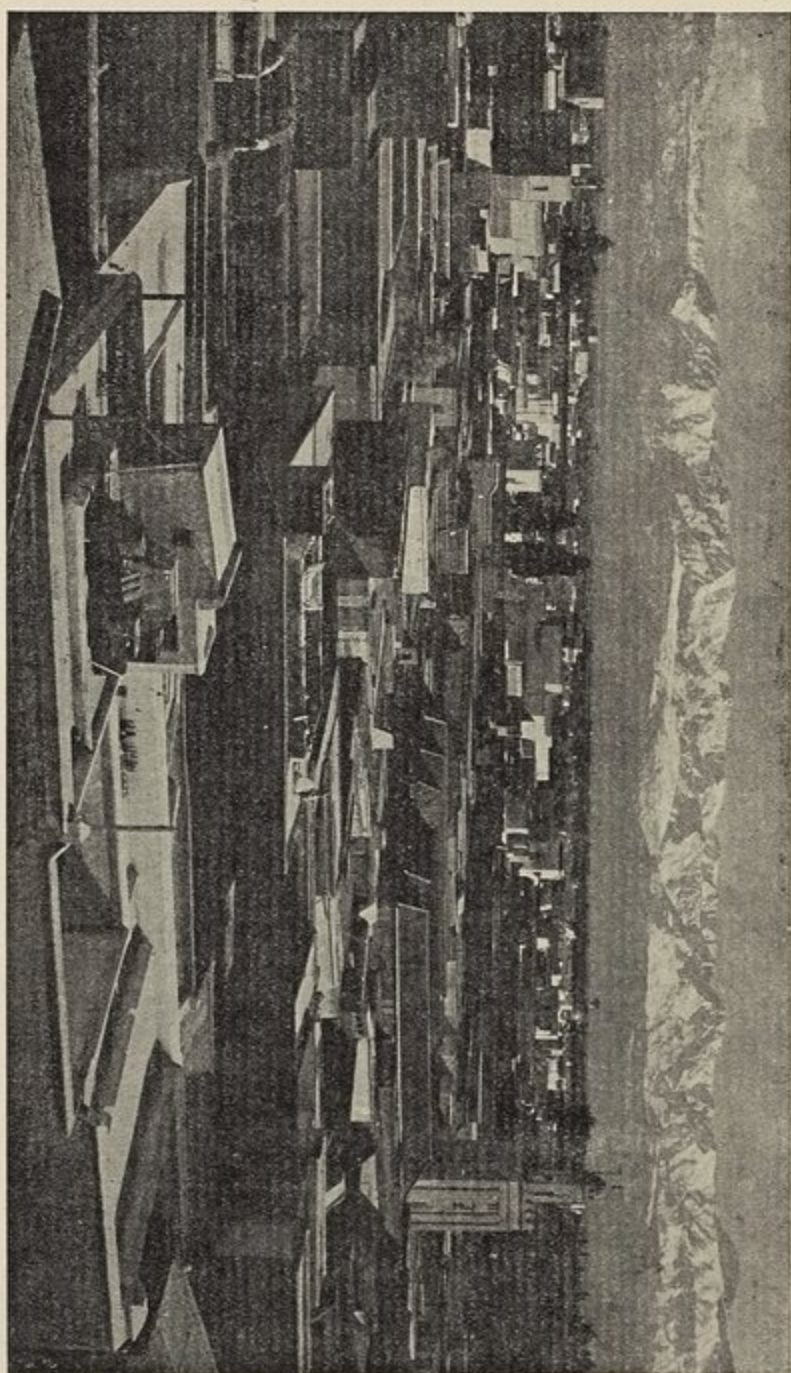
لما انجز ابن تاشفين اعماله الحربية الكبرى في مدة وجيزة اعتصم بحماه وجهاء المغرب ورؤساء القبائل رجع الى انعمات في هبة عظيمة وملك ضخمة ثم أقبل عليه الامير ابو بكر بعد ان قلع جذور الفتنة من قبائل الصحراء

وقد خرج لمقابلته يوسف ابن تاشفين في جيوش منظمة على هيئة ضخمة انس منها ابو بكر طموحه الى الاستقلال بكرسي المملكة المغربية فتنازل له ابو بكر عن عرش المغرب في هدوء وسكون تملأ جوه الثقة التامة بابن تاشفين . غير ان ابا بكر رأى من الصالح العام ان يسدي نصائحه الثمينة التي انبعت عن إخلاص وحسن نية فقال يخاطب ابن تاشفين : « يا ابن عم ! اني قد وليتك هذا الامر واني مسئول عنه فاتق الله تعالى في المسلمين واعتقني واعتق نفسك من النار ولا تضع من أمور رعيتك شيئاً فانك مسئول عنه والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك وهو خليفتي عليك وعليهم » .

ثم ودعه وانصرف للصحراء قرير العين مطمئن الضمير مرتاحا الى الهدايا الثمينة التي قدمها يوسف بين يديه فسبحان من يوتي ما يـكـه من يشاء .

استقلال ابن تاشفين بملك المغرب وبناء مراكش

لما تم الامر ليوسف ابن تاشفين بتنازل ابي بكر له عن عرش المملكة المغربية سمت به همته الطامحة الى تنفيذ فكرة ابي بكر بتأسيس مدينة ضخمة تكون على جانب عظيم من الاهمية والاعتبار يجعلها مقر كرسيه العظيم فكانت تلك الهمة العالية هي المؤثر الفعال في تكوين مراكش الحمراء على هذا الشكل الفخم :



منظر عام لمراكش الحمراء

الذي يعتبر على جانب مهم من الوجهة الحربية . وقد نفذ ذلك بتخطيط هذه المدينة الشاخنة سنة اربع وخمسين واربعمئة حسبا ذكره بعض المؤرخين وقد قال في تأسيسها صاحب العبر ما نصه : « اتخذ يوسف ابن تاشفين مدينة مراکش لنزوله ونزول عسكره ولتتفرس بقبائل المصامدة المقيمة بمواطنهم منها في جبل درن اذ لم يكن في قبائل المغرب اشد منهم قوة ولا اكثر جمعا » وقد اتجه اهتمام يوسف ابن تاشفين الى وضع هذه المدينة على هيئة تكفل له راحة جيشه لذلك وقع اختياره على موضع الحمراء لما له من الأهمية السياسية حيث يعتبر مفتاح المصامدة والأطلس الجبار . وقد أسست هذه المدينة العظيمة بعد ان ظهرت طلائع الدولة المرابطية بنحو اربعين سنة كانت تمهيدا لظهور بطل الجنوب يوسف ابن تاشفين الذي خلد تأسيسها في صحفته الخالدة حسبا نبأتنا اخباره .

على ان ابن السماك يرى في تأسيسها خلاف ما حكاه المؤرخون حيث قال في حله : « سبب تخطيط مراکش ما نقله جماعة من علماء التاريخ ان الامير ابا بكر بن عمر بن ابراهيم بن تورقت الممتوني لما خرج من الصحراء بالملثمين احتلوا انعامات وريكة وكثر الخلق بها وضيقوا على اهلها وكانوا على حالة صعبة شكوا اشياخ وريكة وهيلانة الى الامير ابي بكر بن عمر ما يلحقهم في ذلك من العناء والمشقة وأنهوه اليه المرة بعد المرة - الى ان قال لهم عينوا لنا موقعا نبني فيه مدينة ان شاء الله فاجتمعوا على ان يكون بناؤها بين بلاد هيلانة وبلاد هزميرة فعرفوا بذلك الامير ابا بكر بن عمر وقالوا قد نظرنا

اليك ايها الامير موضعا صحراء رحب الساحة واسع الفناء يليق بمقصودك الى ان قال : وصاروا معه الى محضر مراکش وهو خلاء لا انيس به الا الغزلان ولا ينبت الا السدر والخنظل وكان ذلك سنة اثنين واربعمئة (١) فانتقلوا الى تلك الرحبة فوجدوا في فحصها من المسرح الخصيب للجمال والدواب ما غبطهم بها وشرع الناس في بناء الدور من غير تسوير عليها فينما الامير ابو بكر بن عمر قد نزل بها وأخذ في بناء الديار اذ وفد عليه رسول من قبيلة لتونة بالصحراء يعلمه ان اكذالة اغارت عليهم وكانت بينهم فتنة دائمة فاستخلف ابن عمه يوسف ابن تاشفين ودخل للصحراء لاخراجهم ولاأخذ ثارهم من عدوهم «وها انت ترى صاحب الحلل جزم بان واضع مراکش هو الامير ابو بكر ناسبا ذلك لجماعة من علماء التاريخ . لذلك صح عنده ما ذكر من خروج ابن تاشفين من مراکش حيث اتى ابو بكر من الصحراء للتنازل له عن عرش المغرب حيث قال : «ولما تشوف الامير ابو بكر ابن عمر على احوال ابن عمه يوسف بن تاشفين وعلم حبه في الملك وانه قد استمال نفوس من معه باحسناته وانقطع رجاءه من الملك طلب منه تعيين يوم لاجتماعهما فخرج يوسف بن تاشفين في جنوده وعبيده وتلقاه في نصف

(١) مع التنبيه الى ان تلك السنة لا تزال دولة المرابطين في عالم التكوين حيث ان الامير ابا زكرياء الكدالي ما قدم على وجاج الاسنة ثلاثين واربعمئة في رجب لما اتصل عنده بابن ياسين ثم دخلا للصحراء آخر تلك السنة ولعل صاحب الحلل يريد سنة اثنين واربعين واربعمئة .

الطريق فكان اجتماعهما بين انمات ومراكش على تسعة اميال منها الى ان قال : وأشهد على نفسه بالتخلي له عن الامور بوطن المغرب وقام فودعه الامير يوسف بن تاشفين وعاد الامير ابو بكر الى موضع نزوله من انمات ورجع يوسف الى مراكش موضع ملكه .

ولا شك ان هذه نتيجة معقولة لما صح عنده من تخطيط مراكش ايام ابي بكر بن عمر وقد يستأنس لذلك بما ذكره صاحب النجوم الزاهرة حيث قال في حوادث سنة ثمانين واربعمئة : « وفيها توفي امير الملمثين بمراكش وغيرها من بلاد المغرب الامير ابو بكر بن عمر . اصله من ولد تاشفين كان اميراً جليلاً مجاهداً في سبيل الله تعالى ركب في بعض غزواته في خمسمائة الف مقاتل من رجال الديوان والمطوعة وكان يخطب في بلاده للدولة العباسية وكان يصلي بالناس الصلوات الخمس وقيم الحدود ويلبس الصوف وينصف المظلوم ويعدل في الرعية وكان بين رعيته كواحد رحمه الله تعالى » الى آخر ما انتهى اليه كلامه في الجزء الخامس صحيفة ١٢٦ غير انه يلاحظ عليه مزج افعال ابي بكر بافعال ابن تاشفين حيث ان التاريخ لم يثبت خروج ابي بكر في مثل تلك الجيوش ولا عرفت علاقته بالدولة العباسية ولا مانع ان يكون ابو بكر يصلي بالناس في الصحراء ويقوم بالافعال التي استعرضها صاحب النجوم في حياته الى ان وصله اجله المحتوم في تلك السنة التي مضى فيها على تأسيس الحمراء نحو الاربعين والله اعلم .

على ان هناك قولاً غريباً في تخطيطها اقتصر عليه صاحب تاريخ

الدولتين عند ما تكلم على دجال الموحدين المهدي بن تومرت يستعرض حياته الغامضة التي قال في ضمنها : « وتوفي في خلال ذلك علي بن يوسف صاحب مراکش في ثالث رجب سنة سبع وثلاثين وهو الذي أحدث مراکش في ثالث رجب سنة عشرين وخمسمائة ٥٢٠ وأدار سورها وبني سقايتها وجامعها وقصور امارتها وجعل دورها سبعة اميال وكانت قبل شعرا يسكنها البربر » غير انه اشار الى شرائها وبناء مسجد يوسف فيها قبل ذلك مما سنسبط القول فيه عند فرصة اخرى بحول الله .

ذلك ، وقد ذكرنا هذه النبذة اليسيرة في تكوين الدولة المرابطية الى عهد تأسيس مراکش لبيان انها ما وضعت اساسها الانشائي على انقاض دولة الادارسة ، لما علم ان الدولة الادريسية لم يمتد سلطانها الى مقر انبعاث الدولة المتونية في الصحراء سيما ودولة الادارسة لم يستقر لها قرار بعد وفاة المولى ادريس الامدة بسيطة حيث ظهرت فيها فتن ومنازعات تصدعت بسببها اركان الدولة الادريسية ودبت فيها بواذر الانحلال بقيام دولة آل ابي العافية المكناسيين ومزاحمة الفاطميين للاستقرار الادريسي وتجاذب المروانيين لامتلاك اطراف المغرب الى ما تبع ذلك من ولاية المغراويين وبني يفرن وما كان من دولة حمامة وولده دوناس الذي تضعضت على يده دولة بني زيري الى آخر ما ظهر في المغرب اذ ذاك من الاضطرابات والفتن التي اختفت قبلها صولة الادارسة في المغرب الاقصى .

وفي تلك الاثناء ظهرت في افق المغرب طلائع الدولة المرابطية التي

تألق في سماء المجد كوكبها لتكون منارا يهتدي به المغرب ويعتز به الاسلام
في جزيرة الاندلس .

وبما ان ربط هذا التأسيس بالحياة العلمية التي نريد البحث فيها لا يمكننا
الاتصال بها الا بذكر حياة يوسف بن تاشفين الادارية التي ساعدت على
نهوض دولة العلم بمراكش الحمراء رأينا من اللائق ان نوجزها فيما يأتي :

حياة منشيء الحمراء يوسف بن تاشفين

كل من له ادنى إلمام بالتاريخ المغربي يعلم ان منشيء صولة العز في
المغرب الاقصى ومنقذ الاسلام في جزيرة الاندلس اواخر المائة الخامسة
هو بطل الجنوب يوسف بن تاشفين المتوني الذي عرف في حياته الانشائية
بقوة العزيمة ، وشدة الشكيمة ، مذكأن رائد الحركة الادارية في ولاية عهده
لابي زكرياء المتوني الى ان استوى على عرش المغرب الاقصى والاوسط
وخرت لصولته عروش ملوك الطوائف بجزيرة الاندلس الغناء ، مما قصه
التاريخ في اخباره الممتعة التي تحتاج في تحليلها وتفصيلها الى بحث خاص
بحياة ذلكم العبقري الفذ ذي العزمات القولاذية والوثبات الغريبة التي
يعلمها كل من يقدر تلك الجهود الجبارة التي بذلها في إحياء وطنه العزيز بنفخ
روح العلم ووضع قسطاس العدل وازالة سائر الفوارق والمغارم في اطراف
المملكة المرابطية مما هيا للحياة العلمية في الجو المراكشي بيئة صالحة للنتاج
الفكري في هدوء وسكون تحت رعاية العدل الاسلامي وطبق التعاليم

الدينية البحتة مما سنتقطف منه في هذه الحياة الموجزة ما يساعد على الوصول للفاية المنشودة مستمدين ذلك من حياته المبثوثة في دواوين المؤرخين مما عسى ان تثليج له ضمائر المنصفين من طلاب الحقيقة .

وبما ان كلمة المؤرخين قد اتفقت على تحلية امير المسلمين يوسف بن تاشفين بالاقدام والشجاعة والحلم والعدل رأينا من المستحسن تفصيل ما تنطوي عليه تلك الانقلاب العظيمة من الاخلاق الفاضلة والشيم المكيئة والخصوصيات الروحية بكشف القناع عنها وتفصيل بعض اسرارها فنقول :
اما شجاعته وجموحه لنصر الاسلام وتأيينه بعد ان بلغ الحالة المعروفة في جزيرة الاندلس فيكفي لذلك برهان واحد وهو ما قام به في الجزيرة الاندلسية من الدفاع عنها ونجدة ملوكها في مواقفه الحاسمة التي وقفها في وجه الصليبية الطاغية التي أرادت ابتلاع الاسلام في الاندلس وقتئذ اخذ ملوكه الى الملمات النفسية والملاهي القانية حتى أخذت بهم الاخطار ووجهت الى صميمهم السهام وهم بعد ذلك في لهوهم يلعبون ، وفي طغيانهم يعمهون ، مما يزيل عنه اللثام قول ذي الوزارتين :

حتى اذا سلك الخلافة انتثر ❀ وذهب العين جميعا والاثر
قام بكل بقعة مليك ❀ وصاح فوق كل غصن ديك
وكثر الصادي بها والحائف ❀ واقتسمت اقطارها الطوائف
فألقوا الراحة والبطالة ❀ آلت بهم للشر تلك الحالة
وضربت عليهم الاموال ❀ وعظمت لديهم الاهوال

وحكم «الفنش» فصار الحكم له ❀ وذهبت من اجل ذا طليطله
والدين في اثناء هذا ينتهب ❀ والروم تستقصى النفوس والذهب
اذ صدفت كلمة مفترقة ❀ وملة بمادهاها شرقية
وخامر العدو بعد الطمع ❀ وآلت الحالة الى ما تسمع
الى آخر ما وصف ابن الخطيب رحمت الله تعالى عليه في حالة ملوك
الطوائف المفككة الاوصال المحاطة بالاخطار حيث تنبه الى خطورة تلك
الحالة المؤسفة المعتمد ابن عباد فعبر الى العدو قاصدا مراكش الحمراء
للاستجداء بحماتها الدينين وكما انها الابطال مستصرخا بحامي لواء الدين يوسف
ابن تاشفين الذي أجاب صرخة الاسلام في الاندلس وتأهب للعبور نصره
لدين ، ودفاعا عن المسلمين . مما ضمنه ابن الخطيب في قوله :

فعبى البحر الى الملتمة ❀ لينصر الدين وتعلو الكلمة
واستصرخ الناس الى الجهاد ❀ فأهبطوا من حاضر وبادي
الى ان قال :

ونصر الدين ابن تاشفين ❀ بمن لديه من حماة الدين
وبهرت آثاره المشكورة ❀ وأوقع « الزلاقة » المشهورة
يالك من يوم على الكفر عصب ❀ فازله الاسلام بالسهم المصيب
مما يعبر احسن تعبير على حالة الاسلام في الاندلس بعد ان مد له بطل
الجنوب يده فانقذه من تلك الخطوب الجسيمة التي كادت تقضي على رسوم
الاسلام في تلك الديار لولا بطل لمتونة الذي حال بينها وبين براثن ملوك

الاصبان الذين بعثوا له قبل ذلك رسالة كتهديد له عله يتأثر منهم فيقع في عدوته تحت سور قصر الحجر وينكمش في حدوده خشية من وخامة العاقبة ، ولكن ما ذا يفيد التهديد مع قوة جامحة لا تعرف التردد كقوة صاحب العظمة ابن تاشفين الذي :

اذا هم ألقى بين عينيه عزمه ❀ ونكب عن ذكر العواقب جانبا ولم يستشر في رأيه غير نفسه ❀ ولم يرض الا صارم السيف صاحبا بعث له ملك قشتالة بالتهديد ولكن ما ذا كان جواب ذلك التهديد ؟ كان جوابه من امير المسلمين ابتسامة ساخرة في نوع من التعاضم والكبرياء حيث امر صاحب ديوانه ان يحجب ملك الاصبان على ظهر كتابه بهذا التوقيع : « جوابا يا ادفنش ما تراه لا ما تسمعه ان شاء الله تعالى » وأردف ذلك التوقيع ببیت ابی الطیب المتنبی :

ولا كتب الا المشرفة والقنا ❀ ولا رسل الا الخيس العرمم وهكذا يفصح السيف اذا غص القلم ، وتتحكم القوة المسلحة اذا طيف من العناد قد الم ، مما يحتاج في تحليله الى فصول طوال ، ولا يتسع له في هذا المبحث مجال ، وان كان في هذه الاسطر ما يصلح ان يكون مرآة مصغرة لتلك البطولة النادرة التي اتصف بها ابن تاشفين ذلكم القائد العظيم الذي كان من اخص صفاته واميز نعوته الحلم والصفح اللذان امتاز بهما في كثير من مواقفه الشريفة ، من ذلك صفحه عن ثاث الثلاثة الذين قص امرهم على القارئین ابن الاثير في تاريخه الكبير حيث قال : « وكان يحب العفو والصفح

عن الذنوب العظام فمن ذلك ان ثلاثة نفر اجتمعوا فتمنى احدهم الف دينار وتمنى الآخر عملاً عند امير المسلمين وتمنى الآخر زوجته وكانت من احسن النساء الى ان قال : واعطى لكل منيته وقال للذي تمنى الزوجة يا جاهل ما حملك على هذا الذي لا تصل اليه ؟ الى آخر ما ذكرتم عفا عنه وذهب في تأديبه الى طريق لطيف ضرب به الرقم القياسي للحلم في تاريخ الامراء حيث نباتنا اخبارهم بأن هناك من أمروا بسلب لسانه لهفوة صدرت منه في ابسط المسائل .

وحقيقة كان ابن تاشفين يفضل الحلم على الانتقام، والصفح عن المؤاخذه والمسالمة على الطعان، حتى سارت بذلك الركبان، وتحدث الناس به في كل زمان ومكان، من ذلك ما نقله صاحب الوفيات عن كتاب المغرب، عن سيرة ملوك المغرب، ان ابن تاشفين لما تمهدت له البلاد ثاقت نفسه الى العبور الى جزيرة الاندلس ليضمها الى مملكته ولعل ذلك لما سمعه عن أمراءها من الامور التي يندى منها جبين الانسانية من الانهباك في الشهوات، والانغماس في دائرة اللهو والملذات، حيث ظلوا يتبارون في اتخاذ المعازف والقين مما لا يتفق مع مبادئ الاسلام فغضب ابن تاشفين لكرامة المسلمين وامتهان مبادئهم بين يدي ملوك الطوائف لذلك هم بالعبور فأوجس ذلك خيفة في قلوبهم فبادلوا الرسائل وأتمروا عند ابن عباد حيث اتفقت كلمتهم على استعطاف ابن تاشفين ومراسلته بما يعتبر منهم خضوعاً لرياسته فخبروا له ما ياتي : « اما بعد فانك ان أعرضت عنا نسبت الى كرم ولم

تنسب الى عجز ، وان أجبتا داعيك نسبنا الى عقل ولم ننسب الى وهم ، وقد اخترنا لانفسنا اجمل نسبتنا فاختر لنفسك اكرم نسبتك ، فانك بالحل الذي لا يجب ان تسبق فيه الى مكرمة ، وان في استبقائك ذو البيوت ، ماشئت من دوام لامرك وثبوت ، والسلام .

وهذه الوثيقة الموقع عليها من طرف ملوك الطوائف هي الرسالة مع هدايا ثمينة لامير المسلمين حسبها وافانا بذلك ابن خلكان وهي - زيادة على ما فيها من الاعتراف بولاية ابن تاشفين عليهم - تتم بما يشعرون به من حقهم عليهم ، واستيائه من افعالهم التي لا يكفرها الا الاعراض عنهم ، لذلك التسود بقولهم : ان أعرضت عنا نسبت الى كرم ، ولم تنسب لعجز ، فأعرض عنهم ، وعفا عن هفواتهم الدنية ، وسقطاتهم النفسية ، طامعا بذلك في إقلاعهم عما هم فيه منغمسون ، ولكن ما ذا يفعل مع القدر المحتوم . ولقد ساعد على إمداد حلم ابن تاشفين على اولائك الملوك كاتبه البارع الذي استوضحه على امرهم بإبداء رأيه الخاص في مرسومهم ، فأفصح له عن المراد بأوضح بيان ، حيث واجهه بقوله : « ايها الملك : هذا الكتاب من ملوك الاندلس يعظمونك فيه ، ويعرفونك أنهم اهل دعوتك ، وتحت طاعتك ، ويلتمسون منك ان لا تجعلهم في منزلة الاعادي ، فإنهم مسلمون ، وهم من ذوي البيوتات ، فلا تغير بهم ، وكفى بهم من ورائهم من الاعداء الكفار ، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر ، فأعرض عنهم اعراضك عن أطاعك من اهل المغرب » .

على ان ذلك الكاتب الفيلسوف لم يقتصر على تحليل المرسوم تحليلاً يتفق مع لغة ابن تاشفين ، بل أيد ذلك برأيه السديد فيما يساعد على توطيد أركان الملك ، بتحليل اخلاق الملوك وتفصيل أسباب الملك بقوله : « ايها الملك : إعلم ان تاج الملك وبهجه وشاهده الذي لا يرد بأنه خليف بما حصل في يده من الملك ، ان يعفو ذا استعفي ، وان يهب اذا استوهب ، وكلما وهب جزيلاً كان اعظم لقدره ، فاذا عظم قدره تأصل ملكه ، واذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته ، واذا كانت طاعته شرفاً جاءه الناس ولم يتجشم المشقة اليهم ، وكان وارث الملك من غير إهلاك لآخرفته ، واعلم ان بعض الملوك الاكابر ، والحكماء البصراء بطريق تحصيل الملك قال : من جاد ، ساد ، ومن ساد ، قاد ، ومن قاد ، ملك البلاد . »

هنالك وقف ابن تاشفين وقفة المتبصر ، يتدبر حكم كاتبه البارع ، ويستلهم من فقرات خطابه الصواب ، ولما اهتدى الى الاسرار التي يرمي اليها الكاتب ، أمره بأن يحرر لهم على لسانه مرسوماً ، يفصح عن حلمه ويسكن روعتهم ، فسلك البراعة ، وحبر لهم ما هو آت :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من يوسف بن تاشفين ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته تحية من سالمكم ، وحكمه التأييد والنصر لكم فيما حكم عليكم ، وانكم مما بأيديكم من الملك في اوسع إباحة ، مخصوصون منا بأكرم إيثار وسماحة ، فاستديموا وفاعنا بوفائكم ، واستصلحوا إخواننا بإصلاح إخوانكم ، والله ولي التوفيق لنا ولكم والسلام . »

ولما قريء المرسوم بين يدي جلالته استحسنه ووافق عليه ، وأمر أن ترفق معه هدايا من الدرق اللطية ، كصلة منه ورابطة للعلائق الودية معهم بالوفاء وحسن الجوار ، مما كان له في النوادي الاندلسية وقع حسن ، تردد صدهاء في سائر ممالك الجزيرة ، وتبوأ به يوسف بن تاشفين مكانة خاصة ، الفتت اليه الانظار ، وأسر بسببها القلوب .

وقد امتد جبل ذلك الوصال ، واستديم عهد ذلك الميثاق ، الى ان قدر له التصدع ، بظهور بوادر الجفاء ، وتراكم الغيوم التي أوغرت صدر ابن تاشفين ، فغضب لكرامة المسلمين ، وبعث لملوك الطوائف من يستنزلهم واحداً بعد واحد ، الى ان نفذ القضاء المحتوم :

خلعه لملك الطوائف ومهادنة بني هود

لقد مضى على معاهدة ابن تاشفين لملوك الطوائف امد بعيد ، لم يلحقها فيه وهن ، ولا اعتراها انحلال ، حيث حافظ كل من الطرفين على عقده بالوفاء ، الى ان دارت الايام دورة بسيطة ، تنكرت فيها الاحوال ، وتجددت الاحوال ، بسبب ما يقوم به الواشون ، من كثرة الضجيج حول انقاذ الاسلام من هاوية الاضمحلال . التي تطلبه رويداً رويداً ، بسبب ما يقترفه ملوك الطوائف من انواع الملاهي ، حتى ان الفقهاء قد رفعوا عقيرتهم ، وشنعوا على تلك الحالة مستصرخين بيوسف بن تاشفين الذي استشاط غيضا من امتحان كرامة

الاسلام (١) ، فبعث من يستنزلهم في ديارهم ، ثم بعثوا الى مراکش من بر العدو ، وقد خضعوا لتنفيذ ذلك الامر ، فتنازلوا عن عروشهم ، بدون التجاء الى السيف ، سوى ابن عباد ، فانه تظاهر بالقوة والعناد ، واستصرخ بملوك الاصبان ، راجياً انجادهم بالافراس والركبان ، مما أوغر عليه صدر ابن تاشفين ، حتى أمر بتشديد الحصار عليه ، الى ان يقتل او يسي ، فأوقعته الاقدار ، بين يدي أولئك الابطال ، الذين جاءوا به للحمراء مصفداً في الاغلال ، يرسف في قيوده الحديدية ، الى ان وصل مراکش الحمراء ، ففني منها مع زوجه الى أغمت ، حيث بقي هناك يسكب العبرات ، ويتنهد الزفرات الى ان مات ، وقبره المتواضع معروف حتى الآن تشد له الرحال ، وما أحراه بذكرى ، بعد هذا الاهمال الطويل ، والصمت الرهيب .

وقد أشار ابن الخطيب في حياة ابن تاشفين الى خلعه ملوك الطوائف بقوله :

وخلع الملوك بالاندلس ❀ وكان ديانا ونور المجاس
مكرماً للفقهاء الجللة ❀ موفياً فيهم حقوق الملة

(١) في الاستقصاء ص ١٢٢ من الجزء الاول : ثم لم يقدم على قتالهم واستنزالهم — يعنى ملوك الطوائف — عن سرير ملكهم ، حتى تعددت لديه فتاوي الأئمة الاعلام من اهل المشرق والمغرب بذلك ، فافهم هذا واعرفه والله تعالى يقابل الجميع بالعفو والصفح الجميل اه وفي كتاب القضاء من نوازل البرزلى فتوى العلماء بردة ابن عباد وتكفيره وقد اشار الى ذلك صاحب الاستقصاء ايضا في ٣٥ ج ٣ .

كما ضمن حياة ابن عباد ومحتته التي غرب فيها بقوله :
 وقام في حمص بنو عباد ❀ وفضلهم مثل الصباح باد
 ثانيهم عباد ثم المعتمد ❀ وهو الذي في النظم والنثر حمد
 وفي مجال الخيل كان يعرف ❀ والجود من بحر يديه يعرف
 ومات في اغمات لما غربا ❀ من بعد خلع واعتقال وسبا
 وفي ذلك الحين امتد النفوذ المرابطي على جزيرة الاندلس ، حيث
 أصبحت مقاطعاتها تحت رعاية امراء ملثمين ، ولم يبق من تلك العروش
 الاندلسية سوى عرش بني هود ، فانه احتفظ باستقلاله مدة ملكهم
 لامور سياسية ، اهمها ذلك الموقع الجغرافي الذي يعتبر كحصن بين
 القشتاليين والمرابطين ، يضاف الى ذلك عدم تدهور اخلاقهم الى
 الدرجة التي وصل اليها ملوك الجزيرة الذين انتقدهم ابن كردبوس .
 على ان بني هود ، زيادة على استقامتهم ، كانوا يتعهدون امير المسلمين
 بهدايا ثمينة ، وتحف نادرة ، كلما جد جديد ، حتى انهم أبرموا معه معاهدة
 بحسن الجوار ، أظهر فيها امير المسلمين وفاء وإكرامه .

وقد تبودلت بينهم رسائل الود التي من أهمها ما تحدث عنه التاريخ
 في سفارة نجل المستعين بالله لمراكش ، للمفاوضة فيها مع امير المسلمين ، حيث
 بحث خطابا ضمن بين فقراته هذه الجمل : « نحن بينكم وبين العدو سد ،
 لا يصل اليكم منه ضرر ولا مطاعن ، وقد قنعنا بمسالتكم ، فاقنعوا منا بها ،
 الى ما تقدمه اليكم من نفيس الدخائر ، والسلام » .

ولما حل الوفد بالحضرة العلية ، قوبل من لدن السلطة المحلية ، بما يستحق من الاكرام والرعاية ، سيما وقد أصحبوا معهم يواقيت ثمينة ، ومجوهرات عزيزة ، ودخائر حربية ، فأكرم أمير المسلمين وفادتهم .
ولما كملت المفاوضة بالنجاح ، أجاب ابن تاشفين المستعين بالله بهذا المرسوم :

« من أمير المسلمين ، وناصر الدين ، يوسف ابن تاشفين ، الى المستعين بالله ، احمد بن هود ، أدام الله تأييده ، من حضرة مراکش ، حيث تتلى آية شرفك ، وماثر سلفك ، ونحن نحمد الله بجميع المحامد ، ونستهديه احسن الموارد ، ونسأله اتم الفوائد ، وانجح المقاصد ، ونصلي ونسلم على سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم صفوة اوليائه ، وخاتم انبيائه ، واما الذي عندنا ، أيديك الله ، لجناباك الكريم ، ومجديك الصميم ، ومحلك المعلوم ، فود صريح ، وعقد في ذات الله صحيح ، ووردنا نشأة السيادة والنبل ، والنباهة والفضل ، ابو مروان عبد الملك ابنك ولادة وتنسبا ، وابنا وداداً وتقربا ، زاد الله به عينك قررة ، ونفسك مسرة ، ومعه خاصتك : الوزيران ابو الاصبع وابو عامر ، أكرمهما الله بتقواه ، وكلا وفيناه حق نصابه ، وأتينا بره من بابه ، وأديا ايننا كتابك الجليل الخطير ، المقبول المبرور ، فوقفنا منه على وجه شخوصهما ، وأصغينا في تفصيل جملة الى تلخيصهما ، فالتقينا لهما مراجعة في ذلك ما لقنوه ، وأسفرنا لهما عن وجه

قصدا فيه حتى استبانوه ، وجملة الوفاق ، وجماعه الانتظام في سلك ما يرضى الله تعالى والاتساق ، ان شاء الله تعالى والسلام .

وذلك مما ظل به بنو هود اقوياء الجانب ، يهددون القشتاليين بالمراكشيين ، طيلة مفعول هذه المعاهدة التي وقعت في قصر الحجر ، بمراكش الحمراء ، وهي من المعاهدات التاريخية ، التي يحق لنا ان نسجلها ها هنا باسم معاهدة قصر الحجر ، التي كانت خاتمة الاعمال في استتباب الامن باطراف المملكة الاندلسية ، التي أصبحت خاضعة للنفوذ المراكشي .

اعترافه بالخلافة العباسية واتتحاله امير المسلمين

لما تم لابن تاشفين الاستيلاء على المملكة الاندلسية ، بانتظام ألويتها تحت إمارته ، فكر في مخاطبة المستظهر بالله العباسي ، كعترف بالخلافة العظمى ، يعلن لعرشها الولاء ، ويستمد من وصاها البقاء ، ابتغاء جمع الكلمة ، واسناد الخلافة التي أشرفت على السقوط .

وقد بعث وفداً من مشيخة إشبيلية ، يحملون بيعته للخليفة العباسي ، حسبما حدثنا ابن خلدون في مقدمته ، عن تلك السفارة التاشفينية ، - التي كان سببها الاقوى الوازع الديني ، والتمسك باهداب الشريعة - بقوله : « لما قام بالمغرب من قبائل البر بر يوسف بن تاشفين ملك لمتونة ، فملك العدوتين ،

وكان من اهل الخير والاقتداء ، نزعته به همته الى الدخول في طاعة الخليفة ،
تكميلا لمراسم دينه ، فخاطب المستظهر العباسي ، وأوفد عليه بديعته عبد الله
ابن العربي وابنه القاضي ابا بكر من مشيخة إشبيلية ، يطلبان توليته اياه على
المغرب ، وتقليده ذلك ، فانقلبوا اليه بمعهد الخلافة له على المغرب ،
واستشعارزيهم في لبوسه ورتبته ، وخاطبه فيه بامير المسلمين ، تشريفاله
واختصاصا ، فاتخذها لقبا .

فأفادنا ابن خلدون باسماء سفراء ابن تاشفين ، وبمنحه لقب امير المسلمين
من لدن الخلافة ، مع ملاحظة ان صاحب (التراتب الادارية) ينكر سفارة
ابن العربي ، لاشياء لا يسعنا المقام هاهنا لمناقشتها ، لان الذي يهمننا من ذلك
هو ثبوت اتصال ابن تاشفين بالخلافة العباسية ، وارتقاء دولته الفتية ، بين
احضان الخلافة الهرمة ، وهي مسألة اتفق عليها الكتابون .

كما انه ذهب الى ان الخلافة هي التي منحت لقب امير المسلمين ، وهذا
ما يشعر به كلام صاحب (تاريخ دول الاسلام) في مبحث التلقيب بامير
المومنين حيث قال - بعد ان ذكر من زاحم الخليفة العباسي بالتلقيب بها - ما
مؤداه : « ثم لم يتجاسر احد ، لا من ملوك العجم بالشرق ، ولا من ملوك
البربر بالمغرب ، على التلقيب بامير المومنين ، لانه لقب الخليفة الاعظم
القرشي ، الى ان جاءت دولة المرابطين ، وكان منهم يوسف بن تاشقين ،
واستولى على العدوتين والاندلس ، وعظم سلطانه ، واتسعت مملكته ،

فخاطب الخليفة العباسي بالشرق ، فولاه على ما بيده ، وتسمى بامير المسلمين ، ادبا مع الخليفة .

على ان هناك من ينسب تلقيبه بامير المسلمين لابن عباد الاندلسي ، حيث خاطبه بذلك لما انتهى من وقعة الزلاقة ، فاستحسنه يوسف واستبقاه ، ويستانس لذلك بما ذكره ابن ابي زرع ، لما تكلم على تلك الوقعة ، وما أوتي فيها ابن تاشفين من النصر المبين ، قال : ومن ذلك اليوم تسمى بامير المسلمين ، ولم يكن يدعى بها قبل ذلك ، وأصبح ذلك اللقب شعاراً لامراء الدولة المرابطية .

على ان في المقدمة نفسها ما يشعر بتقديم ذلك اللقب على سفارة بغداد ، حيث قال صاحبها : « ويقال انه دعي له بامير المسلمين من قبل ، ادبا مع رتبة الخلافة ، لما كان عليه ، هو وقومه المرابطون ، من انتحال الدين ، واتباع السنة » .

وفي (الحلل) ان ذلك وقع بعد الاستيلاء على تلسان ، حيث اجتمع اشياخ لتونة ووجهائها ، فألحوا عليه في انتحال لقب يمتاز به ، وأرادوا إعطاءه امير المومنين فأبى ، واليك ما رقه في تاريخه : « فلما ضخمت مملكته ، واتسعت عمالاته ، اجتمعت اليه اشياخ قبيلته ، واعيان دولته ، وقالت له : انت خليفة الله في ارضه ، وحقك اكبر من ان تدعى بالامير ، بل ندعوك امير المومنين ، فقال لهم : حاشا الله ان نتسمى بهذا الاسم ! انما يتسمى به خلفاء بني العباس ، لكونهم من تلك السلالة

الكريمة ، ولانهم ملوك الحرمين الشريفين . الى آخر ما ذكر ، ثم وافق ابن تاشفين على التلقيب بامير المسلمين ، وأصدر امره لديوان إنشاءه ، باصدار مرسوم بذلك ، يوزع على سائر المملكة ، فكتب عن إذنه بذلك التوقيع ، واليك نص المرسوم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما : من امير المسلمين ، وناصر الدين ، يوسف ابن تاشفين ، الى الاشياخ والاعيان ، والكافة من اهل هذه البلدان ، أدام الله كرامتهم بتقواه ، ووفقهم لما يرضاه ، سلام عليك ورحمت الله تعالى وبركاته ، اما بعد حمد الله اهل الحمد والشكر ، وميسر اليسر ، وواهب النصر ، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر ، وانا كتبناه اليكم من حضرتنا العلية بمراكش حرسها الله ، في منتصف محرم سنة ٤٦٦ ، وانه لما من الله علينا بالفتح الجسيم ، وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة برود النعيم ، وهدانا وهداكم الى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم ، صلى الله عليه افضل الصلاة واتم التسليم ، رأينا ان نخصص انفسنا بهذا الاسم ، لنتأز به عن سائر امراء القبائل ، وهو امير المسلمين ، وناصر الدين ، فمن خطب الخطبة العلية السامية فليخطبها بهذا الاسم ان شاء الله تعالى ، والله ولي العدل بمنه وكرمه والسلام . فأصبحت من يومئذ علامة الملك ، والعظمة لله وحده ، مع التنبيه الى ان المرسوم ينص على ان ذلك وقع سنة ست وستين واربعمائة ،

وصاحب الحلل يقول وقع ذلك بعد الاستيلاء على تلسان سنة ٤٦٨ .
على ان الذي يهمننا من ذلك هو صدور مرسوم بهذا اللقب ،
الذي أصبح شعاراً للدولة المرابطية ، يعتبر كمظهر من مظاهر المدينة
والتعاضد ، بتفجيم لقب الدولة ، وتعظيم شأنها ، مع مراعتها للخلافة ،
بتمسكها بالتقاليد الاسلامية .

وقد كان من وفاءها للتاج العباسي ، إثبات اسم الخليفة على سكتها
المرابطية ، لان ابن تاسفين لم يترك مظهراً من مظاهر دولته ، الا
وصبغه بالصبغة الدينية البحتة ، حتى انه جعل من نقش دنانيره اليوسفية ،
ما يرمز للعبادي والغايات التي يتوخاها ، لتعبر عن ذلك احسن تعبير ،
في كل زمان ومكان ، وتطبع بالطابع الرسمي للتجليات التاشفينية البعيدة
المدى ، حيث أعلن على صفحة من صفحتي ديناره المرابطي ما يعبر
عن معتقد الدولة برقم : (لا اله الا الله ، محمد رسول الله .) كشعار سجل
تحته لقب : (امير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ،) تخليداً لعظمة صاحب
السكة ، المستظل بعرشه في المائة الخامسة ، وقد طوقت جنبات ذلك
الدينار بسياج عظيم ، يفصح عن مبدأ الدولة الذي حاربت من اجله طيلة
السنين الماضية ، حتى تكونت كما شاءت لها الاقدار ، جاعلا لذلك آية
من القرآن ، تمثل اقوى انداز بالحسran والبوار ، لمن سولت له نفسه
التمرد على الاسلام ، وهي قول الله تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن
يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » .

على انه لم ينس الخلافة العظمى حتى في سكته حيث سجل اعترافه بها على ديناراه ، بوضع اسم الخليفة العباسي على الصفحة الاخرى : (عبد الله أمير المؤمنين العباسي) موشيا دائرته الثانية ، بتاريخ ضرب السكة ، وموضع سبكها ، مما صير الدينار المرابطي كاعظم مسكوك عرفه التاريخ من الوجهة الفنية ، حيث روعيت فيه كل تلك المقاصد والغايات . التي تسلسلت في دنائير المثلثين ، الى ان غصبت دولتهم ، والبقاء لله .

وقد أتحف الباحثين بشكلها صاحب الفضيلة نقيب الاشراف بمكناس في كتابه (الاتحاف) من الجزء الثالث صحيفة ٣٣٢ ، كما أثبت رسمها صاحب الفضيلة المؤرخ مبارك بن محمد الميلي في (تاريخ الجزائر القديم والحديث) في الجزء الثاني .

وهكذا تمثل اعمال ابن تاشفين الرزانة والاخلاص ، باعترافه للخلافة ، واقتناعه بأمرير المسلمين ، حيث حالت ديانته بينه وبين الاعتداء حتى على لقب الخلافة ، وان كنا نعتبر لقب امير المسلمين افخم واشمل ، لدى تحليله وبيان مراميه ، من لقب امير المؤمنين ، وما في ذلك من التعاضم ، مما لا يسعه هذا البحث .

رجوعه للفقهاء وإحياء الآثار الدينية

لقد ازدهرت العاصمة التاشفينية في عهد مؤسسها الكبير بالعلوم والمعارف ، لكثرة الواردين عليها من الفقهاء والمحدثين ، والادباء والفنانين ،

وكانت حكومتها المرابطة مقيدة بما يمليه عليها القانون المالكي المستنبط من الكتاب والسنة ، لذلك رجحت كفة الفقهاء في عصر ابن تاشفين الذي قربهم ، وصير امور الدولة تصدر عن إرادتهم ، حتى أصبحوا كمحتلين لكراسي الحكم في اطراف المملكة ، ترجع المسائل اليهم للفصل فيها ، بدون فرق بين دينية ومدنية ، حيث أسقطت في ذلك العهد المعاملات التي لا يوافق عليها الفقه المالكي ، مما امتد به نفوذ الفقهاء امتداداً تناول كل احكام الدولة ، بحيث لا يعضي امراؤها وعماها امراً الا باستشارة شيوخ الدين ، المنحصر فيهم مجلس شورى الحكومة من الوجهة التشريعية ، التي تستمد منها السلطة التنفيذية الموافقة ، كما جد جديد في سائر المملكة ، مما ارتقت به درجة الفقهاء الى حيث يطولون على ما جريات الاحوال المغربية .

وقد كان الفقهاء اذ ذاك على بينة من ربهم ، يتصلون بالكتاب والسنة ، لان المالكية يومئذ لم تكن جهوداً محضاً ، ووقوفا عند اقوال الكتّابين في المذهب ، بل يتجلى فيها اتباع مالك على بينة وبصيرة ، وخبرة بكتاب الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واقضية السلف ، كما يتجلى ذلك في كتب ابن رشد الكبير ، وكتب ابن عبد البر ، وكتب الباجي ، وغيرها من الكتب المشهورة في ذلك العصر الذي اكتسب فيه الفقهاء حريتهم التامة ، حسبما ينبعث بها وجدانهم المستند على

رسوخ الايمان في قلوبهم ، وعدم المداهنة لولاتهم ، مما لا تأخذهم في الله لومة لائم .

وكم للفقهاء من وقفة عصبية في وجه ولاتهم ، حتى أنهم وقفوا في وجه ابن تاشفين في كثير من المسائل ، ومن أهم ما حفظه التاريخ في ذلك الحين ، وقفة فقهاء المرية في وجه ابن تاشفين لما طلب المعونة منهم ، ليستعين بها على مقاومة خصومه الدينيين في حرب القشتاليين ، مستندا في طلب ذلك على فتوى فقهاء العدو والجزيرة ، غير ان فقهاء المرية لما وصلهم الخطاب بتقديم المعونة ، التي يفرضها عليهم الواجب الانساني نحو الدفاع عن الوطن ، أجمعوا امرهم على الامتناع ، وقصدوا قاضي المرية ابا عبد الله ابن البراء ، وطلبوا تحرير جواب بذلك لامير المسلمين تحت توقيع علماء المرية فخر لابن تاشفين ما يأتي :

« اما بعد ما ذكره امير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخرى عن ذلك ، وان ابا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والاندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها ، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضجيعه في قبره ، ولا يشك في عدله ، فليس امير المسلمين بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا بضجيعه في قبره ، ولا ممن لا يشك في عدله ، فان كان الفقهاء والقضاة أنزلوه بمنزلته في العدل فالله سائلهم عن تقلدهم فيك ، وما اقتضاها عمر حتى دخل مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وحلف ان ليس عنده درهم واحد

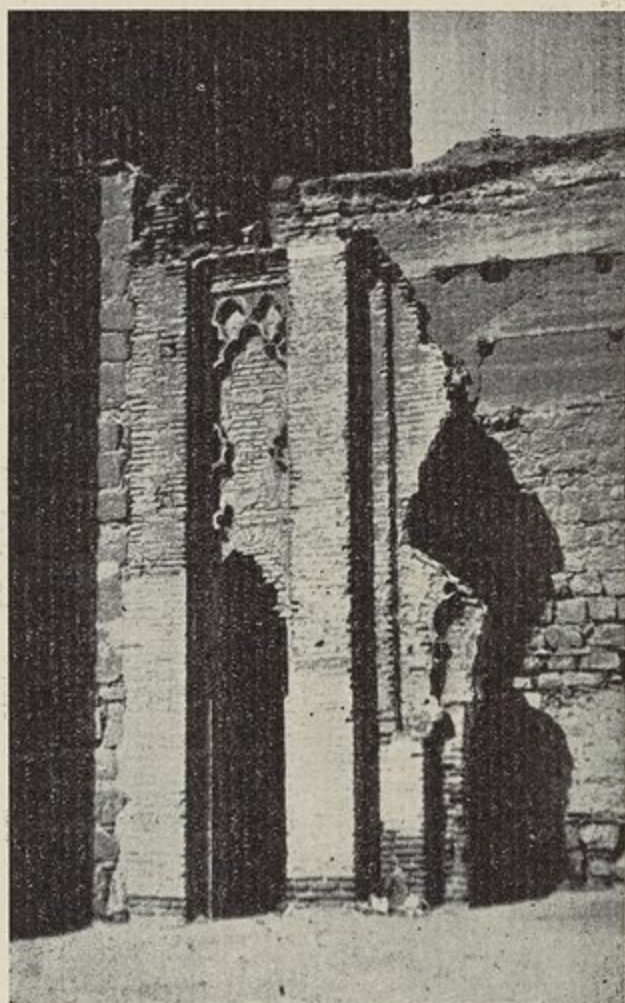
في بيت المال للمسلمين ينفقه عليهم فلتدخل المسجد الجامع هناك بحضرة اهل العلم وتحلف ان ليس عندك درهم واحد ولا في بيت مال المسلمين وحينئذ تستوجب ذلك والسلام .

وبعد ان قرأ ابن تاشفين خطاب قاضي المرية رجع لرأي أولئك الفقهاء ، فتنازل عن طلبه خضوعا لفتواهم ، ورجوعا لرأيهم ، وقد تغاضى عنهم ، وصفح عن لهجتهم الشديدة التي ضمنوها في خطاب قاضي المرية ، الذي ذهب فيه الى الموازنة بين شخصية ابن تاشفين وشخصية عمر ، وعدله بعده ، ملاحظا في تلك الموازنة الفروق البينة التي لا يتنازع فيها اثنان ، من حيث الشخص والزمان والمكان .

ولقد ضرب قاضي المرية والموقعون معه الرقم الاعلى للحرية المطلقة التي كان يتمتع بها الفقهاء في ذلك العصر مما قد لا يتفق للعلماء في غيره من الاعصر زيادة على ان ثبات أولئك على مبادئهم القويم قد أكسبهم قوة معنوية استطاعوا بها ان يصارحوا امير المسلمين بوجوب اليمين عليه في المسجد الجامع حتى على فرض إسقاط تلك الموازنة بينه وبين الخليفة الثاني للمسلمين مما خضع له ابن تاشفين وقابله بصدر رحب ، أولئك كان فقهاء العهد المرابطي الذين خلفهم خلف أضاعوا الامانة وعشوا بالايمان وأذعنوا للجبارة حيث اتبعوهم في اهوائهم الزائفة ، واستبدلوا الآخرة بعرض الدنيا مصداق قول الله تعالى : « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ياخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وان ياتيهم عرض مثله

ياخذوه ، ألم يوخذ عليهم ميثاق الكتاب الا يقولوا على الله الا الحق ،
ودرسوا ما فيه ، والدار الآخرة خير للذين يتقون ، افلا تعقلون .
وكما كان ابن تاشفين منقاداً للفقهاء كان شديد الحرص على تطهير
السلالة المغربية من ادران الوثنية الكامنة كلما سحت له بذلك الظروف
والاحوال ، حيث شيد معاهد دينية كثيرة في سائر المغرب لتكون مركزاً
عاماً للثقافة العربية ، وتقوم بتحقيق الواجب المقدس من اصول الدين
والاعتقاد بتمحيص وتبصر .

وقد كان من اعظم تلك المؤسسات الدينية مسجده الكبير الذي
شيدت اركانه ازاء قصر الحجر - مقر الامارة المرابطية - ذلك المسجد
الذي طغت عليه حوادث الدهر فقوضت مبانيه ولم تبق من آثاره الخالدة
الا ما تمثله هذه الصورة :



من الاطلال البالية والرسوم المندثرة التي سطت عليها يد الطفلة العاشية ، فغيرت من شكلها ، وصرفت عنها عين معناها الذي اختطت من اجله باستفلاها فيما لا يرضى الاسلام والمسلمين ، من اتخاذها مقراً لاسقط البغايا كخرابة للانذار يتجر فيها المتبدلون بالاعراض امام محرابه الذي طالما

سجد فيه الامراء والعلماء ، وفوق ارضه التي ظلت حقبا طوالا مقراً لنور الهدى والارشاد ، مما يدمي قلوب الناظرين ، ويكلم أفئدة السامعين ، ممن في قلبه مثقال حبة من خردلة من ايمان ، وعلماؤنا عن ذلك المنكر صامتون لا يحركون ساكنا ، ولا يغيرون منكراً ، كأن ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، ونظارة الاحباس ذات الصفة القانونية لتعمير ما خلده أسلافنا الكرام من انواع المبرة غافلة تغط في سباتها ، وتمرح في لهوها ولعبها ، كأن البحث في ذلك ليس من اختصاصاتها القانونية ، او ترى ذلك مزربا بكرامتها لا يستحق العناية والتعمير ، فما أشد قسوة الدهر على ذلك المسجد الذي دخلته ذات يوم ، مع صديقي الاستاذ المختار السوسي ، بقصد مشاهدة اطلاله الباقية ، من مناره الكبير ، ومحرابه البديع ، استعداداً لآخذ صور فوتوغرافية لذلك الاثر ، فرأينا ما ألم شعورنا ، وأدنى صدورنا ، من انواع المنكرات والردائل ، مما يعد غريباً في تصاريف الايام : فمن صلاة وإرشاد ، الى منكر وفساد ، فسبحان من أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) فاتفقت كلمتنا على إثارة مسئلته ، وبحثها مع من ترجى منه الاعانة على تغيير ذلك المنكر ، وما هي الا ايام ، فاذا بمراكش تفقد المختار ، وتصاب بابعاده الى حيث يعلم الناس ، مما تأملت له قلوبنا ، وكادت تنفطر له ضمائرنا ، مما لا يزال مصابه يتابنا في كل ساعة وحين ، فلا المسجد أنقذ من يد الظالمين ، ولا المختار انقلت من يد

العائشين ، ولا من بقي سلم من السنة الزنادقة والمعرضين ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

وعسى أن يلتفت المحصلون إلى إثارة مشكلة المسجد التاشفيني بطلب تطهيره من البغايا والعجاوات ، حتى يسبق حافظاً للكرامة التي كان يمثلها في ايامه الزاهرة بالدروس العلمية التي اعتبرت كاساس متين لوضع النظام العلمي ، والدستور الثقافي للجامعة اليوسفية التي نقصد من إطلاقها المدرسة المرباطية بمراكش ، أو الثقافة العلمية في دولة الملمثين ، حيث كان مسجدهم الاول كمعهد أسس لانشاء شباب الجنوب إنشاءً دينياً ، تترقى به المدارك في المعهد اليوسفي ترقياً ينازع بغداد في زهرتها ، وقرطبة في حضارتها ، مما تحدث عنه التاريخ (١) لان السذاجة الفطرية قد ساعدت على تمكن العلوم من قلوب المراكشيين في مدة وجيزة أنجبت فيها الحمراء من النباء ورجال العلم والقلم ما اعترف له الاندلسيون بالتفوق العلمي كما علم ذلك من حياتهم التاريخية . على ان مجالس ابن تاشفين كادت تعتبر كدروس علمية متصلة الحلقات في القصر السلطاني امام امير المسلمين ، وبمحضر أعيان المصامدة والملمثين ، مما عمت به الثقافة الاسلامية المراكشيين حكومة وشعباً ، وعلم الكل ما تفرضه عليه التعاليم الدينية من فروض وواجبات .

(١) قال في المعجب : فانقطع الى امير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحواه حتى أشبهت حضرته حضرة نبي العباس في صدر دولهم ، واجتمع له ولابنه من اعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الاعصار .

ولقد تحدث التاريخ المغربي عن العدد الوافر من كبار الفقهاء ورجال العلم الذين كانوا يتخللون تلك الدروس اليوسفية ، مما يعد برهاناً على انها كانت محل انبعاث نور الهداية الاسلامية على المجتمع المراكشي في أول نشأة تلك الجامعة الجنوبية في القاعدة الثالثة من قواعد المغرب التي شيد فيها ابن تاشفين معاهد ومدارس عدت من مآثره الخالدة ، حيث أسس في مدينة سبتة المسجد الجامع وقت عبوره للجزيرة ، وشيد في مدينة فاس مدرسة الصابرين ، وكم له من مؤسسات دينية ورعاية خاصة لرجال العلم حتى انتشر خبرها في الاقطار الاسلامية انتشاراً سريعاً ألقت اليه انظار المفكرين ورجال الاصلاح في ذلك العهد حتى كاتبه الامام الكبير الطرطوشي ، وكذلك حجة الاسلام الغزالي ، بكتاب ضمنه نظره في الاصلاح الديني ، وقد أورده صاحب مفاخر البربر في مجموعته ، حسبما ذكر في النبذة المطبوعة من تلك المفاخر ، وفي الصحيفة الثانية منها : (وكفى بالمغرب شرفاً وفخراً ان تأمر فيه من يرتضى مخاطبته ، ويستجيز مكاتبته الشيخ الامام ، العالم العلم حجة الاسلام ، وفخر الانام ، وقدوة الامة ، وامام الائمة ، أبو حامد الغزالي رضي الله عنه فانه كتب لابي يعقوب يوسف بن تاشفين) إلى أن قال : (وسأورد كتاب الشيخ أبي حامد في موضعه من هذا المجموع المسمى بمفاخر البربر مع رسائل يتعلق مضمونها بهذا الفن) .

على ان أبا حامد اعتزم الرحيل إلى مراكش لمصاحبة أمير المسلمين

يوسف ابن تاشفين ، غير أن الاجل المحتوم وافى أمير المسلمين ، فرجع الغزالي إلى وطنه ، وانتقل ابن تاشفين إلى مقره .

تفقد احوال الاندلس وعهده لابي الحسن

ما كادت سنة خمس وتسعين واربعمئة تنتهي ، حتى حرك ابن تاشفين ركابه صوب الجزيرة الاندلسية ، بقصد تفقد احوالها ، والوقوف على مصالحها الادارية ، موثقاً بذلك لولاية عهده على عرش المملكة المغربية ، حيث صاحب معه في رحلته صاحبي السمو الاميرين الجليلين : ابا طاهر تميم ، وأبا الحسن عليا ، يتفقدان صحبته أحوال المملكة ، ويضطلعان بأعباء الامارة التي قد تصبح في تقليدهما بعد .

لذلك نبهها أبو يعقوب الى الخريطة السياسية ، للجزيرة الاندلسية ، بتشبيهه اياها لهم بعقاب : رأسه طليطلة ، و صدره جيان ، وجناحه الايمن غرب الجزيرة ، وجناحه الايسر شرقها ، رامزا بذلك للمراكز الحربية التي يجب أن تكون مقراً للقوات الاسلامية ، قال في الحلل : « ومن بيان كيفية وضعها وتمثيلها في السفرة يبدو بيان هذا التشبيه الذي هو راجع الى سياسة امرها ، واعتبار حالها ، » مما يبين للباحث عناية ابن تاشفين بالمحافظة على المجد الاسلامي في الديار الاندلسية ، وقد كان كثيراً ما يردد في مجالسه هذه الكلمة « انما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة ان نستبقدها من ايد الروم ،

لما رأينا استيلاءهم على أكثرها ، وغفلة ملوكهم ، واهمالهم للغزو ، وتواكلهم
وتخاذلهم ، وايتارهم الراحة ، وانما همة احدثهم كأس يشربها ، وقينة تسمعه ،
ولهو يقطع به ايامه ، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في
طول هذه الفتنة الى المسلمين ، ولاملأنها عليهم خيلا ورجالا لا عهد لهم
بالدعة ، ولا علم عندهم برضي العيش ، وانما هم احدثهم فرس يروضه
ويستفرهه ، او سلاح يستجده ، او صريخ يلي دعوته « في امثال تلك
الغرر الكلامية ، والنوابغ اليوسفية .

وبعد ان يطمأن لمشاهدة الثغور الاندلسية ، والتراتب الادارية ،
رأى ان الواجب الديني يحتم عليه تعيين من يخلفه على عرش المملكة
المرابطية ، محافظة على كيان تلك الامبراطورية الفتية ، لذلك أجال نظره
فيمن يقوم بذلك الامر عن جدارة واستحقاق ، فرشح له شبله الصغير أبا
الحسن ، حيث استلهم من ملامحه برهانا الاختيار ، لما تحلى به من
مظاهر العبقرية والنبوغ منذ طفولته ، ولا غرو فان للعنصرية اثرها الوراثي
في الطموح والتبل ، وقد تفرس بعض الاندلسيين في علي من صفات
السمو ما ضمنه في هذين البيتين :

لئن كان في الانساب يحسب ثانيا ❀ (علي) ففي العلياء يحسب اولاً
كذلكم الايدي سواء بنائها ❀ وتختص فيهن الخناصر بالخلي
ذلك علي ، وتلك اوصافه التي امتاز بها ، مذ كان طفلاً يتلقى دروسه
العلمية في مرا كش الحمراء بقصر والده ، ثم في المعهد الكبير ، ثم في سبته ،

الى ان يمتته السعادة ، واختير من بين الاشبال لمنصب الامارة ، من لدن صاحب الجلالة امير المسلمين يوسف ، بعد ان وافق على اختياره رجال الدولة ، من وجوه المراكشيين والانديسيين وزعماء المسلمين ، وعندئذ صدر المرسوم اليوسفي بتعيين ولاية العهد على المملكة المرابطية كوثيقة شرعية ، لقانونيتها حسب التقاليد المرعية ، والى القارئ نص المرسوم طبقا دبحته يراعة ذي السياسة والرياسة ، الوزير الكبير ، أبي محمد عبد الله بن عبد الغفور المراكشي :

« الحمد لله الذي رحم عباده بالاستخلاف ، وجعل الامارة سبب الائتلاف ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الكريم الذي ألف القلوب المتنافرة ، وأذل لتواضعه عزة الملوك الجبارة ، (اما بعد) فان امير المسلمين ، وناصر الدين ، أبا يعقوب يوسف ابن تاشفين ، لما استرعاه الله على كثير من عباده المومنين ، خاف أن يسأله الله غداً عما استرعاه ، كيف تركه ههنا لم يستنب فيه سواه ، وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة ، وجعلها من أكد الاشياء الكريمة ، كيف في هذه الامور ، العائدة بمصلحة الخاصة والجمهور ، وان امير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة ، وخصه الله بها من النظر في هذه الامور الدينية الشريفة ، قد أعز الله رماحه ، واحد سلاحه ، فوجد ابنه الامير الاجل أبا الحسن اكثرها ارتياحا الى المعالي واهتزازا ، واكرمها سجية وانفسها اعتزازا ، فاستنابه فيما استرعي ، ودعاه لما كان اليه دعي ، بعد استشارة أهل الرأي ، على القرب والنأي ، فرضوه لما رضيه

واصطفوه لما اصطفاه ، ورأوه أهلاً أن يسترعى فيما استرعاه ، فأحضره
مشتروطاً عليه الشروط ، الجامعة بينها وبين الشروط ، فقبل ورضى ، وأجاب
حين دعي ، بعد استخارة الله الذي بيده الخيرة ، والاستعانة بحول الله الذي
من آمن به شكره ، (وبعد ذلك مواعظ ووصية ، بلغت من النصيحة مرامي
قصية ، يقول في خاتمة شروطها ، وتوثيق ربوطها) : كتب شهادته على
النائب والمستيب ، من رضي امامتهما على البعيد والقريب ، وعلم علما يقينيا
بما وصاه في هذا الترتيب ، وذلك عام خمسة وتسعين واربعائة .

ثم وقعه امير المسلمين ، وأسلم زمام الادارة الى ولي عهده أبي الحسن ،
فرجع الى عاصمته قرير العين يرفل ثياب الجلال في خشوع وتبتل كي يقضي
بقية ايامه الحافلة في التوجهات الربانية .

وقد زود ولده أبا الحسن بنصائح لها قيمتها السياسية في تثبيت الامن
بأطراف المملكة وهي :

أولاً - المحافظة على وداد الاطلسيين ، بعدم تهيج سكان جبل درن
وسلسلة جبال المصامدة الى درعة من جهة ، وسوس الاقصى من جهة اخرى .
ثانياً - المحافظة على معاهدة بني هود ، بتجديد فصولها ، وعدم
خرق بنودها طيلة حياته لتبقى تلك الدولة الصغيرة كحصن بينه وبين
خصومه السياسيين .

ثالثاً - الاغضاء عن مسيئي القرطبيين بالتجاوز عن انفعالاتهم
السريعة ، وعدم معاقبتهم لاول بادرة تبدو من طرفهم .

ولقد كان علي شديد الحرص على تنفيذ رغبات أبيه وتطبيق وصاياه الثمينة لذلك تجاوز عن القرطبيين في ثورتهم التي كادت تقضي على النفوذ المرابطي في عاصمة بني عباد لولا حكمة يوسف في وصيته ، ورجوع علي الى مبدأ العفو في وصية أبيه .

وقد وفق كذلك علي الى مهادنة بني هود وتجديد المعاهدة معهم بعد ان كانت وشيكة الانقصاص .

تلك كانت حياة امير المسلمين يوسف بن تاشفين الذي سطت عليه يد المنون في يوم الاثنين ثالث محرم سنة خمسماية فلفظ الروح الى خالقها في مراکش الحمراء بمحضر ولي عهده الذي تولى تجهيزه في محفل رهيب اجتمع فيه امراء لشونة ووجهاء الدولة حافين به الى ان اودعوه في مقره الاخير بقصره الذي لا تزال اطلاله شاخصة حتى الآن تجمع بين الخمول في هيئتها والتعاضد في رهبتها ، ينشد لسان حالها من الشعب المراكشي النبيل العناية بساكنها العظيم ، ومودعها الكريم ، بتشديد مشهد شاخ يمثل عظمة منشيء أول امبراطورية مغربية ، وطدت في ارجائها اركان العقائد الاسلامية ، بعد ما عجز عن ذلك الفاتحون قبل ، ويزاح الستار عن ذلك المشهد في ذكرى شعبية (١) تخلد مآثر صاحب العظمة ، ومؤسس رمز الفخامة مراکش الحمراء الذي :

(١) ومن الغريب جداً أن تشارك الامة المغربية في ذكرى امير القريظ ، ولا تفكر في احياء ذكرى شعبية لامير العز المغربي ومؤسس دولة المغاربة وصوله العلم في

تناهى اليه المجد حتى لوانه ❀ أراد مزيداً لم يجد ما يحاول

حياة أبي الحسن بعد استقلاله بعرش المغرب

لقد تعرضنا لبعض صفات علي في رحلته الاندلسية وما امتاز به من النبوغ والنبيل اللذين بهما أصبح مثالا كاملاً للفضيلة ترمقه عين السعادة وتجتمع كلمة الامة على ترشيحه لولاية العهد التي برهن في إدارتها على حنكة وعبقريّة فذة ، والآن نوجز حياته الادارية ، بعد ان استقل بعرش المملكة المرابطية ، لما انطوت عليه تلك الحياة الزاهرة من الاعمال الجليلة التي كان من أهمها تأسيس الجامع الاعظم الذي يعد حادثاً عظيماً في تاريخ دولة المولايين بالمغرب والجزيرة لأن بمعارفه قوضت العقائد الفاسدة من المغرب وانتقلت جدورها من صدور المغاربة .

تبوأ علي أريكة العرش المغربي في أوائل المائة الخامسة بعد وفاة أبيه ، واستطاع بمهارته ان يضرب المقياس الاعلى للعدل الذي طربت له اطراف المملكة المرابطية وتبوأ به مكانة سامية في قلوب المغاربة حيث تم في عهده الإصلاح الديني الذي أسسه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في دائرة

الجنوب ، ولئن كان صاحب (مجلة المغرب) و(المغرب الجديد) قد دعيا الى اقامة تلك الذكرى ذات التراث الفاخر ، والمجد الخالد ، فقد صادفتها معارضة ممن يحاولون هدم كل فكرة سامية تنبعث من غير ردوسهم احتفاظاً بالانانية الفردية ، واستغلالاً للظروف في المصالح الشخصية ، مما أصبح عقبة كأداء في التعاون الادبي بين ابناء المغرب .

العدل والمساوات وإزالة الفوارق الشخصية بإرجاع الأحكام الى الشرع ، وإقامة الحدود ، وتنظيم العدلية باتخاذ مشاورين للقضاة في الجزئيات الفرعية ، والمشاكل الفقهية ، فتوافر العمران في عهده ، وازدهرت المعارف في عصره ، حتى اعتبره المؤرخون تاجاً على هامة الفقهاء والعلماء ، وحلاه بعضهم بقوله : الامير أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين كان اماماً عادلاً فقيهاً متقياً ورعاً يحب الخير وذويه ويقدم أهل العلم في جميع أموره .

وقد أطال ابن خلكان في ترجمته وابن السماك في حله حيث قال : « ولما ولي علي بن يوسف بعد أبيه اضطلع بالامور أحسن الاضطلاع ، وقام بها أحسن قيام ، وكان يقصد مقاصد العز في طرق المعالي ، ويحب الاشراف ، ويقدم العلماء ، ويوثر الفضلاء ، كثير الصدقة ، عظيم البر ، جزيل الصلة ، قد ألبسه الله المهابة ، وقذف له في القلوب المحبة ، فاجتمعت عليه الامة ، واتفقت له الكلمة ، وبايعه أخوه الامير أبو طاهر تميم وهو أكبر منه سناً ، وقد استعمل الروم وأقدمهم المغرب ، وكان ذكياً فقيهاً مكرماً لأهل العلم مقلداً لامور الفقهاء » .

على ان الذي يهمننا من تلك التراجم هو اتفاق كتابها على وصف علي بالفقه والعلم لان ذلك يعد نواة لما بذرتة الهمة اليوسفية بمراكش من البذور النافعة ، ولا غرابة ان يكون علي فقيهاً لان الحمراء اذ ذاك كانت تعج بقطاع العلماء الذين كانوا يقصدونها لمدارسة الفنون في عهد أبيه الذي توافر فيه من علماء لمتونة وصلحائها جماعة ممن أنجبتهم مدينة انعمات ، فعلي

قد شب في الوسط العلمي بقصر أبيه ، وكفاه مصاحبة شاعر لمثونة أبي بكر الصدي فانه كان ملازماً لركاب أمراء تلك الدولة ، لذلك كان علي يعتز باهل العلم ويكرمهم ويقدمهم في مهمات المسائل اقتداء بابيه ، وشغفا بالمبادي الاسلامية التي جعلها دستور اللغايات ، ومرجعا اعلى للمقاصد الانسانية في عهده : ذلك ، وما كاد نعي ابن تاشفين يصل الى اطراف المملكة حتى شدت الرحال لعاصمته الحمراء :

وفود المبايعين لمراكش وتجديد علاقتها ببغداد

لما تطيرت الانباء بنعي امير المسلمين هرعت الوفود من ارجاء البلاد الى ام العواصم مراكش الحمراء لاءداء فروض التعزية ، وتقديم مراسم التهنئة لامير المسلمين ابي الحسن بجلوسه على دست المملكة المرابطة ، تجديداً منهم لبيعته ، وإعلاناً لجلالته بالاخلاص والولاء الذي انتهى بالوفود الى الاجماع على الانضواء تحت لوائه ، عدا يحيى بن ابي بكر امير فاس ووليها من لدن يوسف فانه تمرد مع نفر من الدخلاء على الاعتراف بولاية ابي الحسن ، ترقباً منهم لايجاد جو غير ملائم قد يحمل عليا على استعمال الشدة والقوة في اخضاعهم ، لولا ان رجع الى اميرهم رشده ، فتاب وقدم توبته بواسطة الشفيح الامير مزدلي بن بلـكان ، فقبل امير المسلمين ثوبته ونقاه الى الاندلس بعد ان أوقفه في العاصمة مدة .

وبذلك تم لعل بسط نفوذه على المغرب والاندلس واهتم باحوال المسلمين وتحسين الجيش وثابر على الفتح والغزو مما هو معروف في تاريخه السياسي . على ان اشتغاله بذلك لم يكن حائلا بينه وبين تجديد العلاقات الودية مع الخلافة العباسية ، تكميلاً لمراسم دينه ، وتقوية لولايته ، اقتداء بامير المسلمين يوسف ، ولا مرء في انه وقعت بينه وبين امير المؤمنين مخاطبات ، غير ان التاريخ الذي أمكننا الاطلاع عليه حتى الآن ما وقفنا فيه على تلك الرسائل ، ولا على سفرائه الى بغداد ، غير ان صاحب الحلل أفادنا بمرسوم عباسي بعث من طرف الخلافة الى امير المسلمين كجواب يفيدنا وقوع تبادل المراسلة بين مرا كش وبغداد ، وبناء على ما ينص عليه المرسوم في بعض فقراته من توطيد العلاقات الدينية والسياسية بين عاصمة المرابطين الحمراء ، وعاصمة العباسيين بغداد ، فسنورده هاهنا بتمامه تيمناً للفائدة ، واطلاعا على مقدار ما كان للخلافة من العطف والحنو على دولة المؤمنين ، وهذا نص المرسوم :

« من عبد الله ابي العباس المستظهر بالله امير المؤمنين - الى زعيم الدولة العباسية ، وزعيم شيوخها المغربية ، علي بن يوسف بن تاشفين ، أحسن الله توفيقه ، اما بعد ، فالحمد لله مقدم على كل مقال ، وتال كل فعال ، وهو ذو المن والافضال ، الكبير المتعال ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد المؤيد بالتنزيل الذي كشف عن الامة الغمة ، واستنقذ من الضلالة الامة ، وحمى به من المحارم ما كان مباحا ، واقتدح من القلوب زنادا أورى بعد ما كان

شحاها ، وألبس الدين بعد ما كان بالعرء من السيطة جناحا ، وعلى ازواجه
وذريته ما عقب مساء صباحا ، وخص العباس بن عبد المطلب عم النبوة ،
ووارث الخلافة وشقيق الابوة ، الميمون الظاهر ، الطاهر الاوائل
والاواخر ، بالصلاة المستهلة العهد ، المتصلة الامداد ، ومواهب الله على
امير المسلمين حبائس ، ومنائح لديه كوامل نقائس ، وجناب الاسلام مريع ،
وباع الحق وسيع ، ورياض العدل اريضة ، وعيون الحق عريضة ، ونظرة
للعرايا على ما يقتضيه قصدها ومرادها ، ويفل عنهم شبا الايام اذا رهف
جبها ، والنصر لرايته ألف ، والظفر لجيوشه عرف ، واعدائه للسيوف
حصائد ، وللعنوف طرائد ، وشكره لله تعالى على ما أولاه شكر مؤذن
بالمزيد ، وشاهد بصنع لا يبيد ، وعرض بحضرة امير المؤمنين ، كتابك
الموضح لاخلاص السريرة المطبوعة بطبائع الدين ، المعربة عن تمسكك
بطاعته بحبل الله المتين ، الهاطلة سحائبها من سماء سيرتك ، المضئية مصابيحها
من اخلاص طريقتك ، واما ما أنهيته من توفير الاجناد ، ومثابرتك على
الجهاد ، لدفع ادناس الكفرة عما يليك من البلاد ، فانك وطائفتك من
حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون ، فاتخذ التقوى عمادك ، والحق منارك ،
وكتاب الله وستة رسول الله شعارك ، وتجرد للدفاع عن الاسلام والمسلمين ،
وحط صعادك في نحور اعداء الله الكافرين ، وأعلن بالدعاء لامير المؤمنين
على المنابر ، تكن الظافر ، بالاعداء الظاهر ، والسلام عليك وعلى من قبلك

من أهل الطاعة سلام يهديهم الى المقام المحمود ، ويكشفهم بظل الرحمة المحدود ، ورحمة الله وبركاته .

وانت أيها الباحث بإلقاء اول نظرة على المرسوم العباسي تقرأ من بين سطوره ذلك الاعتراف بمكرمة امير المسلمين علي وتعلم ما كانت عليه حالة الجنود الادبية في المغرب ، على ان مما يجب التنبيه اليه هو الموازنة بين مراسم بغداد ومراسم الحمراء ، لان بتلك الموازنة يعلم ما وصل اليه ديوان الانشاء في ذلك العصر في العاصمتين من سريان الروح الدينية ، في سائر المظاهر المتوننة والعباسية ، مع ملاحظة الضعف البادي على صفحات المرسوم العباسي ، وليس بعجيب ان يلحقه حظ من الهرم الذي أحاط بالدولة العباسية في جميع مظاهرها السياسية والادبية التي تعلق بعلو الدولة وتنزل كفتها الى حيث يبلغ الضعف ، واذا تأملت معي قول الخليفة في خطابه الموجه لاميير المسلمين : (واما ما أنهيته من توفير الاجناد ومثابرتك على الجهاد) أدركت ان عليا اغتتم فرصة الانتصار والقوة فوجه خطابه الى بغداد كبشارة يقدمها في نشوة العز ، ونخوة التقدم ، على انه قد يقصد بذلك تجديد دعائم الخلافة التي أوشكت على السقوط بنفخ روح القوة الفتية بالتعاقد والتضامن معها من وراء البحار ، مع إلفات نظر الخلافة الى ان اعترافه بها لم يكن عن ضعف وانما كان مع قوة وضخامة ملك ، وعلى العموم فالناظر في المرسوم العباسي يرى انه محل تعليق وتحليل قد يحول الموضوع دون تتبعهما ، على ان من أهم ما يشعر به تحول يستط

السياسة الاسلامية إلى مراکش وبغداد تحولا لا يلم بحركة انفصالية عن الخلافة وانتقالها الى الحمراء حيث عرين الاسد ، بعد ان أصبحت بغداد كناس ظباء ، كما قد يميل اليه البعض .

على ان تلك الغاية لم تكن بعيدة عن عاصمة المثلثين لولا ان زعيمها الاكبر ، وقائدها الموفق ، يتدرع دائما بالتورع عنها ، والميل الى اسناد الخلافة بالخضوع اليها رغماً عن انحلالها تكميلاً لمراسم دينه ، سيما بعد ما لوحظ منها بعين الرعاية والاعتبار ، وقوبلت رسائله من لدنها بجزيل التكريم واحسن الايثار ، وأحرز مع حزبه على تمام العطف والرضى ، ولقبوا بحزب الله المفلحين ، مما أدى بهم الى التشبه بالتعظيم العباسي في جميع مظاهرهم باتخاذ شعار بغداد في زيهم ولبوسهم كما قال صاحب العبر .

عناية أبي الحسن بالعلوم وتأسيسه للمعهد الكبير

لما تم لعللي ما كان يرمي اليه من الاصلاح الاداري ، واعترفت بولايته وزعامته الخلافة العباسية ، ألقت نظره الى المعارف الاسلامية فأعطاهما حظها الاوفى من العناية ، حيث جلب لحضرته من أهل كل فن فحوله لتضم معارفهم الى معارف ما فيها من الفقهاء والعلماء والزهاد والمتبتلين مما ازدهرت به الاسواق العلمية حتى تقدمت المعارف السلفية تقدماً محسوساً أخذت به مراکش مركزها العلمي بين كبريات العواصم ، حيث

شملت العناية الملكية كل من قدمته معارفه الدينية سيما المعارف الفقهية التي كانت اليها الرياسة العليا في ذلك العهد الذي أصبح فيه القانون المالي نافذ المفعول ، يتخلل المنقول والمعقول ، تروج في الاندية بضائعه ، وتربح المتفقيين فيه تجارته ، بما يسبله أمير المسلمين على الفقهاء من العطايا ، ويغذق عليهم من النعم والهدايا ، لشدة إثارة لاهل الفقه والدين ، واتباعه في سائر الامور سبيل المومنين ، حيث أصبح لا يقطع أمراً في جميع مملكته بدون مشاورة الفقهاء الذين خصص منهم مشاورين أربعة لجميع قضائه جعلهم كدستور يرجع اليه القضاء في جميع اطواره ، وقد أمر القضاة أن لا يقطعوا أمراً ولا يبتوا حكومة في صغير من الامور ولا كبير الا بحضور الاربعة المشاورين ، قال في المعجب : فبلغ الفقهاء في ايامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الاول من فتح الاندلس ، ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمور المسلمين راجعة اليهم ، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدته ، فعظم لذلك أمر الفقهاء ، وانصرفت وجوه الناس اليهم ، فكثرت أموالهم ، واتسعت مكاسبهم .

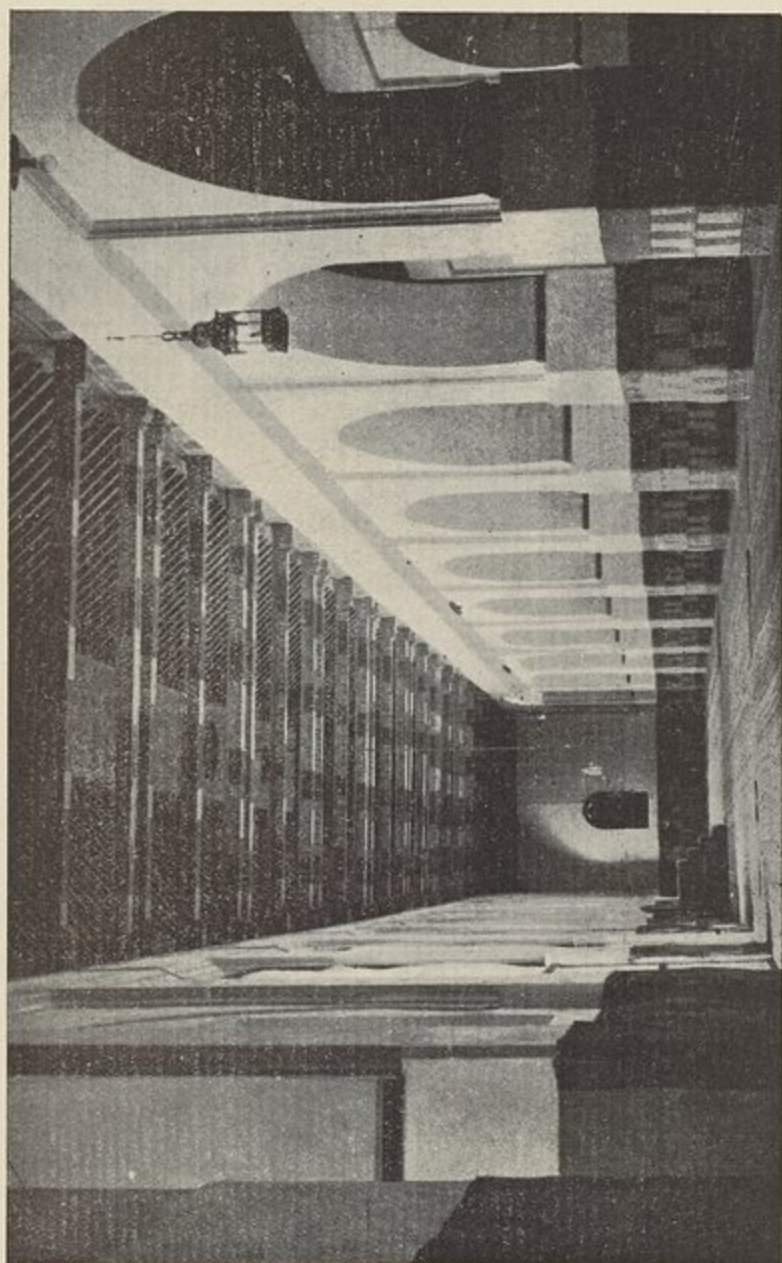
ولما كثر العلماء وتوافر عدد الطلاب بالحمراء فكر أمير المسلمين علي في إنشاء جامعة إسلامية يكون لها في مستقبل الايام الاثر الجليل ، والطابع الخاص ، في القيام بحفظ الشرائع الاسلامية ، ونشر مبادئها السامية في المغرب وخصوصاً الجنوب ، فشرعت همته الطماحة في وضع الحجر الاساسي لمعهد الكبير الذي لا يزال رسمه مقرونا باسم واضعه الى أن يرث الله

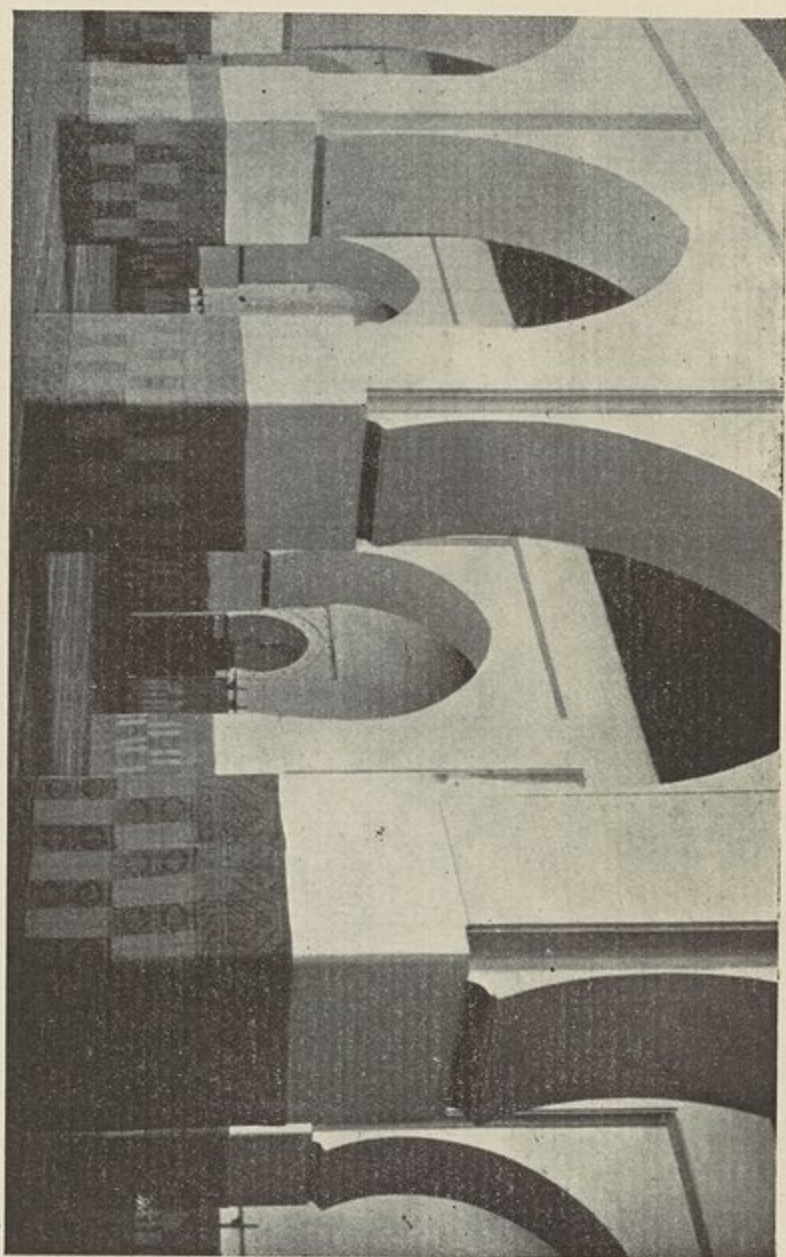
الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ، وذلك سنة اربع عشرة وخمسمائة (١)

(١) الذي توصلنا اليه من مجموع دراستنا التاريخية أن تأسيس مسجد ابن يوسف وقع اول العشرة الثانية من المائة السادسة ، وما يوهمه الرقم العددي في طبعة الحلل الجديدة من وقوع ذلك سنة ستين وخمسمائة لا يخرج عن الغلط المطبعي ، لان صاحب الحلل وافق جميع المؤرخين في ان دولة المرابطين قد اختفت من الوجود قبل ذلك بكثير ، على انه ذكر في اخبار المهدي بن تومرت انه ناظر الفقهاء في مسجد علي ابن يوسف سنة خمس عشرة وخمسمائة ، ووافق على وقوع تلك المناظرة في ذلك التاريخ الزركشي في تاريخ الدولتين لدى تعرضه لخبار ابن تومرت وما وقع له مع علي في مسجده بعد صلاة الجمعة . وان لو حظ على الاول انه ذكر في محل آخر من تاريخه ان المهدي دخل مراکش سنة عشر وخمسمائة كما بالرقم العددي من الطبعة الجديدة ، كما لوحظ على الثاني انه ذكر ايضا في تاريخه ان عليا سور مراکش وبنى مسجدها وسقايتها سنة عشرين وخمسمائة ، على ان غيرها قد ذكر مثل ذلك او ما يقاربه ، والصواب ان سنة خمس عشرة وخمسمائة وجدت مسجد علي تاما لما ذكره ابن خلدون في تاريخه الكبير من وقوع المناظرة بين المهدي وفقهاء لمونة في المسجد الجامع بمراكش تلك السنة .

واما ما ذكره موقت ابن يوسف في تاريخه نزهة المسالك والمملوك من ان عليا أسس ذلك المسجد سنة خمس وعشرين وخمسمائة فليس بصواب لانه لا يستند على نقل صحيح ولا نظر معقول لحوادث تلك الدولة ، على انه زاد بزعمه في تاريخه المذكور ان ذلك المسجد هو اول ما بني بمراكش الحمراء . . . وليس كذلك ، لان التاريخ أثبت ان عدة مساجد أسست بمراكش قبل تأسيس ابن يوسف ، منها مسجد يوسف ابن تاشفين الذي لا تزال آثاره شاخصة للابصار ازاء مسجد الكتبيين وقد اشرنا له قبل ، ومنها مسجد صومعة الطوب الذي دخله المهدي بن تومرت عند دخوله لمراكش كما في تاريخ البيديق ، ومنها مسجد عرفة الذي قصده المهدي حين فرغ من مناظرة الفقهاء ومكث به حتى بلغه ان الملائكة يأمرون به فخرج من مراكش كما أشار إلى ذلك ابو بكر الصنهاجي المعروف بالبيديق في صحيفة ٦٧ من تاريخه الذي اعتنى باخراجه من الخزانة الاسكريالية المستشرق لافي اروفصال وقد طبعه في باريس سنة ١٩٢٨ م . وزعم الموقت هذا يحمل على اولياته وكلياته وعجائبه وغرائب وما أضيف الى ذلك من مسائله التي تشم ولا تفرك ؟

بمحضر نجة من الفنانين والميقاتيين وهيأة من العلماء تضم مثل زعيم الفقهاء
ومجدد المائة الخامسة بمرآ كش أبي الوليد محمد بن رشد الكبير الذي استقت
الحمراء من زلال معينه معارف جمة لتخلله معاهدها ومدارسها واتصاله بنبغائها
الذين يجعلونه محل تكريم واجلال كلما غدا او راح .
وإلى القارئ الرسم الداخلي لتلك الجامعة :





— ١٠٤ —
 جامع ابن يوسف

التي سألته عنها وعن آثارها وما خلده من المتوجات الفكرية وأبرزته من افراد ، بعد ان أهمل في أذنه ان الدهر قد طغى عليها وسلبها تعاضمها الاصيلي بتهديم أطرافها وتغيير شكلها الوضعي الذي أسست عليه أيام عزها حتى أصبحت بنائها الحالية لا تمثل الا جزءاً من المساحة التي كان يشغلها ذلك المعهد الكبير في العصر المرابطي ، مما لا تزال من أطلاله الدارسة ورسومه البالية بقايا في الحرات الاضافية المحيطة به حتى الآن ، تلك الاطلال التي من أهمها أثر مناره الذي شيد معه في بناء قديم بلبق المسجد من جهته الغربية في شارع الباروديين ازاء مباني قديمة جلها وضع فيما قص من أطراف المسجد يملؤها أصحاب الحرف وصغار التجار ، على انه طوقت جوانبه بأمكنة عديدة يعمرها الصانع والمخترفون ، وقد بقي في ناحيته الشمالية فضاء متسع أضيف للاوقاف كان من أصل المسجد ، كما ان الدكاكين العديدة الكائنة بجهته الجنوبية كانت مساحتها من أصله وجلها الآن مهتمم الاركان آيل للخراب والسقوط والله وحده البقاء .

ولامراء ان تلك المساحات المنفصلة عن أصل المسجد تعبر أحسن تعبير بلسان حالها على مقدار ما كانت تشغله تلك المؤسسة التاريخية التي تحدث الناس عنها وعن تعاضمها ، كما تحدثوا عن الطغيان الواقع عليها من طرف الدولة الموحدية التي حاولت بتطاوها على تلك الحرمه الدينية إخفاء كل أثر لدولة المرابطين في قاعدتهم الجنوبية بطمس الينابيع العلمية ، وغلق أبواب الهداية الاسلامية الموضوعه اذ ذاك على الطريقة السلفية البحتة .

سيا ما يخص العقيدة التي منحها الموحدون اسم التجسيم وشنعوا عليها
تشنيعاً قصدوا به محو العقائد السلفية من ضمائر المغاربة استعداداً منهم
للاتقلاب الفكري الذي يروونه موافقاً لمبادئهم الاعتقادي الذي جعلوه أساساً
للاتقلاب الدولة، ومن المسلم ان تلك العقائد السلفية لا تزول من قلوب
المراكشيين الا بإخفاء المعهد الذي كانت تنبعث منه ويمتد شعاعها على
الديار المغربية، يريدون أن يطفئوا نور الله بفعلهم ولكن يابى الله الا ان
يبقى نوره تاماً بإبقاء ذلك المسجد مناراً بعد ذلك للهداية الاسلامية ولو
كره من كره فعصم منه هذه البقعة المباركة التي لا تزال حافظة لمركزها
العلمي بمشاركتها الفعالة في الثقافة العامة والحركة الفكرية، جيلاً عن جيل،
ودولة عن دولة، تعلقو تارة، وتهمل أخرى، الى ان قيض الله لها أمير
المومنين أبا الربيع المولى سليمان في العهد العلوي المنيف، فجدد معالمها،
وشيد رسومها تشييداً فنياً استرجعت به شبابها الذي خسرت في بعض
أحيائها وأحيطت بها الرعاية الملكية في الاعصار بعده الى ان أصبحت الآن
تنشد بلسان حالها من صاحب الجلالة ومجدد الروح العلمية والادبية في
المغرب أمير المومنين، وناصر الدين، سيدي محمد أبد الله ملكه، وأدام
عزه، إحياءها بتنظيم حر يتفق مع كرامتها التاريخية وعزتها القومية في عهده
الزاهر تجدد به نشاطها الثقافي الذي حافظت عليه طيلة القرون الماضية،
رغم تقلبات الاحوال والدول، وتصبح به عاملاً فعالاً من العوامل المؤثرة
في الروح العلمية تأثيراً يتفق مع التطورات العمرانية بنفخ روح التجديد

في أساليب التعليم تنتقل به الجامعة من جمود القرون الوسطى الذي خيم عليها في العهد الاخير حتى كادت تفقد سمعتها الخالدة ، وليس ذلك على همة جلالته ببعيد لما جبل عليه من حرية التفكير وحب ترقية المدارك الفكرية في أطراف المملكة الشريفة .

أسس المسجد اليوسفي (ابن يوسف) في عصر حضارة الدولة المرابطية وتوافر العمران بعاصمتها التي أصبحت دار هجرة للعلماء والادباء والكتاب المنحدرين اليها من العواصم الاندلسية ، فتعاظمت بذلك مظاهرها العلمية ، ونضجت بذورها الفكرية ، حتى وصلت الى ما حدثك عنه التاريخ ، لان من المسلم ان العواصم تجبي اليها ثمرات كل شيء ، فكيف بام العواصم التي انضوت تحت لوائها عواصم ملوك الطوائف الاندلسية ، واندجت في صفوفها طوائف الملوك المغربية ، كما قال مندوب المعارف الاستاذ الحجوي في بعض بحوثه .

وكم يعجبني إنصافه في محاضراته التي ألقاها في المؤتمر الثامن بمعهد الدروس بفاس المطبوعة في ملحق (مجلة المغرب) حيث قال في صحيفة ١٧ عند استعراضه لاحوال دولة المرابطين : « فصارت مراکش عاصمة المغرب والصحراء والاندلس معا في آن واحد ، وأنت تعلم أن العاصمة هي سوق الدولة العام الذي تجبي اليها ثمرات تلك العواصم ١٢ الاندلسية ، فبالضرورة قصدها الادباء والكتاب والشعراء والعلماء على اختلاف علومهم من قرطبة واشبيلية واشبونة وغرناطة وبلنسية ومرسية وجيان وشاطبة والمرية ومالقة

ودانية وميروقة وغيرها من عواصم الاندلس « إلى أن قال : « فكانت سلطنة يوسف ابتداء عصر أدبي امتزج فيه الادب الاندلسي بالادب المغربي ، أو قل انتقل من الاول للثاني » الى آخر ما حبرته يراعة الاستاذ في محاضراته ، وهو صريح في انه توصل بنظريته الصائبة الى ان الادب الاندلسي أصبح مزيجاً بالادب المغربي ، بل انتقل الادب الاندلسي للحاضرة التاشفينية ، حيث كرسى الامارة المرابطية ، ضرورة ان المظاهر العلمية والعمرانية تتجلى في العواصم التي تجبى اليها ثمرات الافكار ، سيما والعرش المرابطي كان يخفض جناحه للعلماء ، ويقرب من دسسته الادباء ، مما صحت به النظرية القائلة بانتقال الادب الاندلسي لمراكش انتقالاً أدى الى اصطباغه بصبغتها الادبية ، حيث خرج بذلك من أغلال السجع الاندلسي ، وبرز في حلته الساذجة المطلقة التي تجلت طرافتها في العصر الموحيدي الوريث ، طبقاً تقتضيه التطورات الطبيعية للاشياء .

ومن تحليل بعض فقرات المحاضرة تدرك ان الفقيه الحجوي سجل في بحثه العلمي حكمه بالرياسة الادبية لحاضرة المثلثين في ذلك العصر الذهبي ، وذلك نتيجة معقولة لتلك المقدمات المسلمة يخضع لها المنصفون بكل ارتياح واطمئنان ، ومن ذلك يتجلى للقارئ مقدار ما لتأسيس معهد ابن يوسف في ذلك العهد الزاهر من الاهمية الكبرى والمكانة العليا في الانتاج الفكري . ولئن وضع ذلك المعهد اولاً وبالذات للقيام باظهار الشعائر الدينية على وجهها الاكمل فقد أريد منه كذلك تمزيق سبغ الجهل التي كانت

مخيمة على الضمائر المغربية ، واستبدالها بنور الهداية الاسلامية ، والعقائد السلفية لتحل محل البقايا المتشعبة التي تركتها الوثنية وغيرها من العقائد المذهبية في الوسط المغربي ، زيادة على ما لذلك المظهر الديني الفخم من الخصوصيات التي يراد منها تثبيت دعائم الدولة وانتشار مبادئها التي تراها حافظة لكيانها من التصدع الذي ينشأ غالباً من المنازعات الطائفية والميولات الاعتقادية ، وذلك شأن المساجد الحكومية في دول المغرب بل في دول الاسلام حيث انها ينبوع الهداية العام ، ومحط انبعاث الوحدة الاسلامية التي تستند عليها الدول الشرقية في غالب أحوالها بناء على ان الدولة الاسلامية لا تقوم إلا على العصية الدينية ، لذلك كثيراً ما تكون الحلقات العلمية في المعاهد الدينية كمدرسة للتبشير بالمبدأ الذي تعتقه الدولة كما وقع في الجامعة الازهرية بمصر القاهرة في عهد الدولة الفاطمية .

وعلى ذلك المبدأ التقليدي لدول الاسلام أسست دولة المثلثين مسجدها الاول في عهد يوسف بن تاشفين ثم مسجدها الثاني « ابن يوسف » في عهد أبي الحسن علي لما توافر العمران وتكاثر العلوم ليكون منبراً اعلى للثقافة العامة تنبعث من مستواه أشعة الانوار العلمية على العواصم المغربية في ذلك العصر الذهبي الممتاز الذي ظهر فيه العنصر المراكشي بمظهره العبقريه والنبوغ الذين تجلت بهما الحقائق العلمية بالحرء في أعظم صورة يحفظها التاريخ المغربي ببرهان تعاظم القائمين فيها اذ ذاك بالحركة العلمية والادبية ، أولئك الافراد الذين كان من اخصهم هالة القصر المرابطي التي

تضم في مجالسها العالية ، ودواوينها الراقية ، مثل الكاتب البارع ذي الوزارتين أبي عبد الله محمد بن أبي الحصال ، وذو اليراعة والبراعة أبي بكر بن القيطرة ، وذو السياسة والرياسة أبي محمد عبد الحميد ابن عبدون ، وأبي القاسم الاحدب ، وأبي بكر ابن محمد الصيرفي ، وزعيم الفقهاء ابن رشد الكبير ، وقاضي الجماعة مالك بن وهيب ، والدكتور الماهر أبي العلاء زهر بن أبي مروان ، وأبي جعفر احمد بن عطية المراكشي ، وغيرهم من دهاة المفكرين وارباب الاقلام الذين خلدوا من الثرات الفكري ما يعتبر مرجعاً عظيماً من المراجع العلمية في الشرق والغرب حتى ترجم بعض ذلك الثرات الى اللغات السامية واعتبر كنواة لتأسيس المدينة الغربية كما اعترف بذلك المنصفون .

واذا علم ان العهد التأسيسي للجامعة اليوسيفية ما وصفت ، وصفات رجالها العاملين ما رصفت ، لزم التسليم بانها تاج عسجدي على هامة المعاهد الدينية في المغرب الاقصى ، حيث قرن رسمها العلمي بعزه ، ومجدها بمجده ، وعظمتها بعظمته ، فهي عظيمة ، وستظل محتفظة بعظمتها التاريخية ، وعزتها القومية ، إلى أن يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وكيف لا تكون كذلك وقد تخرج بين جدرانها في العهد المرابطي مثل الامير أبي إسحاق ابراهيم بن يوسف ابن تاشفين ، وحفيده أبي بكر ، وشبل أمير المسلمين تاشفين ، ومنقذ أهل فاس من التجسيم أبي عمرو عثمان وفي العهد الذي يليه مثل أمير المومنين يعقوب الموحدي ، وحفيده ، وجماعة

من الامراء والعلماء مثل ابن القطان الفاسي ، وأبي علي المراكشي ، وعبد الواحد المراكشي ، في آخرين . وفي عهد بني مرين مثل فخر المغاربة احمد بن البنا العددي المراكشي ، وتليذه الابلي ، وطبقته التي سذكرها بعد . ومثل المنصور السعدي ، والنيل زيدان ، وابن القاضي ، واليفراني ، في عهد دولة الاشراف السعديين . ومثل أمير المؤمنين فرع الشجرة الزكية سيدي محمد بن عبد الله ، والامير مولانا الحسن ، وغيرها من أمراء دولة الاشراف العلويين القائمة في المغرب حتى الآن . فسبحان من لا تعتريه الاحوال ولا تلحقه الاغيار .

واليك بعض التراجم النموذجية لرجال الحركة العلمية بمراكش الحمراء في عهد دولة المرابطين :

(أبو الوليد محمد بن رشد الكبير)

لما كان السمو الثقافي لا يتجلى الا ببسط الحياة العلمية للأفراد القائمين بالحركة الفكرية في كل زمان ومكان رأينا من اللازم تحليلية بحثنا هذا ببعض التراجم النموذجية التي يعتبرها الباحثون كبرهان واضح الدلالة على النهوض العلمي في قاعدة الجنوب (مراكش الحمراء) وقتئذ فتحت الجامعة اليوسفية أبوابها للواردين ، وبما ان من كبار من حلت ركابتهم الحمراء وانتفع الناس بعلومهم في ولاية أبي الحسن - أبو الوليد ابن رشد الكبير رأينا من الاعتراف بفضله ، تصدير هذه التراجم بذكره ، فنقول :

قد جاوز البحر الى عاصمة المثلثين ، ايام أمير المسلمين أبي الحسن علي ابن يوسف بن تاشفين ، قاضي الجماعة بقرطبة أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الكبير ، أحد مشاهير الاندلس ، وعظيم نبغاء المائة الخامسة ، ذلكم العلم الشاخص الذي سأحدثكم عن نشأته العلمية ، قبل أن أحدثكم عن آثاره الفكرية وبحوثه الفنية بالحرء .

نشأ ذلكم الاستاذ العظيم ، والفقيه المتفنن ، نشأة علمية في جو قرطبة السامي ، وببيتها الراقية ، من اسرة أندلسية عريقة المجد والاصالة ، تتمتع بشهرة ذائعة ، ومكانة ممتازة ، فكان كما شاءت له الاقدار ، علمها الممتاز ، ورجلها الفذ ، الذي خلده نبوغه الفكري ، وتفوقه العلمي ، في صفوف الزعماء والمجددين ، حتى تناولته الاقلام من شتى النواحي المرموقة بعين الاعتبار ، غير ان الفقهاء قد احتفظوا بشخصيته كمجدد للقانون الاسلامي حيث أفاض عليهم من بحوثه الفقهية ما اتخذته سيلاً واضحاً له في استخراج المسائل على وفق الاصول المذهبية ، مما صير له انظاراً خاصة في اتجاهات المذهب المالكي أصبحت محل خلاف يعتبره المتفقهون بعده .

ولقد حلاه القاضي عياض السبتي المراكشي بقوله : « زعيم فقهاء وقته باقطار الاندلس والمغرب ، ومقدمهم المعترف له بصحة النظر ، وجوده التأليف ، ودقة الفقه ، وكان اليه المفزع في المشكلات ، بصيراً بالاصول والفروع والفرائض والتفنن في العلوم ، وكانت الدراية ، اغلب عليه من

الرواية ، كثير التصانيف مطبوعها ، قليل الكلام في غير العلوم ، معتمداً
لدى الخاص والعام في عظام الأمور . »

وكان نزيهاً في ولايته على قرطبة إلى أن التمس من أمير المسلمين علي
ابن يوسف اعفائه لكثرة أشغاله ولاهتمامه بتميم تأليفه المرسوم بـ (البيان
والتحصيل ، لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل) ، لأنه كان شديد الرغبة
في تهذيبه واستخراجه ، فأجاب أمير المسلمين طلبه وقبل استعفائه ، فكان
من كرم الله بالفقه المالكى ان برز في جوه ذلك الكتاب العظيم المشتمل
على عشرين مجلداً ضخماً ، فانتفع الناس به وملئت بنسخه الخزائن المرابطة
بمراكش وكذلك خزائن الموحدين ، ولا يزال حتى الآن موجوداً في
بعض الخزائن المغربية ، وقد وقفنا على جزء منه في دار الكتب المصرية
مخطوط بخط مغربي ، ولنا في كناشة بعض مسائله ، وهو مرسوم عندهم
بجامع البيان والتحصيل ، لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل ، ثم وقفنا
بعد ذلك عليه كاملاً في الخزانة الحبسية بالرباط لأنه لا يزال محفوظاً بها
حتى الآن في عشرين مجلداً انتسخت في عهد أمير المؤمنين أبي عبد الله
سيدي محمد حفيد المولى اسمعيل قدس الله روحه ، وقد اقتطفنا من الجزء
الاول هذه الكلمة التي ضمنها سبب استعفائه وهي : « ولما شرعت في رزمة
الاقضية امتحنت بتولي خطة القضاء ، وذلك في جمادى الاولى من سنة
احدى عشرة وخمسمائة ، فشغلتني أمور المسلمين عما كنت أمله من ذلك ،
ولم اقدر من التفرغ اليه على أكثر من يوم واحد في الجمعة ، اعتزلت فيه

عن الناس الا فيما لم يكن منه بد ، فما كمل لي على هذا منه في مدة توليتي القضاء - وذلك اربعة اعوام غير ايام - الا اربعة كتب أو خمسة ، فأليست من إتمامه في بقية عمري ، إلى ان يرحمني الله عز وجل من ولاية القضاء ، وكنت من ذلك تحت إشفاق شديد ، وكره عظيم ، وذكرت ذلك لأمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين ، أدام الله تاييده وتوفيقه ، في جملة الاعذار التي استعفيت بسببها ، وغبّطته بالاجر على تفريغي لتمامه ، فقبل الرغبة في ذلك ، لرغبته فيما رغبته من الثواب فيه ، وأسعف الطلب فيه ، لما رجاه من ان تشغل بذلك موازينه يوم الحساب ، والله يدخر له هذه الحسنة ، ويبوء بها من درجات النعيم اعلا درجة ، برحمته ، فواليت من حينئذ في اكمال الكتاب ، الى ان كمل بحول الله وعونه في مستهل شهر ربيع الاخر من سنة سبع عشرة وخمسة ، والله أسأله المجازات على ذلك برحمته » الى آخر ما ذكر في بيانه الذي يعتبر كشرح مطول معقول على ما جمعه العتيبي محمد بن احمد بن عبد العزيز بن عتبة بن أبي سفيان في مستخرجه الفقهية .

وليس البيان والتحصيل وحده كل ما خلفه ابن رشد الكبير من المتوجات الفكرية ، بل خلف كذلك كتابه المقدمات تناول فيها البحث على الفقه المالكي من حيث استخلاصه من أوائل المدونة الكبرى وأفاض فيه ، وقد طبع مع المدونة فانتشر في الاوساط العلمية التي لها ميول فكرية ، للوقوف على الطرق السلفية .

وبما وضعه ابن رشد الكبير في الفقه المالكي من التأليف الجليلة
اشتهرت آراؤه الخاصة عند الفقهاء وأصبحت مادة غزيرة من المواد الفقهية
التي يلتجأ اليها المؤلفون بعد حتى جعلت في طليعة مهمات البحوث المذهبية
عند المتأخرين الذين اعتنوا باستظهاراته عناية خاصة ، فجعلوا لها إشارة
ممتازة كما فعل أبو الضياء خليل في مختصره الفقهي الذي يعد مناراً للفتا
العام في المغرب الأقصى منذ ظهوره حتى الآن حيث يقول : « وبالظهور
لابن رشد كذلك » يعني اذا كان الظهور بصيغة الفعل فذلك لاستظهاره
الخاص ، وان كان بصيغة الاسم فذلك لاستظهاره من الخلاف ، حسبما
جعله اصطلاحاً له .

ولقد اختصر ابن رشد كتاب المبسوط تأليف يحيى بن إسحاق بن
يحيى ، وله غير ذلك من التأليف التي لها اتصال بالفقه المالكي .
على أن له في الآثار كتاب التهذيب هذب فيه مشكل الآثار للإمام
الطحاوي ، وهو لعمرى حري بالتهذيب والتنقيح حيث ان الطحاوي
يعرب احيانا في كتابه سيما عند دفعه التعارض ، وقد طالعناه ايام كنا بجامعة
وادي النيل العزيز ولنا عليه ملاحظات في دفتر خاص ، وقد طبع مشكل
الآثار بالهند سنة ١٣٣٣ في أربع مجلدات ، غير ان تهذيبه لابن رشد لا
يرى مع الاسف الا في ترجمته ، ولو ساعدت الظروف على طبعه لاستفاد
الناس منه آراء ابن رشد في الاخبار ، كما استفادوا انظاره في الفقه من البيان
والمقدمات ، على ان في ثناء أبي الفضل عياض على تأليفه وحسن درايته

ما يشير الى اعتبار التهذيب في موضوعه الاثرى ، سيما وعياض قال عن نفسه جالست ابن رشد كثيراً واستفدت من علمه ، ولعله بذلك حكم على تغليب دراية ابن رشد على روايته ، وعلى كل حال فكتابه على مشكل الآثار ومعاني الآثار (١) هي التي تعطي الباحث حكماً لا يقبل النقض وان كنا مقتنعين بشهادة عياض الخزمية .

ونواحي ابن رشد العلمية تحتاج في تحليلها الى جزء لطيف لا يتسع له المجال هنا ، غير اننا نقول ان اهم علم استفاد منه كثيراً هو الفقه المالكي الذي اشتهرت فيه انظاره الخاصة وتفريعاته المنوطة بكل احكام واتقان ، تلك الانظار التي ساعد على انتشارها في الاوساط العلمية بمراكش والاندلس ما كان يتمتع به ابن رشد من المسكنة الخاصة والحظوة الممتازة عند أمير المسلمين (علي) ، تلك المسكنة التي قلما يصل اليها فقيه في بلاط امير . ولا غرو ان الحضرة المراكشية استفادت من وجود ابن رشد في وسطها العلمي ، وجوها الجامعي ، حيث اغتنم نبغاء الحمراء فرصة وجوده واجتهاده فارتووا من معينه بمعلومات كثيرة أدت الى اشتهاره بالتجديد في مراكش الحمراء ، كما اثبت ذلك المؤرخون .

(١) لما ذكر صاحب الجذوة البيان والتحصيل والمقدمات لاولئل المدونة وأثنى عليها حتى قال : وليس في مذهب مالك مثلهما قال : وله اختصار كتاب المبسوط واختصار كتابي أبي جعفر الطحاوي ، ولعل مراده بكتابي أبي جعفر مشكل الآثار ومعاني الآثار وكلاهما مفيد غير ان معاني الآثار اجل وأعظم لتقصيه الرواية واستنباط الاحكام وقد طبع بالهند كذلك في القطع الكبيرة هـ . قال صاحب الجذوة قال ابن سعادة سمعنا عليه بعضها واجاز لنا سائرهما .

ومن المعلوم ان لفظة مراکش لا تطلق في التاريخ القديم الا على قاعدة ابن تاشفين الجنوبية ، ثم اصطلح الكتاب في العهد الاخير على اطلاقها على مجموع القطر المغربي ، لانها كانت رمز عظمته ووحدته التي لا تتجراً ، فأصبح إطلاقها على عموم المغرب معتاداً في كتابات الشرقيين ، وخصوصاً في الجغرافية والتاريخ ، ثم اشتق بعد ذلك من حروفها لسائر اللغات السامية الاسم الاعم للجنس المغربي (مروك) كما هو معلوم .

ومن خصص ابن رشد الكبير بالتجديد في مراکش أبو السعادة ابن الاثير في كتابه جامع الاصول اذ نقل عنه « ومن المجدين بمراكش على رأس المائة الخامسة ابن رشد الكبير » مما تفتخر الجامعة اليوسفية بتخليده في ذكرها التأسيسية .

ولا ريب ان الحركة العلمية التي كان يذكيها ابن رشد في مراکش جعلت له اتصالاً وثيقاً بالشعب المراكشي النبيل لذلك كان فقهاء الحمراء يوجهون اليه ما استعصى عليهم من المشاكل الفقهية ، فيكشف لهم القناع عن وجهها ، ويبرزها لميدان الافتاء سالمة البرهان ، لا تكتنفها أوهام ، ولا يحوطها إبهام ، واليك بعض ما وجدته مبثوثاً في كتب الفقه مما وجه به السؤال من مراکش الحمراء لابن رشد ليكون كبرهاناً على دعوى شدة الاتصال الفقهية بين مراکش والاندلس :

ذكر السيد المهدي الوزاني في حواشيه على التحفة ما نصه : « وسئل ابن رشد من مراکش عن تعامل في ربع دينار فاكثر ، ثم اختلفا في

التقاضي « فقال البائع بقي ثمن الدينار ، وقال الآخر : دفعته مع جميع ثمن السلعة ، فتوجهت اليمين : هل تقع في المسجد الجامع ام لا ؟ فأجاب ابن رشد بما نصه : الذي بقي له اقل من ربع دينار لا يحلف في الجامع « فافتتح فقهاء الحراء بذلك الجواب الذي لا يتنافى مع التعليل المعقول للحلف في المسجد الجامع ، ولعل صاحب التحفة اعتبر ما افتي به ابن رشد فجعله كقاعدة عامة لمحل اليمين اذا توجهت في ربع دينار فاعلى حيث قال :

في ربع دينار فأعلى تقتضي ❀ في مسجد الجمع اليمين بالقضي
ولقد وجهت لابن رشد كذلك من مرا كش أسئلة شتى منها في ابواب اليمين - كما بالمصدر الاول - ما إذا باع انسان سلعة ، فقام عليه المشتري بعيب قيمته اقل من ربع دينار ، فزعم البائع انه بيّنه له ، وأنكر المتاع ان يكون قد اطلع على ذلك ، فاين تقع اليمين ؟ وهل يختلف الحكم في فوات السلعة وحضورها ؟ فأجاب رحمه الله تعالى : ان لا يمين في اقل من ربع دينار في المسجد ان فاتت السلعة ، وان كانت السلعة قائمة ولم تفت حلف في المسجد ، كاختلاف المتبايعين في ثمن السلعة في اقل من ربع دينار وهي قائمة يتحالفان في الجامع ، بخلاف ما اذا فاتت فلا يتحالفان فيه ، فذهب في الجواب عن الاولى مذهب القياس على اختلاف المتبايعين . على انه سئل كذلك من مرا كش عمن صرف ديناراً فزعم ان دراهمه ناقصة ، فقال دافعها ما أخذت مني الا كاملة اين يحلف ؟ فاجاب بقوله : يتعين ان تكون اليمين في المسجد الجامع لان الامر يؤول الى انتقاص جميع الدينار .

الى غير ذلك من اجوبته الموجزة التي تفي بالمقصود مع قياس او تعليل ،
لذلك بقيت موادها نافذة المفعول في المحاكم القضائية بالمغرب حتى الآن .
وهناك مسائل اخر مما وجه اليه منشورة في الدواوين الفقهية تتضمن
سلسلة اجوبته المعتمدة ، مما يبرهن تمام البرهنة على اتصاله بالحمراء ، واذا
علم اتصال مدينة انمات قبل ذلك العهد بالاندلس ، فيكون اتصال مراکش
احرويا ، سيما بعد ان أصبحت الاندلس تحت لواء مؤسس الحمراء .

ذلكم ابن رشد الفقيه الذي لم يقتصر فحسب على زعامة الفقه والتجديد
بمراكش ، بل كان كذلك زعيم الاستشارة الادارية والسياسية بالاندلس ،
حيث شد ركابه للحضرة العلية في مسائل ادارية رفعها الى امير المسلمين (عليه السلام) ،
فأجاب مطالبه التي كان من اهمها عزل الامير تميم عن ولاية الاندلس لعدم
حسن إدارته في تلك الولايات المتمدنة ، فساهم بذلك في الزعامة الادارية
في ذلك العهد ، بل تعدى حدود الادارة الى بحث احوال المعاهدين حيث
درس بوادهم على ضوء الفقه الاسلامي ، فاصدر فتواه بوجوب انجلائهم
عن التراب الاندلسي للمخالفات القانونية التي ارتكبوها بخيانة العهد ونكث
الميثاق مما استحقوا به العقوبة ، وقد نفذ امير المسلمين علي بن يوسف فتوى
ابن رشد ، فأصدر حكمه العادل من الحمراء بإجلاء المعاهدين عن الجزيرة ،
وإبعادهم الى صحراء مكناس ، فأبعدوا لتلك الصحاري ، وذهبوا الى
حيث يعلم الله (١) .

(١) قال في الحلل الموشية ص ٨٠ وكان توجه القاضي ابو الوليد بن رشد اليه لمراكش

وقد كانت لابن رشد الكبير مواقف خالدة في الذود عن المصالح
الاسلامية يحفظها له التاريخ المجيد ، ذلك التاريخ الذي كانت تملؤه الفضيلة ،
الى ان خترته المنية في سنة عشرين وخمائة بقرطبة طيب الله ثراه ، وخلد
في المحاسن ذكره .

ابو عمرو عثمان السلاجبي الفاسي

في ذلك العصر الذهبي الزاهر ، وفي تلك الايام العامرة التي قرنت
عظمتها بعظمة الجامعة اليوسفية ، اتجهت انظار الباحثين ممن لهم ميول فكرية
للحصول على وسام النجاح والتخريج ، الى جامعة المراتبين في القاعدة
الجنوبية ، فكان من اول من شد لها الرحال بقصد طلب العلم بين جدرانها
الفقيه المتفني ابو عمرو عثمان بن عبد الله القيسي السلاجبي الفاسي ، ذلك
الاستاذ الذي أخذ العلوم في أول نشأته على المربي الكبير ابن حرزهم ،
وعن ابي الحسن ابن خليل في مشيخته له ، ثم رحل الى بجاية قاصدا الديار
الشرقية فامتحن من لدن الوالي العام ببجاية حيث زجه في غيابات السجون
الى ان تمكن من الفرار ، ثم رجع الى فاس ولزم الفقيه ابا الحسن علي بن
احمد اللخمي المعروف بالاشبيلي وتفنى عليه في الارشاد ، غير ان طموحه
للمعالي جعله دائما يترقب السوانح ليرحل للعواصم العلمية بالشرق او الغرب ،
فاستقر به التفكير الى قصد عاصمة المثلثين ، لما يعلمه عنها من سمو الثقافي ،
في غرضين احدهما إخراج النصارى المعاهدين عن الاندلس بسبب ما صدر منهم من الاعانة
لابن رزمير واستدعائه حسبما تقدم قبل هذا ، والاخرى في عزل اخيه تميم .

والنهوض العلمي ، ثم أخذ عن اساتذتها الكرام ما كانت تطمح اليه نفسه ، فرجع الى فاس قرير العين بما اقتبسه من الكلية اليوسفية بالحضرة المراكشية حرسها الله ، ثم انتصب بعد ذلك في العاصمة الادريسية لتعليم العلم فنفع الله بعلومه حتى قال صاحب الجذوة في تحليته : منقذ اهل فاس من التجسيم . وله من الآثار الفكرية (البرهانية) وضعها لامرأة اندلسية ، ولعلها في العقائد السلفية .

وقد كان له ميل للتصوف والتزهد كما في التشوف ، ولعل صاحب الاعلام يطنب في ترجمته عند ما يصله بالترصيف .

وقد كان رقيق الطبع ، قوي الخيال ، ينظر من بعيد ، ويميل الى قرض الشعر ، وقد ذكر له صاحب الجذوة بيتين أنشأهما في اهل فاس ، وهما يظهران مقدار شاعريته التي لا تخرج عن شاعرية فقيه او متصوف ، وحيث اننا لم نعر له على غير البيتين اللذين نسبهما له صاحب الجذوة فقد ألبأتنا الضرورة لاثباتهما هنا على علاتهما حسبما ذكر في صحيفة ٢٩٠ حيث قال : وله يخاطب اهل :

خذوا ضماني ان لا تفلحوا ابدا ❀ ولو شربتم مداد الكتب بالصحف
انتم صغار كبار عند انفسكم ❀ هل يستوي من يقيس الذر بالصدف
وعلى هامش ذكر البيتين أقول : ان ما كان يذكره الفقيه العلامة
الحافظ الشيخ ابو شعيب الدكالي في مجالسه العلمية من ان قائل
البيتين هو الشيخ بابا السوداني أنشأهما وهو واقف على بغلته حين ودع

من مراکش في عهد الامير زيدان السعدي ، لا يستند على نقل صحيح ، حيث ان التاريخ أثبت البيتين في ترجمة عثمان القيسي من رجال المائة السادسة ، وانت عليم بعهد الشيخ بابا ومحنته ، اللهم الا اذا أنشدهما الشيخ بابا على تلك الحالة وجاش بهما صدره فلا أدري ، غير اني مع البحث التام فيما كتب حول الشيخ بابا ما وقفت على من نسبها اليه ، او ذكر إنشادهما في ترجمته .

والذي يهمني من هذه الترجمة هو ان صاحبها شد الرحلة لطلب العلم بمراكش في عهد المرابطين وتخرج في جامعها وتولى بعد ذلك الزعامة العلمية بفاس الى ان توفي بها سنة ستين وخمسمائة حيث دفن بباب الفتوح . وقد أوجز ابن القاضي ترجمته بقوله (عثمان بن عبد الله القيسي القرشي المعروف بالسلاجي ، يكنى أبا عمرو من بيت بني السلاجي ، كان اماما عالما محصلا امام اهل المغرب في علوم الاعتقادات الى ان قال : ورتبته كرتبة ابي المعالي في العلم ، وهو منقذ اهل فاس من التجسيم ، ثم قال في استعراض حياته العلمية : ودخل مراكش وأخذ عن اهلها ، ثم لازم مدينة فاس وزهد في الدنيا واهلها ، وانتصب لتعليم العلم فنفع الله به وبصالح دعائه) الى آخر ما ذكر .

ولعل القيسي هذا من اول الفاسيين (١) الذين قصدوا مراكش في

(١) قد يعد بعض الاساتذة هذه الترجمة نعمة جديدة من النغات التي لم تكن معتادة في بعض الاوساط العلمية ، سيما في العواصم التي تأبى التسليم بمبدأ وجود العلم في المغرب سوى من

ذلك العهد لطلب العلم في معاهدها التي ظلت مراتع خصبة يؤمها الطامحون ، فله تلك المعاهد ما ابهج محياها واطيب مثواها ، ففيها ما شئت من فضل عميم ، وعلم مكين ، ودين متين ، ازدهرت به أفاؤها ، وأورقت اغصانها ، فأينعت ثمارها ، وحن قطافها للواردين ، وكيف لا تكون كذلك ومؤسسها خطب له على الفئ منبر وثلاثمائة منبر ونيف في مملكته التي حددها صاحب الجذوة بانها تمتد من بجاية ، الى آخر بلاد السوس ، ومن سجلماسة ، الى جبل الذهب من بلاد السودان ، مع امتدادها الى الاندلس شرقا وغربا ، والى الجزائر الاصبانية مبروقة ومنورقة ويابسة ، أعظم بها مملكة ، وأعظم بجامعتها الخالدة ، والله يوتي ملكه من يشاء .

ابو القاسم بن الجدد - ٣-

لئن تحدث الكتاب والمتأدبون عن الادب والادباء في العواصم العلمية فللعاصمة الجنوبية بالمغرب الاقصى ان ترفع صوتها عاليا ، بالتحدث عن كتابها وادبائها الكبار الذين ساهموا بحظ وافر في حركتها الفكرية ، وتطوراتها الادبية ، منذ تألفت في سماء عزها الوحدة المرابطة ، ولها ان تخصص بالتحدث عن الادب فيها مثل الاديب البارع ، والشاعر المفلق ، ابي القاسم بن الجدد الاندلسي المعروف بالاحدب الذي جيء به لمرآكش

اكل فيها... مع انهم لو انصفوا التاريخ ، وتصفحوا كتبهم ، لأدركوا الحقيقة ، ولكن الحقائق مرة لا يتجرع مرارتها الا المنصفون ، وهم في مغربنا قليل ، وهذا أبو عمرو القاسي يرحل للجنوب ، كما رحل قبله ابو عمران الى القيروان .

الحمراء في أول ولاية أمير المسلمين ، وناصر الدين علي بن يوسف بن تاشفين ،
حيث رتب في ديوان الانشاء بالبلاط المرابطي ، مع الكتاب والادباء
الذين انتخبوا لتلك المهنة الشريفة ، والرتبة المكيّنة ، عند أمير المسلمين ،
فقام بمهمته أحسن قيام ، ثم انه زيادة على ما قام به في خدمة القصر المرابطي
من الاعمال الخالدة فقد أدى كذلك خدمة جليلة للعروبة بما خلده فيها من
الثرات الفاخر ، في فني المنظوم والمنثور الذين نهج فيهما ما تقتضيه الحياة
الاجتماعية في قاعدة المثلثين ، اذا فابو القاسم بن الجدهو ذلكم الكاتب
الضليع ، والعبقري البليغ ، الذي استطاع بمهارته ان يسلك طريقا بديعا في
نثره ، كسر في تعبيدها اغلال السجع المتكلف الذي شغف بارتكابه
كتاب الاندلس ، حيث كان لا يرتكب منه في رسائله الا ما جاءه عفواً ، ولم
يخشمه مشقة اقتناص الشوارد ، وقد أحرزت رسائله على مميزات خصوصية ،
ربما كان للبيئة الجنوبية في تلوينها اثر ، لذلك اكسبته مكانة خاصة عند
الكتاب ، ولا سيما الفتح بن خاقان الذي أعجب ببديع شعره ، ورقيق نثره ،
إعجابا كبيرا ، وقد أثبت في ترجمته جملة من رسائله البليغة التي اقتطفنا منها
في هذا المبحث ما دبحته يراعه في مراکش الحمراء ، على لسان أمير المسلمين
(علي) ، لما يبدو عليها من التشبع بالروح الدينية ، في تلك الاساليب الارشادية ،
التي تزداد قوة ومتانة في المراسيم الموجهة للغرناطيين والاشبيليين ،
وكذلك ما وجه لابن فاطمة ، وسقتصر من نثره على اثبات هذه الثلاثة ،
ونص الاول منها :

« كتابنا عصمكم الله بتقواه ، ويسركم لما يرضاه ، وجنبكم ما يسخطه
وينعاه من حضرة مراکش حرسها الله ، يوم الجمعة التاسع عشر من شهر
الصوم المعظم سنة سبع وخمسمائة ، وقد اتصل بنا انكم من مطالبة فلان
على اولكم ، وفي عنفوان عملكم ، وانه لا يعدم تشغيبا وتأليبا من قبلكم ،
فإلى متى تلحون في الطلب ، وتجدون في الغلب ، وتقرعون النبع بالغرب ، لقد
آن لجرتم في امره ان تطفى ، وللتأثرة بينكم ان تهدا ، ولذات بينكم ان
تنصلح ، ولوجوه المرشد قبلكم ان تتضح ، فاذا وصل اليكم خطابنا هذا
فاتركوا متابعة الهوى ، واسلكوا معه الطريقة المثلى ، ودعوا التنافس على
حطام الدنيا ، وليقبل كل واحد منكم على ما يعنيه ، ولا يشغل بما ينصبه
ويعنيه ، ولا بد لكل عمل من اجل ، ولكل ولاية من غاية ، ولن يسبق
شيء اناه ، واذا أراد الله امرا سناه ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ،
والله يعلم ، وانتم لا تعلمون ، وفقكم الله لما فيه صون اديانكم واعراضكم ،
وتسديد انحاءكم واغراضكم ، بمنه . »

ويزداد تجلي تلك الروح الارشادية ، في مرسوم الاشبيليين الذي
تأخر صدوره عن الاول بنحو خمس سنين ، مما يقوي ما أشرنا اليه آنفا من
تأثر أبي القاسم ابن الجد الاحدب بالبيئة المراكشية تأثراً بليغاً . ظهرت
عوامله في رسائله سيما في هذا المرسوم الموجه للاشبيليين الذي يعتبر كآثر
لكتابته في الحمراء ، يعبر على نثره الخاص المطبوع بطابعه الشخصي ، ونصه :
« كتب عن أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أيده الله ، الى أهل

إشبيلية : كتابنا هذا أبقاكم الله ، وعصمكم بتقواه ، ويسركم من الاتفاق والائتلاف ، الى ما يرضاه ، وجنبكم من اسباب الشقاق والخلاف ، ما يسخطه وينعاه ، كتبناه من حضرة مرا كش حرسها الله لست بقين من جمادى الاولى سنة اثنتى عشرة وخمسمائة وقد بلغنا ما تأكد بين أعيانكم من أسباب التباعد والتباين ، ودواعي التحاسد والتضاغن ، واتصال التباغض والتدابر ، وتمادى التقاطع والتهاجر ، وفي هذا على فقهاءكم وصلحاءكم مطعن بين ، ومغمز لا يرضاه مؤمن دين ، فهلا سمعوا في اصلاح ذات البين سعي الصالحين ، وجدوا في إبطال اعمال المفسدين ، وبذلوا في تأليف الاراء المختلفة وجمع الاهواء المفترقة جهد المجتهدين ، ورأينا والله الموفق للصواب ، ان نعذر اليكم بهذا الخطاب ، فإذا وصل اليكم وقرئ عليكم فاقمعوا الانفس الامارة بالسوء ، وارغبوا في السكون والهدوء ، ونكبوا عن طريق البغي الذميم المشنوء ، واحذروا دواعي الفتن ، وعواقب الاحن ، وما يجر داء الضمائر ، وفساد السرائر ، وعمي البصائر ، ووخيم المصائر ، واشفقوا على اديانكم واعراضكم ، وتوبوا الى الصلاح في جميع اغراضكم ، واخلصوا السمع والطاعة لوالى أموركم ، وخليفتنا في تدبيركم وسياسة جمهوركم ، اخينا الكريم علينا أبي اسحاق ابراهيم أبقاه الله وأدام عزه بتقواه ، واعلموا ان يده فيكم كيدنا ، ومشهده كشهدنا فققوا عند ما يحضكم عليه ويدعوكم اليه ، ولا تختلفوا في أمر من الامور لديه ، وانقادوا اسلس انقياد لحكمه وعزمه ،

ولا تقيموا على ثبج عناد بين حده ورسمه ، والله تعالى يفيء بكم الى الحسنى ،
وييسركم الى ما فيه صلاح الدين والدنيا ، بقدرته .

وهذا النموذج مما أثبتته الفتح بن خاقان في الترجمة الحافلة التي عقدها
له بقوله : « راضع ثدي المعالي ، المتواضع العالي ، آية الاعجاز ، في الصدور
والاعجاز ، الذي جمع طبع العراق وصنعة الحجاز ، وأقطع استعارته جانبي
الحقيقة والمجاز ، فأبداهما شمسا ، وأهداهما لاجساد معانيه نفسا ، اذا كتب
ملاء المهارق بيانا ، وأرى السحر عيانا ، وله أدب لو تصور شخصا ، لكان
بالقلوب مختصا ، ولو كان نوراً ، لكان له السماك نجدا والمجرة غورا ، الى
الاتسام بالوقار والحلم ، والافتنان في انواع العلم » ، الى ان قال : « الى
ان استدعاه أمير المسلمين فأجاب ، بحكم الطاعة وأتاب ، وأراه الغناء
المستعظم والمثاب ، فكتب بكتب تهزم الكتاب باغراضها ، وتروي العيون
بإيماضها ، وقد أثبتت من نثره البارع ، ونظمه العذب المسارع ، ما هو
افتن للاسماع ، من مطرب السماع ، وألذ في الالباب ، من مناجات
الاحباب » ، وقد سبقت لنا كلمة موجزة عن حياة أبي القاسم أدرجنا فيها
من نثره ما يعد في الفن آية ، ويدل على الدربة والدراية ، مما تستعذبه الاسماع ،
وترق لعذوبة الفاظه الطباع ، سيما تلك المراسم العلوية ، الصادرة عن
النفوس الزكية ، بالزام الرعية الهدوء والسكينة ، وقد قرعنا النبع بالنبع ،
والتزمناها هنا طريقة السجع ، استنشاقا لا ريح زهر النفع ، ومجازاة لما
التزمه في التراجم الفتح ، وان كنا لا نستعذب الالتزام ، ولا نتجشم تكلفه

في البدء والختام ، مع امتطائنا صهوة جواده الذلول ، وتمكنا من جداوله في التجود والسهول ، لان نجمه قد شرع في السقوط ، ولسان ميزانه بعد الصعود في الهبوط ، أفل عن سماء العصر كوكبه ، وسمج في لسان الاقلام ارتكابه ، وأنا أقدم الاعتذار ، حيث ارتكبت منه ما سبق بمقدار (١) .

(١) إن الذي حملني على اتباع طريقة السجع هنا هو ما وقع لي مع بعض سادتنا الفقهاء الذين ابتلينا في هذه الديار بزمرة وافرة من نوعهم الذي يظن بنفسه ظنوناً بعيدة في الفقه والآداب وعلوم الاوائل والاواخر ولا تنس علوم الحنك كما يقولون ...؟ انه وجد بين يدي كتاب قلائد العقيان للفتح ابن خاقان فتناوله الاستاذ ... ويعلم الله ما أصابه حين قرأ من إسطره كلمات ما فهمها ولا فهمت عنه ما قرأ سوى همهمة يرددها لسانه ولما رأيت موقف الاستاذ أردت تخفيف الوطأة عنه فيما جرى فقلت له : أيها الاستاذ ان زمن التسجيع والتفقيه قد مضى ورجع الناس في هذا العصر الى طريقة بغداد والحجاز في صناعة الكتابة فاذا بالشيخ او الفقيه او سمه ما شئت يهملهم ويزجر ويزبد ويرعد ويقول في تأثر وانفعال محققاً بصره بصفة جاحظية مخيفة ان العقول قد عجزت عن السجع ، فلذلك أصبح الناس ينكرون منه ما هم عنه عاجزون بلا فهم ولا تدبر ، غير ان حضرة الشيخ أملى علي هذه المحاضرة بفصاحة باقلية ، ولغة بابلية ، طلعتها : « أأأ الناس اطمست حتى ما بقت تعرف حتى شيء ، لا من السجع ولا من غير ... » فقلت له صحيح ، وما أعظمها مصيبة أصابت هذه الامة في الصميم ، حتى تجرباً الناس على القول في مثل هذا ، وتلوت معه لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، ثم خرج الشيخ منصرفاً ، فشيعته مودعاً ، ولعل القارئ يدرك سر هذه القصة التي تعد من المضحكات المبكيات ، اما ما يضحك فهو ... واما ما يبكي منها ويدي القلوب فهو انتصاب مثل هذا الفقيه للتدريس او التدليس في المعاهد الدينية ، مما أمات الروح العلمية ، وأذاق التعليم طعم المتون حتى أصبح عقيماً ، لا ينهض بالتأنيث المطلوبة من التعليم الديني ، وان كان مثله لا يخلو منه زمان ولا مكان ، ويرحم الله الحسين بن سعد بن الحسين الآمدي — من رجال المائة الخامسة — حيث قال :

تصدر للتدريس كل مهوس ✽ بليد تسمى بالفقيه المدرس

واليك من افانين شعره ، ما أثبتته ابن خاقان في ذكره ، حيث رصع منه في القلائد ، ما فاق الدر في جيد الحرائد :

لئن راق مرأى للحسان ومسمع ❀ فحسنأوك الغراء ابهى وامتع
عروس جلاها مطلع الفكر فأنثنت ❀ اليها النجوم الزاهرات تطلع
زفقت بها بكرًا توضع طيبها ❀ وما طيبها الا الثناء الموضع
لها من طراز الحسن وشي مهلل ❀ ومن صنعة الاحسان تاج مرصع
فهذه القطعة المرفهة تنبئك عن مقدار شاعرية أبي القاسم بن
الجد ، تلك الشاعرية التي تسلب الالباب بسحرها الحلال ورشاقها
الاخاذه التي يتجلى لطفها في جلاء العروس ، وزفاف البكر ، وتوضع
الطيب ، الى طراز الحسن ، وترصيع التيجان بتلك اللثالي الدقيقة ، ولولا
خشية التطويل لا درجنا هنا بقية نتفه الرشيقه ، غير اننا نختم ترجمته
بمرسوم علوي تظهر على صفحات وجهه الروح الدينية التي تشبع بها
أبو القاسم في مراكش الحمراء ، وقت تروده على معاهدها الغناء ، كما

فحق لاهل العلم ان يمتلوا ❀ بيت قديم شاع في كل مجلس

لقد هزلت حتى بدا من هزالها ❀ كلاها وحتى سامها كل مفلس

ولعل الفقيه المناظر ، اذا وقف على هذه الاسطر ، يتذكر المثل العربي « اياك اعني واسمعي يا جاره » فيتعظ بذلك ويرجع على نفسه باللائمة ان كان ممن يتنبه بالاشارة . . .
أرشدنا الله واياه الى سواء السبيل ، ووفق الهيئة العاملة في المعاهد الدينية الى ما فيه مصلحة
البلاد والعباد ، والله الموفق للصواب ، واليه المرجع والمآب ، والرجاء من الفقيه ان لا
ينسى ان اسمه سيقى سرا مكتوما الى ما شاء الله .

في القلائد: « عن اذن امير المسلمين وناصر الدين - كتابنا أطال الله في طاعته عمرك، وأعز بتقواه قدرك، وشد فيما تولاه أزرك، وعضد بالتوفيق والتسديد امرك، من حضرة مراکش حرسها الله وقد رأينا والله ولي التوفيق، والهادي الى سواء الطريق، ان نجد عهدنا الى عمالنا عصمهم الله بالتزام احكام الحق، واثير أسباب الرفق، لما نرجوه في ذلك من الصلاح الشامل، والخير العاجل والآجل، والله تعالى ييسرنا لما يرضيه من قول وعمل، بمنه، وأنت أعزك الله ممن يستغني بإشارة التذكرة، ويكتفي بلحمة التبصرة، لما تأوي اليه من السياسة والتجربة، فاتخذ الحق إمامك، ومملك يده زمامك، وأجر عليه في القوي والضعيف أحكامك، وارفع لدعوة المظلوم حجابك، ولا تسد في وجه المضطهد المهضوم بابك، ووطء للرعية حاطها الله أكنافك، وابذل لها انصافك، واستعمل عليها من يرفق بها ويعدل فيها، واطرح كل ما يحيف عليها ويؤذيها، ومن سبب عليها من عمالك زيادة، أو خرق في أمرها عادة، أو غير رسما، أو بدل حكما، أو أخذ لنفسه منها درهما ظلما، فاعزله عن عمله، وعاقبه في بدنه والزمه ردما أخذ متعديا الى أهله، وأجعله نكالا لغيره، حتى لا يقدم منهم أحد على مثل فعله إن شاء الله تعالى، وهو ولي تسديد يدك، والمليء بعضدك وتأبيدك، لا إله غيره، ولا خير الا خيره ».

فهذه المراسيم الثلاثة، على اختلاف ضروبها، وتنوع مقاصدها، تبدو متشابهة في أسلوبها الديني، ومأخذها الارشادي، في غير تزمّت ولا

ليونة ، ويزداد تحفظها الديني ، في سطور هذا المرسوم الذي يحض فيه أمير المسلمين على احترام القوانين المrabطية التي تفرضها الدولة على المستظلمين بعرشها المجيد ، في دائرة العدل الاسلامي ، والاخلاق الفاضلة ، وقد نثرت مكنونه يراعة أبي القاسم بن الجد الذي اكتسب هذه الاخلاق الدينية ، والروح الفاضلة بين المعاهد الدينية ، كما اكسب الثقافة المراكشية ، من مواهبه الادبية ، حظا وافرا في ذلك العصر الذهبي الزاهر ، وذلك أهم ما يلفت نظر الباحث من هذه الترجمة .

ابو بكر بن القيصرية الاندلسي

(٤)

وممن حلّى به كذلك جيد الديوان الانشائي في عاصمة الملمثين ، الكاتب البليغ ، والعبقري المجيد ، ذو الفصاحة والبلاغة ، ورب البراعة والبراعة ، أبو بكر بن القيصرية الاندلسي ، نزيل الحمراء ، وحامل لواء الفنون الادبية في محيطها العلمي ، منذ استوطن ربوعها المخصب ، وقد كان غرة في جبين بلاطها العامر ، بما أبدعه من الاساليب الانشائية في مكاتبه التي تهزم الكتائب ، وتخر لروعها الاذقان ، سيما ما دبجته أنامله من المراسيم السلطانية التي تعد آية في الابداع والايجاز ، ونهاية في قوة التأثير ورقة الخيال ، حتى وسمه الفتح بذي الوزارتين موجزاً ترجمته الحافلة بقوله : « غرة في جبين الملك ، ودرة لا تصلح إلا لذلك السلك ، باهت به الايام ، وتاهت في يمينه الاقلام ؛ واشتملت عليه الدول اشتمال الكمام على النور ، وانسربت

اليه الاماني السراب الماء إلى الغور ، وأتت الدولة اليوسفية ففازت به قداحها ، وأورى زنده اقتداحها ، فقال فيها ما شاء ، وأقال من عثاره الانشاء » ، إلى أن قال : « وقد أثبتت في هذا التصنيف ، من كلامه العالي المنيف ، ما تتخذه سميرا ، وتجعله على الكلام أميراً » ولعل في تحليل هذه الفقرات ما يشفي غلالة اليب في بيان رتبة ابن القيصرة بين الكتاب ، ومكانته الادبية بين أرباب الاقلام ، فهي ، على إيجازها ، وافية بالمرام ، مفصحة عن الروح السامية التي اتصف بها ذلكم الكاتب البليغ الذي سأقتطف من رقيق نثره ، بعض ما أجادته يراعت في مرا كش الحمراء ، على لسان أميرها العظيم ، ومؤسس نهضتها الكريم ، علي بن يوسف بن تاشفين ، خصوصا هذين المرسومين اللذين خاطب باحدهما أهل مكناسة الزيتون ، وبالاخر فرقة مبتدعة أبهم التاريخ موقعها ، ونص الاول :

عن أذن أمير المسلمين ، وناصر الدين ، علي بن يوسف بن تاشفين ، إلى أهل مكناسة ، أما بعد أصلح الله من أعمالكم ما اختل ، وأصح من وجوء صلاحكم ما اعتل ، فقد بلغنا ما أنتم بسبيله من التقاطع والتدابر ، وما ركبتهم رءوسكم فيه من التنازع والتهاتر ، قد استوى في ذلك عالمكم وجاهلكم ، وصار شرعا سواء فيه نبيكم وخاملكم ، لا تأتمرون رشداً ، ولا تطيعون مرشداً ، ولا تاتون سدداً ، ولا تنجون مقصداً ، ولا تفلحون ان لم تنزعوا عن غوايتكم أبداً ، فلا يسوغ لنا أن نترككم فوضى ، وندعكم سدى ، ولا بدلنا من أخذ قناتكم بثقاف اما ان تستقيم واما ان تتشظى قصدا ، فتوبوا من ذنب التباغض

بينكم والتباين ، واعصوا شياطين التعاقد والتشاحن ، وكونوا على الخير
اعوانا ، وفي ذات الله اخوانا ، ولا تجعلوا للعقوبة عليكم يداً ولا سلطانا ،
واعلموا ان من نزع بينكم بشر ، ونفت في فتنه بضر ، وقام عندنا عليه الدليل ،
واتجه اليه السبيل ، أخرجناه عنكم ، وأبعدناه منكم ، فاتقوا الله وكونوا مع
الصادقين ، ولا تتولوا عن الموعدة وأنتم معرضون ، ولا تكونوا كالذين
قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ، وحسبنا هذا ، وبالله التوفيق .

ونص الثاني :

« عن أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أيده الله ، إلى طائفة معتدية : أما
بعد يا أمة لا تعقل رشدها ، ولا تجرى إلى ما تقتضيه نعم الله عندها ، ولا
تقلع عن أذى تفشيه قربا وبعداً جهدها ، فانكم لا ترعون لجار ولا لغيره
حرمة ، ولا ترقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، قد أعماكم عن مصالحكم
الاشر ، وأضلكم ضلالا بعيدا البطر ، ونبذتم المعروف وراء ظهوركم ،
وأيتم ما ينكر مقتديا في ذلك صغيركم بكبيركم وخاملكم بمشهوركم ، ليس
فيكم زاجر ، ولا منكم الاغوي فاجر ، وما نرى إلا أن الله عز وجل قد شاء
مسخكم ، وأراد نسخكم وفسخكم ، فسلط عليكم الشيطان يغركم ويغريكم ،
ويزين لكم قبائح معاصيكم ، وكأنكم به قد نكص على عقبيه عنكم ، وقال إني
بري منكم ، وترككم في صقفة خاسرة ، لا تستقيلونها إن لم تتوبوا في دنيا ولا
آخرة ، وحسبنا هذا عذراً لكم ، وإنذاراً قبلكم ، فتوبوا وأنبوا وأقلعوا
وانزعوا واقتضوا من انفسكم كل من وترتموه ، وانصفوا جميع من ظلمتموه

وغششتموه ، ولا تستطيّلوا على أحد بعد ، ولا يكن إلا أذاه صدر ولا ورد ، والا عاجلكم من عقوبتنا ، ما يجعلكم مثلاً سائراً ، وحديثاً غابراً ، فاتقوا الله في انفسكم وأهلكم ، وإياكم والاغترار فانه يورطكم فيما يردكم ، ويسوقكم الى ما يشمت بكم اعاديكم ، وكفى بهذا تبصرة وتذكرة ، ليست لكم بعدها حجة ولا معذرة ، ولا توفيق الا بالله تعالى .

وقد أثبت التاريخ لابن القيصرة رسائل بديعة تعجز عن بلاغتها الاذهان ، وتخر لبراعة اسلوبها الاذقان ، مما تتيه الحمراء بتخليده في ديوان الانشاء ، وتتلوا ان الفضل بيد الله يوتيهِ من يشاء :

ابو عبد الله بن ابي الحُصّال الغافقي (٥)

اذا تحدثنا في الترجمتين السابقتين عن الكاتبين العظمين - « أبي القاسم الاحدب » - « وأبي بكر ابن القيصرة » - فها نحن نعزز ذكرهما بثالث منيف ، ملأت اخباره الدواوين والصحف ، ممن شاركهما في مهنة الكتابة ، بالقصر المرباطي في مراكش الحمراء ، وكانت له في مهمته الانشائية ، مميزات شخصية ، رفعته بعد الجمول ، وفتحت زهر افئانه بعد الذبول ، حتى كان من أمره ما كان ، ذلكم الكاتب العبقرى الذي سأحدث عنه الآن ، هو ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن مسعود بن خالصة بن فرج بن مجاهد بن أبي الحُصّال الغافقى الشقورى الذى تألق نجمه في سماء الوجود ببلاد شقورة ، من كورة جيان ، بالجزيرة الاندلسية ،

حيث شب وترعرع في مهد الحضارة العربية ، وكون ثروته الفكرية بين حاضرتي الجزيرة قرطبة الزهراء ، وغرناطة الفيحاء ، حتى أصبح بدرا كاملا في أفق العلوم ، وبحرا لا تعبره المنشآت ، بل محيطا خطيرا لا تشق عبابه الجاريات ، قد ظهر في النباهة آية ، وفي الدراية غاية ونهاية ، تسربل في المعالي الى ان حليت بنجابه الاندية الادبية بمراكش الحمراء ، في أول المائة السادسة ، فكان سراجها الوهاج ، ومنارها اللامع الذي يمد النبوغ المراكشي بمواده الغزيرة ، ذلسم ابن أبي الحصال الغافقي الذي تحدث عن تعاظمه المؤرخون ، وتناول افنانه الادبية الباحثون ، فقد تناوله المحدثون ، كما تناوله الادباء والمؤرخون ، في مختلف العصور ، وقد خصصه تليذه ابن بشكوال في التحدث عن حياته الحافلة بما يستحق العناية والاعتبار ، كما تناوله ابن الزبير في صلة الصلة ، وتتبع مواقع الفضل منه في ترجمة ممتازة ، وذكره أبو القاسم الملاحي في كتابته ، وخصه سمي في الادب أبو الحسن علي بن بسام في كتابه الذخيرة بترجمة جمعت جل منظومه ومنشوره البديع ، وذكر مرسلته ابن خاقان في قلائده ، وجعله صاحب المعجب في عداد كتاب أمير المسلمين علي وأثنى على براعته ومكانته الادبية ، على أن أبا عمرو ابن الامام الاشعبي ترجمه في كتابه سمط الجمان ووصفه بـ « البحر الذي لا يجتاح ولا يشاطر ، والغيث الذي لا يساجل ولا يقاطر ، والروض الذي لا يفاح ولا يعاطر ، والطود الذي لا يزاحم ولا يخاطر ، الذي جمع اشبات المحاسن ، وورد من الفضائل على ماء غير ملح ولا آسن ، وكثرت

فواضله فأملت الفضائل والمحاسن ، الذي قصرت البلاغة عن محتده ، وألقيت أزمة الفصاحة في يده ، وتشرفت الخطابة والكتابة باعتزائهما اليه « إلى آخر ما عطر به تلك الشخصية البارزة ، وقد أم ابن الخطيب في إحاطته طريقة القوم فنسج على منوالهم في ترجمته التي جمع فيها اشتات مستظرفاته الادبية ، كما أوجز ابن القاضي في جذوة الاقتباس ترجمته بما يدل على نبل وذكاء .

وهكذا ظل ابن أبي الحवाल محل شبات الاقلام في جل الاعصار ، حيث أحرز على رضى المترجمين الذين غمروه بجل أوصاف المدح والثناء ، حتى وصفوه بالزهد والورع ، مما تستخلص من مجموعته حياة مليئة بالفضيلة لذلك العلم الشاخص ، واللودعي الماهر ، الذي استبحر في العلوم ، فكان في كل فن آية ، وتحدث الناس عنه بالرواية والدراية ، حيث اقتطف زهرات الفنون ، فمن حديث وتفسير ، إلى انساب وأخبار ، ومنها إلى لغة وأدب ، إلى غير ذلك من العلوم التي ضرب في مضمارها بشأو بعيد ، مما يحتاج الباحث في عرضه وتحليله إلى فصول وفصول ، لهذا سأخصص التحدث عنه هنا بالناحية الادبية التي كانت من أخص صفاته ، وأميز نعوته ، حيث تعالى بها شأنه ، واكتهل بدره ، حيث خلد من الثرات الفاخر في فني المنظوم والمنثور ما جعل مثالا يحتذى عند الادباء ، وسنثبت بعض مآثره ، بعد ذكر اتصاله بالقصر المرباطي في مراکش الحمراء .

قد أنبأنا صاحب المعجب عن كتابة ابن أبي الحवाल لأمير المسلمين

علي ، غير أنه لم يقص علينا كيفية انتقاله للحمراء ، واتصاله بشؤون الدولة المرابطة في ذلك العهد ، كما أنه لم يحدثنا عن السنة التي وقع فيها ذلك الاتصال ، حيث قال في كتابه : « ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الاندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك ، حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك ، كأبي القاسم بن الجد المعروف بالاحدب أحد رجال البلاغة ، وأبي بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرية ، وأبي عبد الله محمد ابن أبي الحصال ، وأخيه أبي مروان ، وأبي محمد عبد الحميد بن عبدون المذكور آنفا ، في جماعة يكثر ذكرهم ، وكان من انبهم عنده ، وأكبرهم مكانة لديه ، أبو عبد الله محمد ابن أبي الحصال وحق له ذلك ، إذ هو آخر الكتاب ، واحد من انتهى اليه علم الآداب ، وله مع ذلك في علم القرآن والحديث والاثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الارحب ، واليد الطولي » ، ثم أثبت من رسائله البديعة رسالة خاطب بها أبا الحسن علي ابن بسام صاحب الذخيرة الذي جمع في ذخيرته الادبية ما يشفي غلالة الادباء في فني المنظوم والمنثور لفحول الشعراء وفرسان الكتاب في ذلك العصر .

وقد ساعدتنا الظروف على تتبع ترجمة ابن أبي الحصال في الذخيرة حيث تصفحت أجزاءها الموجودة بالخزانة الكبرى بالرباط فوقفت في القسم الثالث صحيفة ١٦٢ تحت عدد ١٣٢٤ في حرف الدال من المخطوطات العربية على ذكر الكاتب أبي عبد الله بن أبي الحصال بهذه التحلية « أحد أعيان كتاب الزمان ، وحامل جملة الاحسان ، بحر معرفة لا تعبره السفن ،

ولو جرت بشهوتها الرياح ، وطود علم لا ترقى اليه الفطن ، ولو سماها
 الامساء والاصباح ، وأدب لا تعبر عنه اللسان ، ولو أمدتها الاوتار الفصاح ،
 إلى طول باع ، ورقة طباع ، نجم بافقه من بلد شقوره فأسكت القائلين ،
 واستوفى غايات المحسنين ، وهو اليوم بحيث لا تشير الاصابع الا اليه ،
 ولا تنطوي الاضالع إلا عليه ، وله بيان لا يتعاطاه ناظم ولا ناثر ، وإحسان
 لا يبلغ مداه أول ولا آخر ، وقد أثبتت من كلامه ما نقلت من خطه الذي
 خاطبني به ، ما يدل على نبه وأدبه ، وهذا فصل من نثره كنت انفردت
 لتحرير هذه النسخة من هذا المجموع في شهور سنة ثلاث وخمسمائة ، فلما
 انتهيت إلى نقل ما كان وقع إلي من ترسيل كتاب الجانب الشرقي من
 الاندلس لم أقع لهذا الرجل على كلام ، في ثار ولا نظام ، فكاتبه بعض
 الاخوان في ذلك ، ونشطني ايضا على مخاطبته هنالك ، فوردت عليه الرقعتان
 وهو مجتاز على حضرة إشبيلية في جملة أهل العسكر ، فراجعته في كتاب
 طويل قال فيه في بعض الفصول : « الحذر أعزك الله يؤتي من الثقة ،
 والجيب يوتي من المقه » إلى آخر ما حبر .

وقد أسهب في ذلك ايما إسهاب سيما ما يخص آثاره الادبية ، غير أنه
 ابهم الناحية التي كان يحتاز اليها ابن أبي الحصال في مروره على إشبيلية ، كما
 أبهم اسم صديقه الذي خاطبه ابن أبي الحصال بتلك الرسالة ، واليك بيان ما
 أبهم تفصيله ابن بسام ، كما أفصح عنه الفتح بن خاقان حيث قال : « وكتبت
 اليه عند ما وصل أمير المسلمين ، وناصر الدين ، إلى إشبيلية صادرا عن غزوة

طلبيرة سنة ثلاث وخمسمائة ووصل في جملة، ونزل بمحلته، واتفق لي شغل توالى واتصل، إلى أن رحل أمير المسلمين أيده الله وانفصل، فسألت عنه فأعلمت أنه صار معه، وما فارق مجتمعه، فكتبت إليه مستدعيا من كلامه ما أثبتت في هذا الديوان، وأنبئته فيه زهر بستان، فوافاه رسولي من البلد على مرحلة، في ليلة من ضياء البدر محله، فكتب إلي مراجعا: الحذر أعزك الله يوتي من الثقة، والجيب يؤذي من المقة، وقد كنت أرضى من ودك وهو الصحيح بلحة، وأقع من ثنائك وهو المسك بنفحة، فما زلت تعرضني للامتحان، وتطالبني بالبرهان، وتأخذني بالبيان، « إلى آخر الكتاب البليغ الذي أفصح عن مسمى الصديق في كلام ابن بسام وهو الفتح بن خاقان الذي أفادنا كذلك بالجهة التي قصدها ابن أبي الحصال وهي مراکش الحمراء. وقد أثبت ابن الخطيب في كتابه الاحاطة من منشوره رسالة مطولة أدرجها بعد مقدمة هذه الكلمات » وكتابة ذي الوزارتين كالشمس شهيرة، والقطر كثيرة، ونحن نثبت شيئا من ذلك ليلا يخلو هذا الكتاب من شيء من بدائعه » انظر صحيفة ٢٦٦ من الجزء الثاني من الاحاطة طبع الموسوعات المصرية تجد بها كتابه الموجه إلى الوزير أبي بكر بن عبد العزيز المفتتح بـ « أطال الله بقاء ولي الذي له إكباري وإعظامي، وفي سلكه انتساقى وانتظامي ».

كما أثبت صاحب المعجب من نثره البديع الرسالة التي خاطب بها ابن بسام صاحب الذخيرة تلك الرسالة التي من فصولها: « وصل من السيد

المسترق ، والملك المستحق ، وصل الله إنعامه لديه ، كما قصر الفضل عليه ، كتابه البليغ ، واستدراجه المريع ، فلولا أن يصلد زند اقتداحه ، ويرقد طرف افتتاحه ، وتنقبض يد انبساطه » إلى آخر ما سطر في صحيفة ٩٧ من طبعة الجمالية بمصر ، وهذا كل ما أمكننا الوقوف عليه من نثر ابن أبي الخصال .

على أن له رسائل كثيرة كتبها من مراکش الحمراء على لسان أمير المسلمين علي بن يوسف ، وقد أشار إليها بعض المؤرخين غير أن الظروف لم تساعدنا على الوقوف عليها ، غير أن من أهمها ما أرسل لاهل بلنسية كتوبيخ لهم في شأن تحاذل قوتهم أمام - رذمير - في الواقعة المشهورة ، تلك الرسالة التي أحرزت على إعجاب الاندلسيين ، وقد قال في شأنها صاحب المعجب : « فكتب أبو عبد الله رسالته المشهورة في ذلك وهي رسالة كاذ أهل الاندلس قاطبة أن يحفظوها ، أحسن فيها ما شاء منغني من إيرادها ما فيها من الطول . . » ويا ليته أثبتها في تاريخه ليستفيد المغاربة من فصولها ، مثل ما استفاد الاندلسيون من فواصلها .

ولم يزل أبو عبد الله ابن أبي الخصال كاتباً في البلاط المرابطي بمراكش الحمراء إلى أن آخر أمير المسلمين أخاه أبا مروان عن الكتابة في ديوانه ، لموجدة سببها بعض هفوات أبي مروان في مكاتبه ، وقد وافاه أجله بعد تنحيته عن الكتابة بمراكش ودفن بها ، ولعل أخاه أبا عبد الله رأى من بوادر الاحوال ما يلح بتكرها له كذلك ، فاستغنى من الكتابة في الديوان

المرابطي فقبل إعفاؤه ، ثم رجع إلى قرطبة فاستوطنها حتى استشهد في داره
 أول الفتنة القائمة على المرابطين في قرطبة يوم السبت الثاني عشر من شهر
 ذي الحجة سنة أربعين وخمسمائة ، فحمل إلى الربض الشرقي بحومة العرب
 ففصل هنالك ودفن بمقبرة ابن عباس عصر يوم الأحد في يوم عصيب
 اندلع فيه لهيب الفتنة اندلاعا كاد يقضي على اليابس والاخضر . . .

ولعل في هذه النبذة التاريخية من حياة ابن أبي الحصال ما يزيح الستار
 عن شخصية نبيلة من الشخصيات الخالدة التي أمدت النبوغ المراكشي
 بمعارفها نحو ثلاثين سنة حتى أمكن تسجيلها في عداد رجال الحمراء الذين
 مهدوا السبيل امام الحضارة العربية ، بأطراف المملكة المرابطية ،
 وها نحن نختم ترجمة ذلك الكاتب البليغ ، والشاعر الممتاز ببعض مقطعاته
 الشعرية التي تدل على سلامه ذوقه ، فمن ذلك ما جادت به قريحته الوقادة
 من مراكش الحمراء ، يتشوق فيه إلى قرطبة الزهراء ، وهو تخميس أرق
 من النسيم ، واعذب من الزلال المعين :

بدت لهم بالغور والشمل جامع ❀ بروق باعلام العذيب لوامع
 فباحث بأسرار الضمير المدامع ❀ ورب غرام لم تنله المسامع
 ودام بها من فيضها المتصوب

ولم يشر صاحب الجذوة إلى تخميسها حيث روى منها بيتين بلفظ :
 أثمرت لهم بالغور والشمل جامع ❀ بروقا باعلام العذيب لوامع
 البيتين .

ومن رقيق شعره ما أنشده في مغن زاره بعد طول مدة شط فيها
إليه المزار وهي :

وافى وقد عظمت علي ذنوبه ❀ في غيبة قبحت بها آثاره
فحما إساءته بها إحسانه ❀ واستغفرت لذنوبه أوتاره
ولا يحتاج استغفار الأوتار ، إلى لفت الانظار ، لأن الذوق الادبي
يدرك منه موقع الاستحسان ، بخلاف استغفار الأنوار ، كما في رواية صاحب
الاحاطة « واستغفرت لذنوبه أنواره » لأنه مع سلامة القافية ، لا يناسب
ذوق ابن أبي الخصال ورقة شعوره التي تحرك الأوتار ، وتستوجب الاستغفار ،
من شط المزار ، سيما وهو ليس ممن ولع كثيرا بتكرار الأنوار . . . ؟
وله يعتذر على استبطاء المكاتب ، التي تعظم بانقطاعها ونائبها
الخطوب والنواب :

ألم تعلموا والقلب رهن لديكم ❀ يخبركم عني بمضمره بعدي
ولو قلبتني الحادثات مكانكم ❀ لأنهيها وفرى وأوطأها خدي
ألم تعلموا اني وأهلي وواحد ❀ فداء ولا أرضى بتفدية وحدي
وله غير ذلك من النتف الساحرة ، والتآليف الباهرة ، ما يدل على
رقعة طبع ، وغزارة علم ، وجودة اسلوب ، حتى أن رسائله البديعة صارت
بذكرها الركبان ، وأصبحت مثالا فنيا يحتذى في زخرفة الالفاظ ،
وتسجيع القواصل ، مع امتيازها عن الادب الاندلسي بالاطناب ، والتفنن
في البديع ، واستجلاب الاوابد والشوارد ، مما يصحح النظرية القائلة بانها

نوع من ادب القرون الوسطى ، المنطوي على فلسفة وحكمة ، ومن يوتي
الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً :

الامير أبو اسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين (٦)

اذا تحدثت قبل عن منقذ دولة الاسلام بالاندلس في المائة الخامسة
أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وتحدثت كذلك عن مؤسس النهضة
المراكشية ، وواضع السكينة اليوسفية ، أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين ،
فها أنا الآن أتحدث للقراء الكرام عن منقذ دولة الادب بالاندلس في
المائة السادسة الامير الخطير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين
الصنهاجي المراكشي ، ذلكم الامير اللوذعي الذي تألق نجمه بأفق الحمراء
أواخر المائة الخامسة في ولاية عهد أخيه ، وقد غني أمير المسلمين يوسف
ابن تاشفين بتربيته وثقافته عناية خاصة استطاع بها أن يكون له ميولا
فكرية ، ونظريات خاصة في احضان أبيه ، ثم اعتنى به بعد ذلك صنوه
الكريم أمير المسلمين أبو الحسن علي ، لما يلاحظ عليه من النجابة والنبوغ ،
حتى حصل على ثقافة عالية ، تخصص فيها بالناحية الادبية التي أصبح فيها
أديب الامراء ، وأمير الادباء ، ولا غرو من بلوغه ذلك وقد شب في
الايام العلمية ، التي كان يتخلل انديتها الادبية حتى وصل إلى تلك
التربية الراقية التي لا أقول عنها أكثر من أنها تربية أولاد الملوك ... ؟
لقد شب هذا النبيل وكون مجموعته العلمية في المعاهد الدينية بمراكش

الحمراء حيث واصل دروسه الادبية إلى النهاية التي كان يترقبها ، وهي الزعامة الادبية في المغرب والجزيرة ، فكان كما شاءت له نفسه زعيما عبقريا سمى بعبقريته الفنون الادبية التي جمع بها إلى غاية أخصبت فيها مرابعها بعد طول خمول كاد يندثر بسببه الادب من سماء الافكار كما يستنتج ذلك من وصف ابن خاقان للحياة الادبية التي كانت مشرفة على السقوط والانحلال بقوله : « فأصبح الادب قد دجت مطالعه ، وخوي طالعه ، ولما رأيت غنائه في يد الامتهان ، وميدانه قد عطل من الرهان ، وبواتره قد صدأت في اعمادها ، وشعله قد قذيت لرمادها ، تداركت منه الذماء الباقي ، وتلافيت له نفسا قد بلغت التراقي » ، إلى آخر ما ندب به الوحدة الادبية التي انتشل دوحتها من برائين الحدثان الامير الاجل أبو إسحاق المرابطي الذي اتجهت له انظار الفرسان ، وقصده فحول الشعراء وارباب الاقلام حتى التفت حوله كتلة أدبية نشيطة اتخذت مجالسه اندية رائعة لتبادل الافكار الادبية تمثل عكاظة ومحنة وذا المجاز من الاسواق العربية التي كانت تروج فيها بضائع الفنون الادبية مما استرجعت به دوحة الادب مجدها الغابر ، وعزها الدائر ، تحت لواء نواله ، وهتون انعامه ، حتى حفظ له التاريخ تلك المفخرة الكمالية التي ضمها إلى مفاخر آباءه الاولين ، وسأحلي ترجمته ببعض المقطعات الشعرية التي أجادتها قرائح الشعراء في مدحه ، بعد إثبات الترجمة الحافلة التي حبرها فيه صاحب القلائد ، لأنها تعبر أحسن تعبير على المكانة الخاصة التي كان يتمتع بها أبو إسحاق في الاوساط الادبية

التي فازت به قداحها ، واستنارت بشخصيته انديتها ، ونص ما دبحه الفتح
 « ولم يزل شخص الادب وهو متوار ، وزنده غير وار ، وجده عاثر ،
 ومنهجه داثر ، إلى أن أراد الله اعتلاء اسمه ، واحياء رسمه ، وإنارة أفقه ،
 وإعادة رونقه ، فبعث من الامير الاجل أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن
 تاشفين ملكا عليا ، غدا لبة المجد حليا ، وهمى على الامة وسميا ووليا ، ألبس
 الدنيا جمالا ، وجدد لاهلها آمالا ، ناهيك به من ملك عالي ، ناظم لاشات
 المعالي ، أصبح الدين منبسطا في نواحيه ، مغتبطا بمناحيه ، واليمُ فرقا من
 جوده ، مفترقا في أغواره ونجوده ، والبأس مزدهيا بمضائه ، مكثفيا
 بانتضائه ، والحزم مستبصراً بمنازعه ، مقتصرأ على اجازعه ، يحمي الحقيقة ،
 ويرمي إلى أغراض النعمان ابن الشقيقة ، لو جاوره كليب ما طرق حماه ،
 أو استجار به أحد من الدهر لحماه ، أو كان بحفر الهباءة ما انتضى قيس
 سيفه (١) ، ولا قضى وطرا من حمل وحذيفة ، أو كان بوادي الاخرم ،
 لطاف به ربيعة وأحرم ، أو استجده الكندي ما كسى الملاءة (٢) أو كان
 حاضر (٣) بسطام ما توسد على الآلاءة ، تهابه النفوس إذا رمقته أبصارها ،

(١) يشير الى وقعة يوم الهباءة المشهور وهو يوم الحفر لعبس على ذبيان وفيه قتل حذيفة
 ابن بدر واخوه حمل سيدا بني فزارة . — (٢) يشير الى الوقعة المشهورة بين بني سعد
 والرباب مع مدحج وهمدان وكندة وفيها اسر رئيس كندة وهتمه قيس بن عاصم فكنى عن
 هزيمته وفشله بلبس الملاءة الخاصة بالنساء . — (٣) لعله يشير الى قتل بسطام بن قيس في
 وقعة يوم نقا الحسن الذي التحم فيه بنو ثعلبة بن سعد بن ضبة مع بكر بن وائل وكان
 الفوز لبني ثعلبة وفيه قتل بسطام بن قيس قتله عاصم بن خليفة .

وتلجأ إليه الرياح إذا أرهقها إعصارها ، لو دعا الاسد الورد لأجاب ،
أو أوماً إلى الليل البهيم لانجاب ، او قعدت بين يديه الاطواد لتحرك
سكونها ، أو عصته الطير ما أوتها وكونها ، مع عفاف كف حتى عن
الطيب ، وحكى المحرمين بالحيف (١) ، وندى خرق العوائد ، وأورق عوده
في يد الرائد ، وسجيا تنجلي بها الظلماء ، كأن مزاجها عسل وماء ، ولما
أنارت به تلك الآفاق ، وعاد به كساد الفضل إلى النفاق ، رأيت ان
اخدم مجلسه العالي بزف الكتاب إليه ، وأشرف محاسنه بمثوله بين يديه ،
فوسمته باسمه ، وكسوته نور وسمه ، وجلبت العلق الى مميزه ، وأجريت الجواد
في ميدان محرزه ، وأطلعت شمس النبل في أفقها ، وأتيت ببضاعة الفضل إلى
منفقها ، والله ولي التوفيق فيما قصدت ، والسكافي من الخطأ في الذي سردت .
فهذا ما أجاده الفتح في طليعة قلائده التي زف مكنونها إلى الامير
أبي إسحاق ، وقد أبدع في بيان محاسنه إبداعاً تاماً حيث أتى بتلك الاساليب
الاندلسية الاخاذة ذات المعاني السامية ، والالفاظ البارعة ، التي تخيل في
وضعها كل معاني النبل والكمال من الصفات التي تحلى بها أبو إسحاق ،
فكانت ترجمته بذلك غنية عن التحليل والتعليق ، لأنها تفيد الواقف
عليها كل ما يحتاج إليه من الاسرار في اكتشاف حياة ابن يوسف الادبية ،

(١) الحيف في اطلاق الحجازين اليوم هو بستان به نخيل واشجار مختلفة ويطلق على مواطن
متعددة كحيف البثّة وخيف حسين وخيف منى الى غير ذلك من الاخفاف ويطلق اطلاقاً
لغويًا على كل هبوط وارتفاع في سفح الجبل او ما ارتفع عن مسيل الماء ، والله الموفق للصواب .

لهذا تقتصر عليها فيما أبدعه الكتاب، لننتقل الى ما لحنه الشعراء في مدحه، من ذلك القصيدة الحمسينية التي قدمها بين يديه الشاعر الماهر ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن احمد بن رحيم التي سنثبت في هذه الترجمة معظمها خدمة للعلم والادب ونصها:

سقى الله الحمى صوب الولي ❀ وحيًا بالأراكية كل حي
وان ذكر العقيق فباكرته ❀ سحائب معقبات بالروي
تروض مسقط العلمين سكبا ❀ وتلبسه جنى الزهر الجني
ولا بليت لمريسة برود ❀ مطرزة باشتات الحلي
ذكرت معاهدا أقوت وكانت ❀ أو اهل بالقرب وبالتصي

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

طلبت فما سقطت على خير ❀ يخبر عن ودود أو صفي
كما اني بحثت على كريم ❀ فما ألفت ذا خلق رضي
ولولا واحد لسددت عيني ❀ فلم تفتح على شخص سري
هو الملك المعظم من ملوك ❀ ينير بها سنا الافق السني
له همم تعالى كل حين ❀ يفوق بها ذرى النجم العلي
وحسن خلائق رقت فجاءت ❀ كما هب النسيم مع العشي
مصون العرض مبذول العطايا ❀ ندي الترب مبرور الندي
جواد جوده ان سيل سيل ❀ ويأتي عرفه مثل الاتي
يمد إلى العفاة يمين يمين ❀ تلين قسوة الدهر الابي

تحلى ملكه بحلى نهاه ❁ كما ازدان المقلد بالحلي
 تدار عليه اكواب المعالي ❁ فتأخذ من هزبر أريحي
 يطارد بالضحي خيل الاعادي ❁ ويأوي كل وفد بالعشي
 « لآبراهيم » عند الله سر ❁ يدق علا على النظر الحفي
 يرى غيب الامور إذا ادهمت ❁ بعين الرأي والفكر البدي
 ويوضح كل مشكلة فيرمي ❁ بها فيصيب شاكلة الرمي
 درت صنهاجة ولها علاها ❁ بأن علاه مفتخر الندي
 وتعلم أنه السيف المحلى ❁ لدفع الخطب او قرع الكمي
 وكم من سيد فيهم ولكن ❁ أتى الوادي فطم على القري
 ايايث الحروب ومن تردى ❁ رداء الفضل والخلق الرضي
 لقد أصبحت روح العدل حقا ❁ واسود مقلة الملك الحفي
 سواك يريح من وخذ المطي ❁ ويقصر عن مدى الامل القصي
 وأنت تصادم العلياء لما ❁ غدت مرقى لكل فتى علي
 تصادر كل معضلة كؤود ❁ متى هجمت بصدر السمهوري
 وتكشف كل غمء بهدي ❁ حكى هدي النبي الهاشمي
 أبا إسحاق يا ابن أمير ملك ❁ يقصر عنه ملك التبمي
 « ليوسف » مفخر يروى ويتلى ❁ كما يتلى الحديث عن النبي
 ركبت مناهج التقوى ففاقت ❁ امورك كل امر معتلي
 وسرت بسيرة العمرين عدلا ❁ ولم تقعد مضاء عن علي

ايا ملك الملوك لديّ قول ❀ فوطى لي على كنف وطي
وحسن فضل اخلاق كرام ❀ اذا حيّت فعن مسك ذكي
لك الفضل الذي أوليتنيه ❀ فأشكره ولي حق الولي

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

وليت قلوبنا شقت فتدري ❀ بها فضل الخئون من الوفي
ويهنى المجد غزو نلت فيه ❀ جسيم الاجر بالسعي الزكي
كلامي قاده ودي فأهدى ❀ اليك قصيدة مثل الهدي
فخذها كالعروس تفوت طبعاً ❀ وياويل الشجي من الخلي
وله فيه من قصيدته الميمية التي هنأ فيها ببعض الاعياد :

تدبير ملكك بالتأييد مفتتح ❀ ما لم يكن هكذا ملك فمذموم
قسطت عدلك بين الناس فاعتدلوا ❀ ولهمالك تقسيط وتقسيم
لله فضلك ما يلقاك مكتب ❀ إلا اثني وهو مسرور ومعصوم
قضى الاله وجوداً منك يغمرنا ❀ لان مالك بين الناس مقسوم
لما سريت إلى حمص وقد ظمئت ❀ أسرى اليها سحاب منك مركوم

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

قيدتني باياد منك طائلة ❀ شتى فمنهن مجهول ومعلوم
كم منة لك عندي لا ينوء بها ❀ شكري على أنه بالمسك مختوم
من لي بذلك ولو وافتك تنجدي ❀ السبعة الشهب والسبع الاقاليم (١)

(١) يقصد بالسبعة الشهب المجموعة الشمسية المركبة من أشهر الكواكب المتحركة ذات

يحف بي منك إعلاء وتكرمة ❀ بر بمنطقة الجوزاء محزوم
إلى آخر القصيدة وهي والتي قبلها بعض ما قيل في الأمير أبي إسحاق
إبراهيم بن يوسف الذي ولع بالادب إلى درجة الاغراق مع كل عفاف
وكرامة شأن النبلاء الذين امتزجت ارواحهم بالاساليب الادبية البليغة
فاحتفظوا بكرامتهم الشخصية .

غير انه مع كل ذلك لم يخلف ثراثا أدبيا أو لم نعثر له على ذلك لا من
منظوم ولا من منشور مع شدة بحثنا عن ذلك لنسجله في ترجمته كمثال لمنتوجاته
الفكرية وان كان هذا الامر لا يعتبر نقصا في حياته الادبية حيث سجل
التاريخ في صحفه الخالدة انه كان من أقوى العناصر الفعالة في انتعاش الادب
بأرجاء المملكة المرابطية كما استنتجنا ذلك من المقدمات التي اعتمدناها في
استخراج هذه الترجمة التي سأضيف اليها من ناحيته الادارية حقائق اخرى
ثابتة ليس من اللائق إغفالها في ترجمته سيما وهي تخص الحياة التي كان
يحيها في ولايته الاندلسية كي لا يظن الواقف على ترجمته انه كان أديبا
فحسب يعيش كما يعيش الادباء ويهيم في بحر الخيال كما يهيمون لا يعبا
بالشئون الادارية التي يستصعبها الادباء عادة في كل عصر .

الافلاك الدائرة ، والسبع الاقاليم هي في التقسيم القديم يراد منها ما يعادل التقسيم الجديدة غير
ان المؤرخين اختلفوا في تحديدها فمن قائل ان الاقاليم في الشمال دون الجنوب لانه الآهل
بالسكان والعمران وتختصر فيما بين خط الاستواء والقطب الشمالي وهناك من يقول ان في
الجنوب اقاليم ، على ان اصطلاح الجمهور والجاري على الالسنه ان كل موضع اشتمل على
مدن وقرى يطلق عليه اقليم ، ولا يقصد بالاقاليم الغارات الخمس بالتحديد .

وبياناً لهذه الحقيقة أنه القراء الكرام إلى أن أبا إسحاق المرابطي كان يعيش كما يعيش العاقرة المتازون حيث أنه يشعر في كل بيئة بما يشعر بناؤها الافداد يرأس الكتائب في الوغى ، ويسامر الادباء في الدجى وقد تنبئك أحواله الادارية التي تولى في جوها خوض غمار الحروب انه ظهر في كل الوقائع بمظهر البطولة النادرة ذا قوة وعزيمة رابط الجأش يشب في حروبه وثبات الفرسان ويبطش كل البطش عند الحاجة لا يرهب المنون ولا يتهيب الموت له مواقف حازمة ردها الشعراء في مدحه كما قال ذو الوزارتين أبو بكر محمد الاندلسي :

يطارد في الضحى خيل الاعادي ❀ ويأوي كل وفد بالعشي
وكما أفصح عن تلك الشهامة ابن خفاجة في قصيدته العصاء التي سننتها

قريباً إن شاء الله في بحث الادب بمراكش الحمراء حيث يقول فيها :

وما السيف في كف الكمي مجردا ❀ بأسطا وراء النقع منه واسطعا

دعا باسمه داعي الحفيظة والندى ❀ فلبى على شرخ الشباب وأهطعا

وهب كما هب الحسام استماتة ❀ وعب كما عب الخضم تبرعا

وجر به ذيل الخميس ابن غابه ❀ تردى غلاما بالعللا وتلقعا

وداس العدار كضوأجرى الوغى دما ❀ بأطوع من يمناه فعلا وأطبعما

إلى آخر ما وصف به تلك الشهامة العربية والشجاعة الحميرية التي

تجلت في ابن يوسف المرابطي الذي كانت ميوله قوية نحو الادب والادباء

حتى أهمل التاريخ السياسي لدولة المرابطين جانباً مهماً من حياته الادارية غير

ان ما اهمله المؤرخون أفصح عنه الادباء الذين أحيا من صولتهم ما فقد مع ابن
عباد وابن عمار وبني جهور واضرابهم من امراء الادب الذين أخل الدهر
دولتهم ، وأحمد دوحهم ، ولا تخراط ابن يوسف في الوحدة الادبية
وتعزيرها بشخصيته خصص بحامي الاتحاد الادبي في المائة السادسة حيث
أحرز على سبقية ذلك الاندماج وكان أول أمير مرابطي ألان جانبه للادباء
إلى أقصى حد يعلمه التاريخ في ذلك العهد وان شاركه في تلك المكرمة
غيره من امراء لمتونة كصنويه الكريمين أبي طاهر وأبي الحسن وكابي بكر
ابن ابراهيم وعبد الله وابن بلكين وغيرهم ممن ملأت اخبارهم دفاتر
الكتاب والمؤرخين وسنشفع ترجمته بنبذة من أخبار أخيه الأكبر أبي
طاهر تميم بن يوسف ابن تاشفين لماله من الاتصال بالحياة الادبية في
الاندلس وسأقتصر على ماله مساس بالناحية الادبية فأقول :

من الواضح الجلي ان الامير أبا طاهر تيميا كان أكبر أبناء يوسف
ابن تاشفين وكان اشبه ابناؤه بحياته الشخصية يميل بفطرته لشطف العيش
وصلاية الجانب لنشأته في اول السذاجة المrapية التي كانت تتجلى بمظاهرها
التزهدية في أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين فلذلك تأثر تميم بتلك الحالة
الفطرية التي نشأ فيها إلى درجة أصبح فيها كثير الميل للورع والتزهد يكره
ميوعة الترفه والدعة ويميل بطبيعته إلى السذاجة المطلقة لذلك كان لا يستلذ
الحياة الادبية محافظة على تلك الطبيعة التي ظل متمسكا بها مدة طويلة رعا

لجانب الميول اليوسفية التي غدى بلبانها فتمسك باهذابها برورا بالابوية المشفقة ، وخضوعا لتلك العواطف القلبية .

قابل ولاية عهد أبي الحسن بكل هدوء وسكون لما انطوت عليه نفسيته الكريمة من النبل ولذلك تسارع بعد وفاة أبيه يوسف ابن تاشفين إلى الاعتراف بالخلافة لصنوه أبي الحسن علي فكان بذلك مثالا كاملا للوفاء حيث لم ينكث لابيه عهدا ، ولا أخلف لآخيه وعدا ، فنال بهذه الاخلاق الفاضلة منزلة خاصة عند أمير المسلمين الذي اعترف له بتلك المكرمة فمهد اليه بإمارة شرقي الجزيرة الاندلسية التي ساسها فأحسن سياستها بكل تدبير ومهارة مدة ولايته عليها إلى أن نشأت أزمة سياسية بينه وبين زعيم الفقهاء ابن رشد الكبير أدت إلى تخليه عن ولاية الاندلس لأمور أهمها التاريخ ولم يقص علينا من شأنها سوى مجيء ابن رشد للحمراء في قضيتين مهمتين احدهما تخص المعاهدين والثانية ترمي إلى عزل الامير تميم عن إمارته فأفادتنا الاخبار أن أمير المسلمين نفذ رغبة ابن رشد الكبير . على ان الذي يهمننا من ترجمة الامير أبي طاهر هو ما يخص ناحيته الادبية حيث اننا استخلصنا من مجموع اطواره التاريخية أنه تأثر بتلك البيات الاندلسية تأثرا قويا جعله يميل للحياة الادبية ويرغب في مجالسة الكتاب والشعراء حيث أنه لم يلبث مدة حتى اتخذ له اندية أدبية حافلة تتجاذب اطرافها نوادر العرب وبنات الافكار كما تصاغ فيها القوافي والمقطعات . ولقد صاغ في شأنه - او قل على لسانه - الاديب البارع أبو عامر بن

ارقم مقامه وصلها بالقرطبية يصور فيها النفسية التيمية كما يتصورها في عبقرية
أبي طاهر أبداع فيها وأجاد واليك نصها كما أثبتها صاحب القلائد في ترجمة
أبي عامر حيث قال : « ومن كلامه في مقامه أنشأها في الامير تميم ابن
يوسف أيده الله ووصلها بالقرطبية اولها : قال فلان بن فلان ولما اجتليت
ما نصه ، واستوفيت ما قصه ، قلت احق منزل ببرك ففجعت إلى الرواحل ،
لاطوي المراحل ، وآمل كعبة الآمال ، وقبلة الأُمّال ، فيينا انا أسير ، وقد
لظي الهجير ، ولا قعيد ولا ناطح ، الا الاكام والاباطح ، ولا سانح ولا
بارح ، الا الآل والبارح ، اذ رفع لي شخص ، يقربه ذميل ونص ، واذا
فتى عليه بزة ، تشهد له بالعزة ، يركب وجناء كأنها سبيكة لجين ، قد أخلصتها
يد القين ، ويجنب دهماء تسبح سبحا ، وكانها ليل يباري صباحا ، فلما دنا
وقف ، فطرف ، ووضع من لثامه ، وأوجز في سلامه ، فرددت كما يرد
العجل ، وتوقعت فوته فقلت من الرجل ، فقال :

اني امرؤ لا يعتري خلقي ❀ دنس يفنده ولا أفن
من معشر في بيت مكرمة ❀ والاصل ينبت حوله الغصن
فصحاء حين يقول قائلهم ❀ بيض الوجوه مصاقع لسن
لا يفتنون لعيب جارههم ❀ وهم لحفظ جوارهم فطن
قلت في كل عود نار ، واستمجد المرخ والغفار ، لله أنت فما أصون
جارك ، وأكرم نجارك ، لم تدب الضراء ، ولم تمش الحمراء ، فالتفت نحوي
عرضا ، قائلنا النبع يقرع بعضه بعضا ، تم أداه الاهتيال ، إلى السؤال ،

فقال أين أمك ، وما همك ، قلت غرناطة ، فقال : حيث اللمة المشفقة
المحتاطة ، والسدي ، والندي ، والامجاد والانجاد ، والاصراخ والانجاد ،
والغور والنجاد ، أكرمت فارتبط ، قلت وما علمك بها قال هي المطلع ،
واليها بحول الله المرجع ، قلت دنا مرادك ، وأجنى مرادك ، وتمثلت : قتلت
أرض جاهلها وقتل أرضا عالمها ففهم النزعة فقال : سل عما بدا لك على
الخير سقطت :

فأقبلت في الساعين أسأل عنهم ❀ سؤالك بالشيء الذي أنت جاهله
قلت فسطاطها فقال قصور . تقر لها إرم بالقصور . وسور . اعين
الحوادث عنه صور . كأنه الثغر المبتسم . والسلك المنتظم .
ومن شعره فيها :

فتى الخيل يقتادها ذبلا ❀ خفافا تبارى القنا الذابلا
ترى كل اجرد سامي السلي ❀ ل تحسبه غصنا مائلا
وجرداء ان أوجست صارخا ❀ تذكرك الظبية الخاذلا
اذا شهن بارض العدا ❀ يصير عاليها سافلا
ولم أدر بدر تمام سواه ❀ يسمونه الاسد الباسلا
أقام العجاج سماء عليه ❀ وأقسم ان لا يرى آفلا
ولم يصرف الهول هماته ❀ ومن يصرف القدر النازلا

إلى هنا انتهت المقامة التيمة التي أوردناها كبرهان ساطع على تذوق
الامير تميم لهذا النوع الروائي من أنواع الفنون الادبية التي تعد فيه

القصة الروائية ضربا فتيامن ضروبه المتعارفة بأساليبها المتنوعة وما أشبه قصة روائية بمقامة خيالية تنبئ عن اضطلاع منشئها وتذوق ممثلها الذي أنشئت على لسانه . او مزجت ببيانه ، كهذه المقامة التيمية التي أفادتنا مواقع الفنون الادبية من نفسية الامير أبي طاهر الذي أغنت شهرته السياسية عن شهرته الادبية حيث كان يركب الخطوب ويمتطي الاهوال :

فتى كالدهر يسعد من يوالي ❀ بأنعمه ويشقى من يعادي
سديد الرأي والرحم استقامت ❀ طرائقه على طرق السداد
وفي هذه النبذة التاريخية كفاية عن حياة ثالث اشبال يوسف ابن
تاشفين الذين طلع نجمهم بأفق الحمراء فاستنارت بأرائهم الادبية . ارجاء
المملكة المرابطية . اولئك كان أبناء يوسف ابن تاشفين الذي تردد ذكره
مع ولي عهده بهذين البيتين :

ملك ترفع ان تكون صفاته ❀ الاله او لانبه المحبوب
ذوهيبة تكفيه سوق جنوده ❀ وبديهة تغني عن التجريب

احمد بن العريف الصنهاجي

(٧)

ان من علم شخصية ابن العريف علم ان مراکش أخذت حظها في
أول نشأتها من الزهد والصلاح باستقرار الزهاد والعباد والصالحين في
تربتها منذ تأسست حيث ساق لها الاقدار في عهدها الاول مثل الشيخ
الوقور إمام الزهاد ، وقدوة العباد ، وصفوة العارفين أبي العباس احمد بن

محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي الاندلسي المشهور بابن العريف دفين الحمراء ذكّم العارف بالله الرباني الذي تنازع صفوته المتصوفون والفقهاء والمحدثون والقراء والزهاد وهو جدير بان يمنح اميز وصف من صفات تلك الطوائف بكل رعاية واستحقاق غير ان زمرة المتصوفين قد طغت على تلك الفرق كلها فتمسكت بابن العريف واحتكرته في صفوف رجالها المخلصين لنزعته التزهدية وميله الحقيقي إلى طريقة السلوك والتجرد عن خبرة وتاويل ، لا عن نزق وتضليل :

اعتنق ابن العريف المذهب الصوفي فكان مناره الالامع . وحجته البالغة ، وفرده الكامل ، لاتباعه خلاصة الصفاء ، بعد ما خاض علوم الاولين وخبرها عن دراية ومعرفة جعلته في عداد رجالها ، غير انه اختار التهذيب الروحي والرياضة النفسية ، فأثر التجرد عن الحياة المادية ، والتباعد عن النزعات البشرية ، حتى صار مثالا اعلى للفضيلة يخضع للاعتراف به مثل الحافظ الذهبي حيث يقول : « ابن العريف عارف معروف » ، ويعترف بمثله العليا مثل القاضي عياض في مراسلته ، وكفى بصفاء سيرته تحدث الفقهاء والمتصوفين عن حسن طويته مما يفيد انه لم يكن متصنعا في زهده وسلوكه ، ولا في اوراده واذكاره ، اجل لم يكن متصنعا في كل ذلك ، ولا كانت الاذكار والاوراد على حالتها المشوهة في لسان بعض المتصوفة الآن ، حيث أنها كانت لا تخرج عن اذكار ودعوات واستغفار وتلاوة لكتاب الله (وكتاب الله اعظم ورد يتقرب بتلاوته العبد الصالح الى ربه) .

ولعل ابن العريف في اختياره لمذهب السلوك كان بتدبره للآيات
 التزهدية مثل قول الله تعالى « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » وقول الله
 تعالى « اعملوا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في
 الاموال والاولاد » إلى آخر الآيات مع خضوعه للامر الوارد في هذه
 الآية « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلوة
 ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » وبذلك اهتدى إلى ما يراه موافقا لتلك
 الغايات التي ترمي إلى التجرد عن حياة الفناء . والتزود إلى نعيم البقاء .
 فصفت حاله . ولكن تكدر صفوه بسبب ما امتحن به من الاختبارات الشاقة
 مصداق قول الله تعالى « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو
 اخباركم » تلك الاختبارات التي ساعد على وقوعها ذلك الجو الذي كان
 يعيش فيه ابن العريف حيث كانت الشكوك تحوم حول رجال التصوف
 في المملكة المرابطية بما يبثه الفقهاء في جميع الاوساط من الاراء المنافية
 للمبدأ الصوفي مما قاسى به المتصوفون شدائد واضطهادات أدت إلى القتل
 والتشريد . ولعل قصارى ما كان يبثه الفقهاء العقائد السلفية التي يرومون
 حمايتها بنوع خاص من النزعات الصوفية التي قد لا تتفق مع العقلية الفطرية
 الساذجة التي كانت تسود اذ ذاك المغرب سيما وقد كانت عقائد أخرى
 كامنة تناوي العقائد السلفية في الخفاء قد يساعد على ظهورها انتشار المبدأ
 الصوفي في المغرب أو الجزيرة واتقاء لما عسى ان ينتج عن ذلك اتخذت
 الحكومة المراكشية كل قساوة وشدة ضد من يروم مخالفة مبادئها

الاعتقادي . على ان اضرار المتزمتين من غلاة الصوفية في كل عصر لا تخفى على منصف يخاف الله ويتذكر الآخرة وكفى بهماوية الضمان ... (١) وان كان مثل ابن العريف يمنعه دينه وورعه من الوقوع في مثل تلك المهاوي التي لا يجزؤ عليها الا من لا يتأمل العاقبة ولا يضرب ليوم الجزاء حسابا .

غير أنه مع كل ذلك جرفه سيل المتزمتين فذهب ضحيتهم حيث اصابه ما اصابه من الامتحانات المرة التي لا يتجرع مرارتها الا الصابرون بسبب ما نشأ بينه وبين ابن الاسود من الخلاف لموجدة كامنة في صدره ضد ابن العريف ظهر أثرها في اقصائه عن المرية .

ولقد أخفى التاريخ السبب الحقيقي لاثارة حفيظة ابن الاسود وبالغ في تكتمها حتى صارت من أخفى الحوادث في ذلك العصر وان تكهن بعض المؤرخين عن ذلك السر فزعم انه يرجع لما يبثه الفقهاء ضد تصوف ابن العريف . ولئن صح هذا التكهن لا يفيد أكثر من بيان ميول دولة الملتزمين نحو مبادي المتصوفين التي تبني في غالب الاحوال على الازواق

(١) على ذكر الضمان التي ضربت أطباها في الوسط المغربي يقول زعيم الضمان في خريدته من البحر المسجور :

وما احد من اوليا الله كلهم ✽ يسكن صحبه اعلى جنة
بغير حساب والعقاب سوى انا ✽ ولو عملوا في النيب كل جريمة
فتجراً الشيخ المسكين على كفالة الجنة لانباعه بغير حساب ولا عقاب مع الشك في
مصيره هل الى جنة او الى نار

والاشواق وما إلى ذلك . . . ولذلك كانت تسعى جهد استطاعتها للقضاء على تلك المبادي الخيالية المزمنة . وان كان غاية ما تعلل به وقائع ابن العريف انها كانت لاسباب هامة نتج عنها إبعاده عن مسقط رأسه بما قام به خصمه العتيد من السعاية في البلاط المرابطي ذلك الخصم الذي اغتم فرصة إقصاء ابن العريف عن المرية فاتخذ جميع الوسائل للشكاية به باتفاق تام مع والي المرية غير ان ابن العريف قابل تلك المحن بصبر وثبات مرددا في كلامه « روعنا روعه الله » يقصد بدعائه الوالي العام الذي التحق به قبل إنزاله للبحر فصفده في الاغلال والقيود الحديدية إرضاء لسميه ابن الاسود ولا تعجب إذا نبأك الاخبار ان والي المرية قد أسره العدو وأبعده عن بلاده حيث عومل بكل قساوة وشدة فسبحان من يجيب دعوة الداعي إذا دعاه .

وصل ابن العريف إلى مدينة سبته إحدى موالي المغرب على البحر الابيض فوجد رسول أمير المسلمين علي يزف له البشرى ويسكن روعته مما انتعشت به روح ابن العريف الذي رغب بعد اطمئنانه في رؤية أمير المسلمين لما يسمع عنه من الاخلاق الفاضلة لذلك قال لرسوله « كنت لا أريد معرفة السلطان وقد عرفني فلا بد من رؤيته » ثم شد مطيته لمراكش الحمراء قاصدا زيارة أميرها العظيم الذي استقبله بكل حفاوة واکرام واستفهمه عن المقاصد التي جاء من اجلها فكان مطلب ابن العريف منحصراً في حرية التنقل واختيار المصير في ارجاء المملكة المرابطية وقد أجاب أمير المسلمين طلبه وأذن له في الذهاب حيث شاء ولكن ما ذا يطلب ابن

العريف حيث سبق له في محتوم اجله ان يكون دفين الحمراء وان تضم ترتبها رفااته .

قدر له ان يختم انفاسه بمراكش كما قدر لابن الاسود قاضي المرية ان يكون السبب في ذلك بما جرعه لابن العريف من السم بواسطة الاندال بعد ما خاب سعيه وخذل في مقاصده ، ولئن تساءلت وما ذا فعل بابن الاسود كان الجواب عن هذه الجزئية انه قدر له ان يتجرع كأس المنون بالسبب الذي تجرعه به ابن العريف حيث غربه أمير المسلمين إلى السوس الأقصى وسم هناك بإشارته انتقاما لابن العريف ونكاية بخصومه العائشين فسبحان من يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

حب لابن العريف ان يعرف لناصر الدين في عاصمته فكانت منيته تنتظر منه ان ينال منيته حيث انتقل إلى رحمة ربه سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ووضع في مقره الاخير في محفل رهيّب حضره العلماء والصلحاء وذوو الهيآت في مراكش الحمراء إلى أن استقر في مقبرة جارت عليها الظروف والاحوال فسلبتها حقوقها الانسانية حيث لم تبق منها الآن سوى ما يشغله ضريح ابن العريف ومزاره العظيم ، ذلك المزار الذي يعلو تارة ويهمل اخرى باعتبار ضعف الاعتقاد في القبوريين (١) وقوته مع تعاقب

(١) على ذكر القبوريين اقول انه في هذا العصر قد خفف الناس قليلا من غلوائهم في مسألة القبور والاضرحة حيث اصبح كثير من الناس يعتقد ان سكان القبور لا ينفعون ولا يضررون مهما كانت صفتهم وانه لا اثر لهم حتى في الاستجابة الانفراديا قليلا ينقسم على

الدول والامم إلى أن صار في العهد الاخير محل تقديس زائد عند العوام تؤدي فيه الايمان الشرعية إذا توجهت على شخص لما لهم من العقيدة الخاصة في ان من حلف هنالك كاذباً تصرف الشيخ فيه بالعمى بل أصبح مخلوقاً به عند بعض الجهال وما أكثرهم في ديارنا .

نفسه ففريق يعتقد ان الولي يؤثر ويعطي ويمنع وهؤلاء يحتاجون الى تجديد عقائدهم وتنظيف ضمائرهم ، وفريق يقول ان الدعاء في اضرحتهم اقرب الى للاستجابة لمزيد الفضل بوجودهم .؟ على ان الذي يهمنا بيانه هو ان سبب ضعف الاعتقاد في القبوريين يرجع الى عاملين عامل الهدم والاحاد ، وعامل الاصلاح والتجديد ، اما عامل الاحاد فنشأ ما يعتقد اولئك من ان مجموع التقاليد القديمة بما فيها من بعض جزئيات التشريع حيث انها لا تسير في نظرهم المدنية الحديثة فيجب ان تحال على المعاش وتوضع على رف الاهمال احتقاراً لها والتمسا للتجديد ، ولقد أدى بهم ذلك الزينغ إلى ترك مظاهر الاسلام من صلاة وصوم نعوذ بالله من الخذلان . وأما العامل الثاني فهو قيام شرذمة تنتسب للسنة بمقاومة تلك العقائد الفاسدة بكل ما أوتته من بيان وحجة وقد استطاعت هذه الطائفة على قلبها ان تزلزل عقائد القبوريين وان ترجعهم عن اعتقادهم الفاسد الى سواء السبيل ، يضاف الى ذلك ما تسرب للادهان من العقائد وما يسمعه الناس عن سير الاعتقاد في الحجاز وما حل بالاضرحة والمزارات هنالك من الهدم والتخريب مع عدم انتقام اصحاب القبور من الملك العادل جلالة ابن السعود أطال الله حياته وجعل التوفيق رائده وأرشدنا وجميع المسلمين الى ما فيه رضى الله تعالى وما فيه صلاح احوالنا .

ولقد تعرض صديقنا العلامة المؤرخ قاضي المنشية في كتابه الاعلام ، بمن حل مراکش وانحات من الاعلام ، الى الكلام على مسألة التوسل والوسيلة بما لا مزيد عليه حيث ذكر مذهب ابن تيمية وما حرره في مسألة الزيارة ونقل الردود التي دونت في تلك المسئلة وأضاف اليها آراءه الخاصة وعلى العموم فانه تعرض في بحثه الضافي لتطورات مسألة الزيارة واني احترم بحثه الخاص مع احتفاظي بآراءي الخصوصية في بعض النقط التي أصارحه فيها بالمخالفة مع تحفظ تام سيما ما يرجع للتوسل الذي تساهل فيه إلى حيث يعلم الناس من إظهار الكمال مع العلم ان احوال السلف تنافي ذلك ولنا بحث في الموضوع نسأل الله التوفيق لابراره قريباً .

على أن الذي يهمننا البحث فيه من ترجمة ابن العريف هو ما خلفه من الأثر التهذيبي بمراكش في المدة التي قضاها بين جدرانها لاتصال ذلك بالحياة العلمية التي من لوازمها التهذيب الديني والرياضة النفسية سيما من رجل كان لا يتبع في سبيله التهذيبي مثل ما يتبعه الرجل الصوفي المجرد عن المبادي العلمية لذلك خصصناه بالذكر لتخلله المعاهد المراكشية وتبادله الانظار مع اصفیاءها في ذلك العصر مما يستنتج منه ان المبدأ الصوفي الذي لا يتنافى مع الدين الاسلامي نشأ بمراكش في عهدها التكويني بما انحدر اليها من العباد والزهاد حتى سميت بتربة الولي في لسان التاريخ لما كان يتجلى فيها من مظاهر التقوى .

ولقد خلف ابن العريف من آثاره الفكرية كتابا في السلوك سماه بالمجالس اقتصر على ذكره ابن خلكان في ترجمته ، وذكر له صاحب النفع مطالع الانوار ، ومنابع الاسرار ، ذكر في طليعته قصيدة في الامداح النبوية . وله غير ذلك من الرسائل ، كما أن له نظما رقيقا متشعبا بالروح الصوفية مع اشتماله على معاني رقيقة وروح قوية من ذلك قطعه التي يتشوق فيها إلى زيارة المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

شدوا المطي وقد نالوا المنى بمنى ❀ وكلهم بأليم الشوق قد باحا
صارت ركائبهم تندى روائحها ❀ طيبا بما طاب ذاك الوفد اشباحا
فنسيم قبر المصطفى لهم ❀ روح إذا شربوا من ذكره راحا (١)

(١) وفي الاعلام : نسيم قبر المصطفى لهم ❀ روح اذا شموا من ذكره فاحا

يا واصلين إلى المختار من مضر ❀ زرتم جسوما وزرنا نحن أرواحا
 إنا أقمنا على عذر وعن قدر ❀ ومن أقام على عذر كمن راحا
 فهذه القطعة الرقيقة تنبئك عن شاعرية ابن العريف الذي كان يغمر
 قلبه الشوق فتفجر ينابيعه عن امتزاج الأرواح بالأشباح ، وامتلاء القلوب
 بالراح ، على طريقة القوم : سكرنا بها من قبل أن تخلق الكرم .
 ولا ابن العريف في التغزل بمن يهواه على شرط الصوفية :

سلوا عن الشوق من أهوى فإنهم ❀ ادنى إلى النفس من نفسي ومن نفسي
 فن رسولي إلى قلبي ليسألهم ❀ عن مشكل من سؤال الصب ملتبس
 حلوا فؤادي فما يندى ولو وطئوا ❀ صخراً لجاء بماء منه منبجس
 وفي الحشا نزلوا والوهم يحرسهم ❀ فكيف قروا على اذكي من القبس
 لأنهنضن إلى حشري بحبهم ❀ لا بارك الله فيمن فاتهم ونسي
 وفي الاعلام بعد البيت الاول :

مازلت مذسكنا قلبي أصون لهم ❀ لحظي وسمعي ونطقي اذ هم أنسي
 وقد نسب له صاحب النفع ابiana كثيرة في مواطن عدة يلتفت النظر
 منها قوله في انتقاد من يأخذ العلوم من الكتب ويعتمدها في تربية ملكته
 العلمية بقطع النظر عن المشاكل والصعوبات التي قد لا تذلل الا بالمناقشة
 والاخذ من افواه الرجال مع الاجتهاد الموصل إلى ادراك الحقائق العلمية
 حيث قال :

من لم يشافه عالما باصوله ❀ فيقينه في المشكلات ظنون

من أنكر الأشياء دون يقين ❀ وثبت فعاند مفتون
الكتب تذكرة لمن هو عالم ❀ وصوابها بمحالتها معجون
والفكر غواص عليها مخرج ❀ والحق فيها لؤلؤ مكنون
ولعله أشار من طرف خفي في قطعته هذه إلى مفخرة الاندلس أبي
محمد علي ابن حزم الظاهري الذي يشيع عنه خصومه المذهبيون ان جل
علومه أخذها من ظواهر الكتب فكثير خطؤه وتفاحش انتقاده لخصومه
المذهبيين الذين بدد زعمهم بأفكاره الخالدة التي اعتمد عليها في تكوين
شخصيته ، وقد تلس التعريض به من أبيات ابن العريف إذا ضمنها لجوابه
عن ابن حزم لما سئل عنه بقوله « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج ابن
يوسف شقيقين » ولكن احتراماً لابن حزم او خوفاً من وثاقه الجبارة
تلطف ابن العريف في التعريض به في القطعة التي جعلها كقاعدة يسلمها
الباحثون ، ولقد طرق حمى ذلك المعنى جماعة من العلماء في مختلف العصور
وممن اشتهر قوله في ذلك أبو حيان صاحب البحر :

يظن الغمران الكتب تهدي ❀ اخافهم لادراك العلوم
وما يدري الجهول بان فيها ❀ غوامض حيرت عقل الفهيم
إلى آخر الابيات المتداولة في الاوساط العلمية .

والذي يطرب من أبيات ابن العريف قوله والفكر غواص عليها
مخرج لمعانيها المشبهة بالؤلؤ المكنون .

وله في ذم البخل والبخلاء كما في النجم الثاقب ، فيما لاولياء الله من

المناقب ، طبقا نقل من مجموعة خطية تحت اليد قال في أولها ما نصه :
 « قال صاحب النجم الثاقب : حدثنا شيخنا أبو عبد الله الشمني قال كان
 شيخنا أبو إسحاق - يعني سيدي ابراهيم التازي أصلا الوهراني دارا -
 مجبولا على الكرم والا يثار لا يدخر شيئا ولا يلوى على سبب قال ومما
 أنشدناه في الجود قول الزاهد العارف بالله أبي العباس ابن العريف :

تعاتبني في الجود والجود شيمتي ❀ ومالي بتبديل الطباع زعيم
 ولم أر مثل الجود أما حديثه ❀ فخلو وأما حبه فقديم
 ولا خير فيمن لا يعاش بعيشه ❀ ولو انه فوق السماء مقيم
 ذريني فإن البخل عار باهله ❀ وما ضر مثلي ان يقال عديم
 أرى كل طلق كل خلق حميمه ❀ وليس لمقبوض اليدين حميم
 وكيف يخاف الفقر أو يحرم الغنى ❀ كريم ورب العالمين كريم

هذا ما نسبته صاحب النجم لابن العريف من الابيات التي يفصح فيها
 عن مبادئه الانسانية التي كان يتمذهب بها وهي توافق المبادئ التي يراها
 أبو العباس السبتي المراكشي حيث يعبر عنها دائما بقوله (الجود مفتاح
 الوجود) وقديما تمدحت العرب بالكرم حتى ضربت بحاتمها المثل وسنختم
 ترجمة ابن العريف بهذين البيتين اللذين يحض السامعين فيها على مقابلة
 المفاجآت والرزايا بالثبات والاقدام قائلا :

إذا نزلت بساحتك الرزايا ❀ فلا تجزع لها جزع الصبي

فإن لكل نازلة عزاء ❀ بما قد كان من فقد النبي (١)

وهو معنى لطيف قد طرقة الشعراء قديماً وحديثاً غير أن هذين البيتين قد امتازا عن ذلك بتعليل العزاء بما قد كان من فقد النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) وعلى هامش البيتين اشير هنا الى مضمون حادثة عجيبة من حوادثي الشخصية لها علاقتها بمضمون بيتي ابن العريف وهي انه في اليوم الثامن والعشرين من شهر ربيع الاول سنة ١٣٥٦ فوجئت بحادثة غريبة جداً وجدا غريبة يمكنني ان اقول عنها انها الاولى من نوعها حيث سببت لي احوالا وكروبا متنوعة أنهكت قواي وكادت تقضي مني على كل شيء لولا ان تداركني الله بلطف خفي ، واستسلاما للقضاء والقدر خرجت عشية ذلك اليوم العصب أتطلب نوعا من التسلية عسى ان أخرج بها من تلك الافكار التي تسبح في بحر من الخيال يضطرم عن نتيجة لا يعلم غايتها الا الله وانا اشد ما يكون المختار ارتباكاً اذا بطالب من المدرسة اليوسفية يقابلني امام البيت ويده ورقة أخبرني انه عثر عليها اثناء الطريق ووجد مكتوبا فيها بخط قديم ليس عليه امضاء بيتين هذا نصهما :

توقع صنع ربك سوف يأتي ❀ بما تهواه من فرج قريب

ولا تيأس اذا ما ناب خطب ❀ فكم في الغيب من عجب عجيب

فكانت تلك الصدفة الغريبة كبشرى تزفها الي يد القدر على لسان الطالب المدرسي بصفة لها روعتها وجلالها في فؤادي الجريح الذي تنسم من مغزاها كل خير ، على انني قد اعتبرت البيتين غنيمة اكتسبتها بخروجي تلك العشية وتفاءلت بها إلى اقصى حدود التفاؤل وماكدت أرجع من فسحتي المضطربة حتى وجدت خبراً بدد غني تلك الغيوم القاتمة وأزال سجنها المظلمة من سماء فكري وانفرجت بذلك الازمة انفراجاً عجيباً حقته اللطاف من كل ناحية بعد ان أحاط بي اليأس والقنوط من جميع الجهات مع الهواجس والافكار المحطرة التي لا يعلم مداها الا الله ، واحتفاظاً برمز تلك الذكرى المفرعة وإحياء للبيتين اللذين تفاءلت بها أدرجت نصهما على هامش قول صاحب الترجمة في مثل ذلك المعنى :

اذا نزلت بساحتك الرزايا ❀ فلا تجزع لها جزع الصبي

وكم في الاقدار من مفاجآت غريبة تكتنفها اللطاف .

وبتبع مقطعاته الشعرية تجد له ميزة خاصة في قريضه يمتاز بها عن شعر كثير من الصوفية وذلك لرشاقة أسلوبه الاخاذ، وابتكاره للمعاني اللطيفة التي يضمنها غالبا آخر بيت من شعره أو شطر من بيته ويرسله مثلا كقوله في قطعه التشويقية «ومن أقام على عذر كمن راح»، وفي قطعه التي يعرض فيها بالبخلاء ويبرأ من ذلك الوصف الذميم :

وكيف يخاف الفقر أو يحرم الغنى ❀ ككريم ورب العالمين كريم
وكذا و(لكل نازلة عزاء بما قد كان من فقد النبي)، زيادة على أنه يحاول في كل نشقة من نشقه الخروج عن القيود المصطنعة لدى بعض المتصوفين ويتحرى في مجموعها اقتناص ألفاظ واضحة جلية فياله من عارف معروف فازت تربة الحمراء برفاته أسبلت عليه سحائب الرضوان .

أبو العباس احمد بن الصقر الاندلسي

(٨)

لامراء ان العاصمة الجنوبية بالمغرب الأقصى ورث القسط الاكبر من التراث الاندلسي الفاخر الذي انتقل اليها بانتقال اكبر الشخصيات اليها في عهد الدولتين العظيمتين .

وكان من بين تلك الشخصيات البارزة التي استوطنتها في العهدين مخضرم الدولتين ، ومفخرة القطرين ، أبو العباس احمد بن عبد الرحمن بن محمد بن الصقر الاندلسي الانصاري الخزرجي ، ذلكم البحاثة الضليع ، والدراكة المتفنن ، هو الذي أتحدث عنه في هذه الترجمة وأخص بالتحدث

عنه ناحيته العلمية التي لها علاقتها بالبحث الجامعي في عصر المثلثين لما له من الاتصال بالمعاهد الدينية بمراكش في طرفي الدولتين المرابطة والموحدة فأقول :

من المعلوم تاريخاً أن أبا العباس السرقسطي المشهور بابن الصقر انتقل للحضرة المراكشية في خلافة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين بسبب ما خوطب به من الكتابة مع قاضي الجماعة بمراكش أبي عبد الله محمد بن حسون حيث وظف معه وتسربل في خطط دينية ساقص عليك اطوارها بعد إيجاز نشأته العلمية ، ورحلاته الخصوصية ، وإن كان ذلك من خصائص المعاجم والطبقات التي تعني بالتوسع في تراجم الرجال وإحصاء الشيوخ .

نجم كوكب أبي العباس في أفق المرية التي انحدر إليها آباؤه من سرقسطة في أعلى الأندلس من مواطن الانصار ، ثم رحل به أبوه وهو طفل صغير إلى سبتة إحدى الموانئ المراكشية على الأبيض ، ثم بعد مراهقته ولّى وجهه شطر الأندلس حيث جود في عواصمه القرآن بالسبع على شيخ القراء أبي العباس اليحصبي وغيره من مشاهير المقرئين ، ثم بعد تحصيل القرآن أخذ في الارتواء من ينباع العلمية على أبي إسحاق ابن الفضل اليحصبي وأبي بحر سفيان وأبي بكر بن غالب بن عطية وابن أغلب وابن العربي وأبي جعفر بن البادش وسبط أبي عمر يوسف وغيرهم من الرجال في مشيخة له معلومة تضم اميز الشخصيات الأندلسية إلى أن مهر

في العلوم مهارة نادرة تفنن بها في استخراج كنوز المتون وآلياتها المكنونة بفكر ثاقب ، ومملكة تامة ، سيما متون الحديث التي برع فيها براعة فذة استكنه بها خبايا السنة بطرائق الاصول التي ترجع العلق إلى جده ، وتربط الفرع باصله ، سالكا في بحوثه العلمية جداول الفنين ، ومنعرجات الباحثين بكل دراية ورواية بعد ان اشتد كاهله بالجدليات ، والاضطلاع في الكلام والالهيّات ، مع ما أوتيّه من بيان ورسوخ في العلوم اللسانية ، يضاف إلى ذلك رونق خطه الذي فاق به أهل عصره فكان آية خالدة في كل ناحية من نواحيه العلمية حيث اجتمع فيه من المواهب الفكرية ، والمؤهلات الفنية ، ما جعله ممتازا في تحصيله وتفننه ، ذهب في جل العلوم الى ابعاد غاية ، وساهم فيها بالبلغ نهاية ، ولا غرو في ذلك فإنه كان يستغرق اوقاته في الدرس والتحصيل والتقييد إفادة واستفادة يتطلب المعرفة حيثما كانت ، ويتوجه مع أسباب العلم أينما توجهت ، لا يرضى لنفسه غير الحياة العلمية .

له رحلات في عواصم العدوتين خابر اثناءها القواعد المغربية وسبر غورها العلمي فوجد القاعدة الكبرى (مراكش الحمراء) أكثرها علما ، وأشدّها اتصالا بالحياة العلمية ، حيث امتازت عن بقية المدن المغربية بجلب الاساتذة والمفكرين لها من العواصم التابعة لها والخاضعة لسلطانها حيث ان العواصم تجبي اليها ثمرات العلوم في كل زمان ومكان ، لذلك اختار أبو العباس الاندلسي أن تكون دار هجرته ، ومقر استيطانه ، رغبة في العلم وأهله ، وابتغاء ترويح منتوجات فكره في وسط علمي تنفذ فيه تلك

البضاعة بين النبغاء والاذكياء من ناشئة الجنوب ، فأحب الحمراء وأحبه أهلها وأكرموا مثواه ، واستكتبه قاضي الجماعة بها واعتنى بشئونه الشخصية عناية خاصة ، وظف كاتباً عند القاضي واتخذ وظيفة الكتابة عنده سبباً لبث مواهبه العلمية سيما وقد منح بعد ذلك الصلاة في مسجدتها الأعظم - (ابن يوسف) - ثم لا يزال يترقى في معارج الولاية إلى أن تولى حكم مراکش واحكامها ، مع بقاء إمامته في مسجدتها ، إلى أن صرف عن الاحكام ، وبقي إماماً في معهدتها الأكبر ، مقتنعا بذلك ما دام الباب مفتوحاً أمامه لدراسة العلوم في تلك الجامعة الخالدة التي أحبها وشغف بوسطها الأدبي شغفا تنازل بسببه على كثير من مصالحه الشخصية في مقابل تلك المحبة التي يرجع أمرها إلى شغفه بالعلم وأهله كما أفصح بذلك في رحلته التي تحدث التاريخ عنها ، وهي شهادة يؤديها رجل منصف للحياة العلمية بمراكش أوائل المائة السادسة وقتئذ جعلها دار هجرته ، حاكياً فيها أنه تعرف إليه بعض كبراء لمتونة أثناء طريقه للحمراء فطلب منه الخروج معه إلى عمالة دكالة التي يحكمها مقابل ألف دينار مرابطي يسلمها له كل سنة رغبة في علمه واصطحابه فامتنع من ذلك وأبت عليه شهامته استبدال الحياة العلمية في الحمراء ، بالحياة المادية في دكالة الجرداء ، واليك نص الحادثة كما نقلها صاحب الديباج في ترجمته حيث قال :

« وفي رحلته إلى مراكش عرفه أحد سراً لمتونة ، وكان الممتوني حينئذ عاملاً على دكالة ، فرغب منه أن ينقطع إلى صحبته ، ويخرج معه إلى عمالته

ذلك العام، وضمن له ان يعطيه الف دينار ذهباً مرابطاً، فامتنع من ذلك وقال: والله لو أعطيتني ملء الارض ذهباً على ان أخرج عن طريق وأفارق ديني من خدمة اهل العلم ومداخلة الفقهاء والانخراط في سلوكهم ما رضيت، فعجب المتنوني من علو همته، إلى آخر ما قص ابن فرحون في ترجمته وهكذا هكذا هممة الرجال تكون: رجل عرضت عليه الف دينار مرابطة في السنة، وهي كمية لها أهميتها المادية في ذلك العصر، فأبى ان يضع مواهبه الفكرية في وسط جاهل لا علاقة له بالحياة العلمية، واقتنع بالكتابة في الحمراء، لا رغبة في المادة، وانما محافظة على تلك المواهب التي تطلب لنفاقها سوقاً رابحة.

وقد استرسل في ذلك إلى ان صرف عنه للامامة وحدها في الجامعة، والامامة خطة شريفة، لا يتولاها حينذاك إلا من اجتمعت فيه مؤهلات دينية واخلاقية، لا كما هي الحال الآن في هذه الديار، وقد اجتمعت تلك المؤهلات في أبي العباس الذي ظل حقبا طويلا ينفخ الروح العلمية في الجامعة اليوسفية التي شد رحاله اليها فجاء معه بخزانته الخاصة التي اشتملت على خمسة اجمال من الكتب، أضاف اليها كتباً كثيرة بمراكش الحمراء، كما نص على ذلك في الديباج حيث قال: «وكان معه عند توجهه إلى مراكش خمسة اجمال من الكتب، وجمع منها بمراكش شيئاً عظيماً»، وما ذلك منه الا استعداد لاداء الامانة العلمية على وجهها الحق.

وقد بقي دائماً في بث معارفه بمعاهد الحمراء إلى ان دخلها الموحدون

واختص بعد ذلك بمجلس عبد المؤمن إلى أن ولي قضاء غرناطة ثم إشبيلية ثم بلنسية ، إلى أن عين في زمن أبي يعقوب لإدارة الخزائن الموحدية بمراكش الحمراء ، وهي من الوظائف المهمة في دولة بني عبد المؤمن ، وسندكر ماله علاقة بذلك في مبحث الخزائن لدى الموحدين .

وقد ترجمه ابن الخطيب في الإحاطة ووصف حالته العلمية بقوله : « كان محدثاً مكثراً ثقة ضابطاً ، مقرئاً مجوداً ، حافظاً للفقهاء كراً للسائل عارفاً بأصولها ، متقدماً في علم الكلام ، عاقداً للشروط بصيراً بعلمها ، حاذقاً في الأحكام ، كاتباً بليغاً ، شاعراً محسناً أثقن أهل عصره خطأ ، واجلهم منزعا ، - إلى أن قال في نهايته : استدعاه أبو عبد الله ابن حسون قاضي مراكش إلى كتابته إلى أن صرف ، واستقر متولى حكمها وأحكامها والصلاة في مسجدتها - إلى أن قال : - ولما تصير الأمر للموحدين ألقاه عبد المؤمن بجملة طلبة العلم وتحفى به وقدمه إلى الأحكام بحضرة مراكش فقام بها مدة فولاه قضاء غرناطة ثم نقله إلى إشبيلية قاضياً بها مع ولي عهده ، ولما صار الأمر إلى أبي يعقوب ألزمه خدمة الخزانة العلمية ، وكانت عندهم من الخطط التي لا يعين لها إلا الأكابر من أهل العلم وعليتهم . »

ذاك ما وصف به ابن الخطيب أبا العباس ابن الصقر ذا التآليف الشهيرة والآثار الرائعة التي حفظ له التاريخ من رسومها كتابه المرسوم بـ (أنوار الأفكار ، فيمن دخل جزيرة الأندلس من الأبرار) ، ذلكم الكتاب التاريخي الحافل الذي يدل عنوانه على عظيم مكنونه ، وقد باغته

المنية قبل إتمامه فأتمه نابغة عصره ، ووارث مجد أبيه ، ولده عبد الله ، كما خلف من الآثار الخالدة كتاب شرح الشهاب الذي جعله المؤرخون كأعلى مثال لتصنيف أبي العباس قال في الاحاطة لدى ترجمته : « له تصانيف مفيدة تدل على إدراكه وإشراقه كشرحه الشهاب فانه أبدع فيه وأفاد . »

على أن أبا العباس لم يكن ناثرا فحسب ، بل ضرب في القريض بسهم صائب ، وفكر ثاقب ، حيث جاء في منظومه بما ينبي عن شاعريته الفذة التي تمثل رقة الوجدان وقوة الخيال في المعاني التي يجيش بها صدره ، فينفثها شعراً وان غلب عليه القول في الزهد والتهديب شأن الذين امتلأت قلوبهم بالآيمان ففاض شعورهم حكمة وموعظة لمن كان له لب ، من ذلك قوله :

إلهي لك الملك العظيم حقيقة ❀ وما للورى مهما منعت نصير
تجافى بنو الدنيا مكاني فسرني ❀ وما قدر مخلوق جداه حقير
وقالوا فقير وهو عندي جلالة ❀ نعم صدقوا اني اليك فقير
هنا ينبغي للقاري ان يتأمل مع أبي العباس تلك المعاني النبيلة التي ضمنها في أبياته ، فيستلذ الفقر إلى المولى جل جلاله ، ويستعرض أمام مخيلاته ذلك الملكوت الاعلى الذي تتجلى في تعاظمه قدرة ذي العظمة الحقّة والملك العظيم ، ثم يمر مر الكرام على تجافي بني الجنس لكل ذي فضل ، فيتسلى بذلك التجافي الموروث ، ويلس في مضمون القطعة معاني الزهد في قداسة الدين الحنيف بكل إعظام وإجلال ، سيما إذا كان ممن لا يؤمن بشعر الخلاعة والفجور ، وهتك الحرمات الدينية بميوعة الاخلاق التي

تغلب في العصر الحاضر على جل تجار الفضيلة او لصوص القريض . . ؟
وله في المواربة والمدارات :

أرض العدو بظاهر متصنع ❀ ان كنت مضطراً الى استرضائه
كم من فتى ألقى بوجه باسم ❀ وجوانحي تنقد من بغضائه
توفي بمراكش الحمراء سنة تسع وستين وخسمائة كما في الديباج ،
وفي الاحاطة : « توفي بين صلاة الظهر والعصر يوم الاحد لثمان خلون
من جمادى الاولى سنة تسع وخمسين وخسمائة ، ودفن يوم الاثنين بعده
عقب صلاة الظهر ، وصلى عليه القاضي يوسف حجاج ، وكانت جنازته
عظيمة المحفل ، كثيرة المجمع ، برز اليها الرجال والنساء ورفعوا نعشه على
الايدي » وذلك يدل على علو مكانته عند الشعب المراكشي النبيل الذي
كان يحل فيه العلم والاخلاق الفاضلة فالى رحمة الله يا أبا العباس .
وقد رثاه أبو بكر بن الطفيل بقصيدة هذا مطلعها :

لامر ما تغيرت الدهور ❀ وأظلمت الكواكب والبدور
وطال على العيون الليل حتى ❀ كأن النجم فيه لا يغور

ذو الوزارة مالك بن وهيب

(٩)

لقد اتصلت شخصية ابن وهيب الاندلسي بالقاعدة الجنوبية في اولية
أمير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين الذي قربته من بلاطه ورفع من
شأنه حيث استوزره بعد حين لنبله ووفرة علمه ورجحان إدراكه للمعارف

الاسلامية ، ذكـم ابن وهيب ، وتلك عبقرية التي استأهل بها المكانة التي تبوأها في عاصمة بني تاشفين .

نشأ ذكـم العبقرى الفذ مالك ابن وهيب بالفردوس المفقود في المائة الخامسة ، وتخرج في معاهده التي كان يتخللها بين قرطبة وإشبيلية وغرناطة وبلنسية وغيرها من العواصم الاندلسية التي كـون بين معاهدها مجموعة فكرية أكسبته شهرة علمية واسعة الافق تشمل في دائرتها علوم الهيئة والطبيعة والرياضة مما فاق به أقرانه وسابق بمكنونه فرسان تلك العلوم العقلية فكان جوادها الاول بما دبحه في سجلات التاريخ من الآراء الخاصة والافانين الفكرية التي كان من بواكرها ما ضمنه في مناقشته الفنية لشيخه أبي العباس احمد الذهبي الاندلسي عظيم قرطبة من الآراء الفتية كما سجلها التاريخ في صحيفة ابن وهيب الذي أهمل تاريخ الفقهاء عده في رجال القانون المالكي مع إحرازه على اوفر قسط في المالكية الحرة ، ذلك الاهمال الذي لا أدري بما يعلل من جانب الفقهاء لمفكر عظيم من رجالاتهم له شهرة ذائعة وقدم راسخ في علومهم ، لأنني بعد البحث والتنقيب ما عثرت له على ترجمة خاصة تنبئ عن تفاصيل اطواره العلمية والادارية ، اللهم إلا إذا كان ذلك في بعض المخطوطات الخاصة برجال الجزيرة وعطاء البلاط المرابطي مما لا يزال من مجاهيل التاريخ فلا أدري ، على انه يمكن تعليل ذلك الاهمال من الفقهاء لجانب ابن وهيب بانهم لاحظوا فيه شهرته السياسية واتصاله بالقصر المرابطي اتصالا طغى على جانبه الفقهي لظهوره بمظهر

السياسي الكبير والذائد المحنك فاكشفوا بعده في صفوف الساسات
والمفكرين لذلك محوا رسمه من قائمتهم .

ولئن جاريناهم في غض الطرف على جانب ابن وهيب الفقهي
ووافقناهم على ذلك الاتجاه نحو شخصيته فلم نسجله في تاريخنا الجامعي باسم
الفقه والفقهاء ، فاننا نسجل اسمه بكل افتخار مقرونا باسم الفلسفة والحكمة ،
كما نسجل عبقرية برائد الحركة الرياضية والفلسفية في جامعتنا الخالدة
بمراكش الحمراء أول المائة السادسة .

ولا جرم اذا نحن اقتصرنا في ترجمته على الناحية الفكرية والادبية
لما لذلك من الاعتبار في العهد المرابطي الذي كانت العلوم الطبيعية
والرياضية بل وحتى الالهيات مرغوبا عنها بالمغرب الاقصى لميول دولة
المثمين التي ألقت زمام الحكم إلى الفقهاء فأرهبوا المفكرين ونفروا من
مبادئ الفلسفة خوفا على دواتهم من الانهيار والتصدع ، ولا مانع ان
يجعل هذا الامر تعليلا ثانيا لاهمال الفقهاء مالك ابن وهيب .

على أن الذي يرفع من شأن ابن وهيب ويجعله شخصية بارزة من
الشخصيات الممتازة هو نبوغه في العلوم العقلية في عصر ساد فيه الفقه
واستنسر الفقهاء فكان لذلك عظيما يستحق التقديس .

اجل نبغ مالك ابن وهيب في علوم كان التفكير المغربي في احتياج
عظيم اليها فكان مفرد العدوتين ومنار القطرين حيث استطاع بمهارة فائقة
ان يقف في صفوف الفلاسفة من وراء حجاب مع المحافظة على ميول

الدولة مما أظهره في الميادين العلمية بمظهر الرزانة والتعلل لمسيرته العقلية السائدة إذ ذاك في الوسط المغربي مع ضلوعه في الفنون الفكرية التي خاض عابها واكتنه حقائقها بما قام به من دراسات الماديات والطبيعات دراسة تفكير ونظر ويبرهن على اقتداره ما خلفه في الفن من آراء وتعللات تعد غريبة في موضوعها ، وحيدة في محيطها .

على أنه خبر كذلك أحوال العرب واطوارهم في الجاهلية والاسلام ودرس نفسياتهم على ضوء الفكر ونبراس العقل فاستخلص من أحوالهم الماضية ما حبره في كتابه المرسوم بـ(قراضة الذهب ، في ذكر لآم العرب ،) ضمنه أحوال الدولة العربية وما يتصل بها جاهلية واسلاما يضاف إلى ذلك ما ذيل به بحته من الآداب العربي فكان تأليفه الوحيد في موضوعه متداولاً في الاوساط الادبية بمراكش الحمراء قال عنه صاحب المعجب في كتابه الحافل : « رأيت له كتاباً سماه قراضة الذهب ، في ذكر لآم العرب ، ضمنه لآم العرب في الجاهلية والاسلام وضم إلى ذلك ما يتعلق به من الآداب فجاء الكتاب لا نظير له في فنه رأيت في خزانة بني عبد المؤمن » .

ذاك ما يخص ناحيته الادبية ، اما ما يتعلق بالناحية الفلسفية فله فيها بحوث على كتاب الثمرة لبطليموس في الاحكام وناهيك بتقارير ضمنّت لب ثمرة الاحكام في ذلك الموضوع الذي كان في عهد بني تاشفين غريباً ، وله على كتاب المجسطي في علم الهيئة حواش وتقريرات تبرهن تمام البرهنة على ادراكه التام لغوامض هذا الفن مما يستحق به التعظيم والاعتبار وقد

أشار إلى ذلك عبد الواحد المراكشي في ترجمة ابن تومرت حيث قال :
 « ومالك ابن وهيب كان قد شارك في جميع العلوم إلا أنه كان لا يظهر إلا
 ما ينفق في ذلك الزمان وكانت لديه فنون من العلم - إلى أن قال - : ومالك
 ابن وهيب هذا تحقق بكثير من اجزاء الفلسفة رأيت بخطه كتاب الثمرة
 لبطليموس في الاحكام وكتاب المجسطي في علم الهيئة وعليه حواش بتقييده.»
 ولقد تبوأ منصب الاحكام بمراكش الحمراء حيث استوزره علي ابن
 يوسف بن تاشفين فكان عدلا في ولايته ، حكيما في وزارته ، يزن الاشياء
 بميزان العقل قبل ان يصدع بها ، وقد حضر مناظرة الفقهاء في الجامعة
 اليوسفية لدجال الموحد بن المهدي بن تومرت فأمسك عن مواجته منطقيا
 مجارة للقوم في بحثهم وكرهية الانفراد بالرد عليه جدليا في قانون عقلي
 مجرد كي لا يثير عليه حفاظ الفقهاء ، غير انه لاحظ على ابن تومرت دهاء
 غريبا وسرعة خاطر قد يكون لهما اثرهما في الاطلس فتشب في هشيمه
 النيران وتقضي على كل شيء ، لذلك أعطى فيه الوزير ابن وهيب نظره
 الخاص بقتله ، او إيقافه - مع العناية باحواله - في دائرة مخصوصة حتى لا يتصل
 بالرأي العام ويؤثر عليه باسم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكن ما
 ذا يفعل ابن وهيب مع القضاء والقدر الذي تجلى في امتناع علي بن يوسف
 بن تاشفين الذي لم يقتنع من وزيره برأي خاص مجرد عن دليل سمعي
 يقتضي ذلك ، لذلك فاجأ ابن وهيب بقوله : لا أقتل رجلا يقول ربي الله
 ولا اتسبب في تعذيبه ، وسنبسط القضية بحول الله تعالى في محلها اللائق

بتحليلها، ولقد أشار إليها عبد الواحد المراكشي حيث قال في كتابه المعجب: «ولما سمع مالك هذا كلام محمد بن تومرت استشعر حدة نفسه، وذكاء خاطره، واتساع عباراته، فأشار على أمير المسلمين بقتله، وقال هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته، ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه، وإن وقع هذا في بلاد المصامدة ثار علينا منه شر كثير، فتوقف أمير المسلمين في قتله، وأبى ذلك عليه دينه، وكان رجلاً صالحاً مجاب الدعوة يعد في قيام الليل وصوام النهار - إلى أن قال - : فلما يئس مالك ابن وهيب مما أراده من قتل ابن تومرت أشار عليه بسجنه حتى يموت، فقال أمير المسلمين علي : نأخذ رجلاً من المسلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق، وهل السجن إلا أخو القتل، ولكن نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء» .

وقد ضرب أمير المسلمين الرقم الأعلى للعدل في حكمته بإقامة القسطاس المستقيم بين أفراد رعيته لذلك امتنع من الانقياد لرأي ابن وهيب في قتل ابن تومرت ويا ليتة . . .

على أن الذي يهمننا من ذلك هو استخلاص حياة ابن وهيب الإدارية التي اقتبسنا منها آثاره الفكرية التي خلفها كثرات علمي دل على بعد نظره في إدراك الحقائق الفلسفية التي وضعت أسسها المدرسة اليونانية وترجمها للغة الضاد فحول المستعربين في دولة بني العباس واقتفت أثرهم في ذلك دولة بني أمية بالاندلس حتى أصبح في متناول مثل ابن وهيب أن يدرس الآراء الفلسفية سواء منها العربية أو اليونانية .

وقد درس ابن وهيب عناصر المكونات المادية كما درس الامور
الروحية والمعنوية فاستخرج منها ما ضمنه في تقاريره العلمية وتعالقه الفكرية
التي اعتبرناها كمشكاة أسبلت أشعتها على قاعدة الجنوب فاستفاد منها النبوغ
المراكشي أوائل القرن السادس ما عبد الطريق امامه في الوصول إلى
تلك الغايات السامية .

ولا غرو اذا نحن سجلنا اسمه في تاريخنا الجامعي مقرونا باسم الفلسفة
الاسلامية في مراكش الحمراء أول نهضتها العلمية لانه من أول الذين ادخلوا
تلك المبادي الفلسفية إلى عاصمة الملمثين في ولاية أبي الحسن .

مظاهر النهضة العلمية في العهد المرابطي

لقد اقترن عصر أمير المسلمين علي بن يوسف بنهضة علمية زاهرة
اتسع بها أفق المدارك العلمية بمراكش الحمراء في ذلك العصر الذي ظهرت
فيه الدولة المرابطية بمظهر التعمير والاصلاح لأول مرة في تاريخ المغرب
لما اتخذته من الوسائل الناجعة للنهوض بالشعب المراكشي إلى مستوى يساير
فيه الشعوب المتمدنة في الشرق والغرب مما أصبحت به عاصمتهم الجنوبية
كأزهر عاصمة علمية يحفظها التاريخ حيث اجتمع فيها من أسباب العمران
ولواحق التمدن ما تجلى في نهضتها العلمية والادبية تلك النهضة التي
يرجع ظهورها في حلتها الجديدة الى عوامل شتى من أهمها لم شعث الدولة
المغربية تحت لواء واحد وسلطة متحدة يرأسها رجال ماهرون قبضوا على

ناصية الحكم بيد حديدية وقوة فولاذية قضت على الفوضى التي كانت تم
المغرب الأقصى لاضطراب قبائله وضعف دويلاته التي كانت قائمة في كل
زاوية من زواياه قبل ظهور دولة الإصلاح المراكشية التي جعلت العدل
رائدها في سائر المشروعات العمرانية التي اتخذتها في أرجاء المغرب ، وكان
من مشروعاتها العمرانية جلب أساتذة ومفكرين من عواصم الاندلس للقيام
بتدبير الشؤون العلمية والادارية في عاصمة بني تاشفين مما كان له أثر في
النهوض العلمي والسمو الثقافي في ناشئة الجنوب .

على ان من اهم عوامل النهضة العلمية تأسيس المعهد اليوسفي الكبير
بجامعة عليا وضعت لتكون منبراً عاماً للثقافة العمومية بمراكش الحمراء ، ثم
اتسع نورها حتى أصبحت مركزاً رئيسياً للثقافة بالمغرب والجزيرة
لما انتقل اليها من الحضارة التونسية والاندلسية (١) مع اولئك المفكرين

(١) لا يمارى احد من أهل العلم ان الحضارة الاندلسية انتقلت لمراكش بعد استيلاء امير
المسلمين يوسف بن تاشفين على الجزيرة ، كما يوخذ ذلك تلويحاً من إشارة صاحب المعجب
حيث قال : « وحين ملك يوسف أمير المسلمين جزيرة الاندلس وأطاعته بأسرها ، ولم
يتخلف عليه شيء منها ، عد من يومئذ في جملة الملوك ، واستحق اسم السلطنة ، وصار هو
وابنه معدودين في اكابر الملوك ، لان جزيرة الاندلس هي حاضرة المغرب الأقصى ، وأم
قراه ، ومعدن الفضائل منه ، فعامة الفضلاء من أهل كل شأن منسوبون اليها ، ومعدودون
منها ، فهي مطلع شمس العلوم وأقارها ، ومركز الفضائل وقطب مدارها ، — إلى أن
قال : — فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فوله ، حتى اشبهت حضرته
حاضرة بني العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة
ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الاعصار » كما قال في موطن آخر من تاريخه : ولم يزل أمير
المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الاندلس ، وصرف عنايته إلى

الذين انحدروا اليها واتخذوها دار هجرتهم ، ومقر استيطانهم ، تقربا للبلاد المرابطي ، ورغبة في بث العلم والاخلاق الفاضلة ، وقد استعرضنا في التراجم النموذجية بعض افرادهم ، وما يلفت النظر من آثارهم الفكرية ، ليكون

ذلك ، حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك كابي القاسم بن الجد المعروف بالاحدب احد رجال البلاغة » الى آخر ما ذكر ، وتلك حقيقة لا ينزع فيها إلا جاهل او متعنت .

وقد اعترف بهذه الحقيقة وأضاف اليها معلومات اخرى علامة فاس وبحاثته الفقيه الحجوي مندوب المعارف حيث قال في محاضرته التي ألقاها بالمؤتمر الثامن بمعهد الدروس بفاس سنة ١٩٣٣ ونشرت في ملحق خاص بـ (مجلة المغرب) بعد ان تكلم على دولة الادارسة والمكناسيين والمغراويين من عنصر زناتة وتعرض في بحثه للفوضى التي كانت تعم المغرب بعد وفاة المولى ادريس حيث قال في صحيفة ١٤ : « فكان المغرب ميدان مناورة الفريقين ، فضعف ووهنت فواء ونزل به الخلل ، ولم يتسع له حال ، وذلك كله مانع من ظهور الادب الذي هو من الكليات ، ولا يزدهر الا في ارض شملها الهناء ، وتعمت بالحرية ، ومن لا استقلال له فلا تظهر له مآثرة في الازمنة الغابرة ، لذلك لم يحفظ التاريخ لهاتين الدولتين تراجم ووزراء ، ولا كتاب ولا ادياء ، ولا عرف لهما مقام في الادب الكتابي ، مع بربريتهما الجنسية مدة ، نحو مائة وثلاثين سنة من عام ٣١٠ الى عام ٤٥٠ ، فاذا أضفنا فوضى الادارسة من لدن وفاة ادريس الثاني والمغرب في فتن داخلية الا قليلا منه ، كان المغرب مدة قرنين تقريباً موطن فتنه ومجزرة ، لعدم وجود رموس كبار تقدر على ادارته وتعرف كيف تجذب قلوب أهله — الى ان قال : — وبعبكس ذلك كانت القيروان والاندلس ، ففي تلك الفترة تأخر المغرب كثيراً عن جاريته ، ولم يقدر على مجاراتها علما وادبا وصناعة ، لكن لما انعكس الحال في اواسط القرن الخامس وما بعده وصارت مراکش ثم فاس (. . ؟) عاصمة العواصم الافريقية والاندلس تقدم المغرب وانتقل له تقدم القطرين ، وهكذا الدنيا دول ، ولا يدوم لدولة حال ، — إلى أن قال في ادب دولة المرابطين : — ما استراح المغرب من الفتن والخطوب حتى جاءت هذه الدولة الصنهاجية التي لمت شعثه ، ووحدت كلمة الاسلام في المغرب ، وامامت الفوضى والثوار الذين لم يستقم لهم قبل ذلك أمر ، وكونت دولة عظمى في المغرب ، فهي أول دولة عظمى كانت في المغرب على عهد الاسلام ، نصرت السنة والدين والادب

ذلك كرسم تقريبي لتشخيص قادة الفكر بالحرء ، يضاف إلى ذلك عامل آخر ، وهو تنشيط الحركة الادبية من لدن يوسف وبنه بالامدادات المادية التي كانوا يسبلونها على الكتاب والشعراء ، في كل آونة ، وعند كل مناسبة ، مما أعان على النمو الادبي بالجامعة اليوسفية ، حتى أنجبت في ظرف وجيز طائفة من الكتاب والادباء ، مثل كاتب أمير المسلمين احمد بن عطية المراكشي الذي فاق أقرانه وجاوزا ترابه ، حيث ضرب في كل ناحية من نواحي الادب بسهم صائب ، كما أنجبت ولده الاريب أبا جعفر كاتب الامير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ، وسنثت لهما قريباً بعض ما خلدها من منظوم ومثثور كبرهان على عبقريتهما .

والعلم — إلى أن قال — ولما جاء أسدها الهصور ، وليثها الجصور ، يوسف بن تاشفين الذي هو فاروق افريقية تعشق ذلك الجمال الادبي ، ولنا ان نصرح من غير وجل بانه لم يمل إلى ما سواه من الكليات التي رأى هنالك ، من بسطة عيش ، وترفه ، اوتهاك ، فالتفت إلى الادب ، وجمع لديه ادباء ازدان بهم المغرب (بل ازدانت بهم عاصمة الجنوب) وحسن بهم طريقة الكتابة وضاهى بهم كتاب الاندلس ، ولا سيما بعد ما طوى تحت علمه اثنتي عشرة دولة اندلسية من دويلات ملوك الطوائف وأبادهها ، ووجد الكلمة وجعلها كلها تحت حكمه مباشرة ، كما فعل قبل في الدويلات التي كانت ملوك طوائف بالمغرب — إلى أن قال — فصارت مراکش عاصمة المغرب والصحراء والاندلس معا في آن واحد ، وانت تعلم ان العاصمة هي سوق الدولة العام تجي اليها ثمرات تلك العواصم الاندلسية ، فالضرورة قصدها الادباء والكتاب والشعراء والعلماء على اختلاف علومهم — إلى أن قال — واجتمع ببابه وباب ولده علي من الادباء والبلغاء ما لم يتفق اجتماعه بالمغرب ، فكانت سلطنة يوسف ابتداء عصر ذهبي « إلى آخر ما حبر الفقيه الحجوي في بحثه ، أوردناه في هذا التعليق لبيان الحقيقة كما يعتقدونها المنصفون من رجال العلم بفاس . . . ؟

وإلى القاريء الكريم تفاصيل العلوم التي كانت تروج اذ ذاك
بجامعتنا الخالدة، حسبما استخرجناه من دفاتر الكتاب، ومحيطات الاحوال:

التفسير والحديث

لست الآن بصدد البحث في بيان حقائق العلوم، وتمايز الفهوم،
حتى أتعرض لتحديد التفسير والتاويل، والحديث والآثر، بحدود ورسوم،
لان ذلك يرجع إلى دائرة البحث في تمييز عناصر الاشياء وتحديد حقائقها،
مما استوفيناه في غير هذا المحل، وإنما الذي يعيننا من ذكر التفسير
والحديث هو ان نعلن للملاّ عامة انهما من العلوم الرئيسية التي كان
اتصالها وثيقاً بالجامعة اليوسفية منذ برزت في حلتها الجديدة كناد يقصده
المفكرون، وذلك هو ما أريد كشف القناع عنه في هذا المبحث، لأنني
قد حاولت الوقوف على ما كان لهما من الحظ بالوسط المغربي قبل ظهور
الملثمين فلم أظفر بنتيجة يطمئن اليها ضميري للعلم ان تلك المبادئ التي تسربت
منها مع الفاتحين (١) للمغرب قد اختفت في اضطرابات قبل ظهور

(١) قد اتصلت العلوم الدينية بالمغرب الأقصى منذ الفتح الاسلامي الذي امتد سلطانه إلى
مدينة نفيس الأثرية على ضفة تانسيفت قرب مراکش الحمراء في الموضع المشهور الآن
بسيدي شيكر - يعني به شاكر صاحب عقبة ابن نافع فاتح المغرب - وكان ذلك الاتصال
العلمي بواسطة الفاتحين للمغرب، والرحالين منه إلى الحجاز الذي كان عندئذ مطلع نور علم
فسيح الارحاء يعم اطراف الممالك الاسلامية، فاقبس منه المغرب ذلك الشعاع الذي رجع
به الرحالون في اوطابهم، و اضافوه إلى ما خلده الفاتحون، غير ان الحوادث قد طفت
عليه، ولم تلبث ان قضت عليه في مهده، ووأدته قبل فطامه، فأظلمت منه مراع المغرب،

المثمين ، غير اني أجزم بأنهما قد اشتد عضدهما في قاعدة الجنوب وقتئذ نقلت اليها الحضارة الاندلسية في عهد بني تاشفين الذين استولوا على الجزيرة فوضعوا أيديهم على كل نفيس وثمين ، حيث جاء ولعاصمتهم بكل ماله اتصال بالحياة الفكرية مع النبغاء الذين كسوها من نضارة العلم ذلك الثوب الخلاب الذي صيرها كأهم عاصمة مهدت السبيل امام الحضارة والعمران ، ولا ريب ان ذلك الانقلاب الخطير والانتقال السريع صريح في انتقال العلوم الاسلامية اليها من تفسير وحديث لانتقال مفسرين ومحدثين إلى جامعها في ذلك العصر كابي العباس احمد بن الصقر ، وابن أبي الحصال ، واضرابهما من مشاهير المحدثين والقراء .

وقد اشتهرت في الاوساط المطلعة شخصية ابن أبي الحصال بالتمكن من فنون الاثر رواية ودراية ، حتى وصفه ابن الزبير بقوله : « أبو عبد الله ، من اهل المعارف الجمة ، والاثقان لصناعة الحديث ، والمعرفة برجاله ، والتقيد لغريبه ، وإثقان ضبطه » مع العلم بأنه أقام بمراكش زهاء ست وثلاثين سنة ، وهو زمان له أهميته في التعليم .

على ان مراكش لم تعد متخرجين من جامعها في ذلك العهد من محدثين ونبغاء مثل أبي عبد الله محمد بن احمد السرقسطي المراكشي الذي

الابض بصيص بقيت منه بقايا في قواعد المغرب الشهيرة كفاس وسبتة وأصيلا وسجلماسة وأنمات ، وغيرها من مداشر اخرى بقي فيها عرق ينبض ، وحركة قاربت السكون ، إلى ان نجمت بأفق المغرب دولة المرابطين ، فأحييت معالم الاسلام ، وناصرت العلم والدين والادب .

نشأ بمراكش ، وتعلم في معاهدها على طبقة أبيه ، ثم بعد نبوغه رحل
للاندلس فأخذ بها على الشيوخ ما تم به مراسمه التقليدية ، فرجع إلى
مراكش بعلم غزير تصدر لبثه في معاهدها ، إلى ان توفي بها ودفن في
مقابر الشيوخ ، وقد ترجمه في الذيل والتكملة ، ومنحه وصف الحديث
والرواية حيث قال : « وكان بحراً محدثاً راوية مكثراً متسع السماع صحيحه ،
عنى به أبوه فأسمعه في صغره . وسمع بنفسه ، ونشأ طالبا فاستكثر
الشيوخ ، وشغف بتقييد العلم وجمع الفوائد - قائلاً بعد ذلك - وأخذ عن
أبيه كثيراً من كتب الحديث » وقد علمت في ترجمة أبيه أنه كان ممن
وهب نفسه لبث العلوم في الجامعة اليوسفية التي تولى إمامتها واحكام الصلاة
فيها مدة ولاية علي ، كما سبق لنا ذلك في ترجمته ، وذلك كاف في البرهنة
على اتساع دائرة التحديث بمراكش الحمراء في عهد بني تاشفين .

ومن المسلم المعقول ان الحديث والاثار بيان للقرآن ، وتوضيح لمعاني
التنزيل من تفسير وتاويل ، كما يعلم ذلك من صنيع الجامع الصحيح الذي
اشتملت أجزاءه على أبواب التفسير ، وطبيعي ان يدرس من التفسير ماله
اتصال بالحديث ، لتوقف كلا الفنين على معرفة الآخر ، لما بينهما من
الاتصال المعنوي ، والامتزاج العلمي ، كما تدرك هذه الحقيقة من اسباب
التنزيل ، وحدائق التاويل ، زيادة على أن علماء ذلك العصر جلهم قد
خاض في علوم القرآن ، حتى ألقت عدة تفاسير في ذلك العصر ، من
اعظمها (الاحكام) ، و(انوار الفجر) ، لابي بكر بن العربي المعافري في ثمانين

جرءاً وجدت بخزان بني عبد المؤمن بمراكش الحمراء ، وان كنت لا أجزم برواجها في عهد المرابطين ، على ان معظم تراجم الراحلين للحمراء والقاطنين بها لا تخلو من وصف المترجمين بالتفسير والحديث والسير والآثار والاخبار ، وقد سبق ما وصف به ابن أبي الحصال وابن الصقر في آخرين ممن عدوا في صفوف القاطنين بالحركة العلمية بمراكش الحمراء .

غير أنني لا أجزم باسم التفاسير التي كانت تروج عندئذ في وسطنا الجامعي ، وان كدت أقول ان من بينها تفسير ابن جرير الطبري ، لذيوعه في ذلك العصر ، وشهرته في المحافل العلمية بالأتقان والاجادة والتحصيل ، مما يعد سبباً في انتشاره بالحمراء ، سيما إذا ضمنا إلى ذلك ما ذكره بعض المؤرخين من ميول المغاربة في اليهود الاولى إلى مذهبه قبل تمكن المذهب المالكي من العقول المغربية ، لانه ليس من المعقول ان تكون لهم ميول فكرية لمذهب لا يعلمون مكانته ، ولا علموا عن مؤسسه ما يجعله في نظرهم صالحاً للاقتداء ، يزداد على ذلك ان تفسيره هو أعظم تفسير ظهر للوجود في المائة الثالثة ، لاشتماله على افكار حرة ، وانظار صائبة ، قد يثور فيها على بعض الانظار السلفية ، كما قال في بعض وثباته على رأي الضحاك : وهذا القول مما يضحك منه ، مما لا تجده في غيره من التفاسير الاسلامية ، مع تحرر في النقل ، وتثبت في الاقوال ، فهو لعمرى ذلکم التفسير العظيم الذي قال فيه النووي : « أجمعت الامة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري » ، وحرى بالامة ان تجمع على تفسير عظيم يمثل

حرية التفكير ، وملكة النضوج العلمي في ذلك العهد ، فهو بحق دائرة معارف قرآنية ، تلهم التأويل ، وتكسب رسوخ الملكة ، حيث انها تضم بين اجزائها الثلاثين كل ماله اتصال بمعاني القرآن ، مما تبارت فيه الافكار او تواردت عليه القرائح والافهام ، ذاك ما يخص التفسير .

اما ما يخص الحديث فما لامراء فيه ان موطأ الامام مالك قد غمرت اذ ذاك قواعد المغرب وذاعت في اطرافه ذيوعا كبيرا ، حتى انتشرت في كل زاوية من زواياه ، وأصبحت المباحث حول متونها من معترك الاقران في الجوامع الجامعي ، لاعتناء المغاربة بها اعتناء خاصا بالدرس والتحصيل ، والبحث والتحليل ، سيما بعد ذيوع ما كتبه عليها حافظ المغرب ومحدثه أبو عمر يوسف بن عبد البر في شرحه الفاخرين اللذين سارت بذكرهما الركبان ، واشترأت إلى الارتواء من معنيهما الافهام ، وهما (التمهيد ، لما في موطأ الامام من المعاني والاسانيد) وهو ذلكم الثرات الفاخر الذي لم يسبق لذي يراة ان حبر مثله على متن من المتون ، حتى شهد له بتلك المزية مفخرة الجزيرة الاندلسية أبو محمد علي ابن حزم الظاهري بقوله : « التمهيد لصاحبنا أبي عمر لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله ، فكيف باحسن منه » على ان في شرحه الثاني المرسوم بـ (الاستذكار) ، مقنعا لمن رام الوقوف على مذاهب علماء الامصار ، فيما نظموا على موطأ الامام من معاني الرأي والآثار ، لخص فيه من نتائج الافكار ، وحدائق الازهار ، ما يحتاج اليه الباحث في فقه الحديث ، وطبع هذين الكتابين دين على المغاربة

خصوصاً ، وعلى المالكين عموماً ، لنفساسة مكنوناتها الفكرية ، ولأن
 بإخراجها للوجود - مع الانصاف لابن العربي - يؤمن على الفقه المالكي
 من عاقبة الجمود والهمود ، ومن كل ما يهدده من أخطار العقلية الضيقة ،
 والتقليد الجاف ، سيما وأجزاءها توجد موزعة في بعض الخزائن الكبرى
 بالمغرب ، ومن التمهيد بالخزانة الباشوية بالحمراء تسعة أجزاء ، واثنان من
 الاستذكار ، وقد وعد بطبع ما في خزائنه ووعد الحريدين . . . ؟ يضاف إلى
 شرحي ابن عبد البر شرحا البحاثة الباجي (الكبير) و (المنتقى) وهما من
 أخصب وامتع ما انضجته العقلية الاندلسية في تخريج الفروع المذهبية على
 مقتضيات التعليل ، لانهما كانا الصق بالفروع المذهبية منها بمعاني الآثار ،
 لشدة اتصالها بالفروع المالكية ، وقد طبع منها المنتقى بالديار المصرية ،
 واستفاد منه الفقه المالكي مادة غزيرة تدل على براعة الباجي وقوة عارضته .
 على ان عناية المغاربة بصحيح مسلم لا تقل عن عنايتهم بصحيح
 الموطأ ، حيث تناولوه بالبحث والتحرير ، وتصدى لبيان مكنونه مفخرة
 الشمال الافريقي الامام المازري ، فكشف خبيثته بشرحه (المعلم ، على
 صحيح مسلم) استخرج فيه كنوزه الفنية ، ومقاصده السنية ، بكل تحقيق
 وتعليل ، ثم زاد عليه مفخرة الحضرة المراكشية أبو الفضل عياض السبتي
 المراكشي مباحث فنية لها قيمتها الفنية في علوم الحديث ، تواضع في وسمها
 (بإكمال المعلم ، على شرح الامام مسلم) جعلها كتقارير تفصح عن انظاره
 العالية ، واستنباطاته العقلية ، ذات الصبغة العلمية ، ومن ذلك العهد واقلام

المغاربة تتناول صحيح الامام مسلم بالشرح والتقييد ، حتى اعتبر المشاركة عنايتهم به ضربا من تفضيل صحيحه على الجامع الصحيح لابي عبد الله البخاري ، فزيد لذلك في بحوث الاصطلاح موضوع المفاضلة بين الصحيحين الذي أثارته عناية المغاربة بمسلم ، وفتح بعد ذلك باب المناقشة على الصحيح والاصح ، والفاضل والمفضول ، وأصبح ذلك من بديع الاصطلاح ، وقد أشار إلى تلك المنازعة الفكرية الحافظ العراقي في ألفيته حيث قال :

اول من صنف في الصحيح ❀ محمد ، وخص بالترجيح
ومسلم بعد وبعض الغرب مع ❀ ابي علي فضلوا ذا لو نفع
وقال في التبصرة والتذكرة : (ومسلم بعد) أي بعد البخاري في
الوجود والصحة ، وذهب بعض المغاربة والحافظ أبو علي حسين النيسابوري
إلى تفضيل مسلم ، (قلت) ولا ريب ان الخلاف بين المشاركة والمغاربة في
هذه المسألة لفظي ، لان المشاركة لم يعثروا للمغاربة على تفضيل صريح لمسلم
على البخاري حتى تعلم وجهة نظرهم في التفضيل ، وإنما أخذ المشاركة ذلك
من عنايتهم بمسلم ، كما أفصح بذلك الشيخ زكريا لدى بيانه قول العراقي
(لو نفع) حيث قال : لو نفع تفضيلهم لقبل منهم ، لكنه لم ينفع لعدم تصريحهم
بالتفضيل ، ورضي الله عن الحافظ السيوطي حيث خرج الخلاف في ذلك
على حسب الترتيب والتنسيق ، كما ضمنه في بيان جامع الحديث والاثار من
ألفيته الاصطلاحية بقوله :

واول الجامع باقتصار ❀ على الصحيح فقط البخاري

ومسلم من بعده والاول ❀ على الصواب في الصحيح افضل
ومن يفضل مسلماً فانما ❀ ترتيبه وصنعه قد أحكما
ولعل في هذا المقدار كفاية في الافصاح عن عناية المراكشين
بالتفسير والحديث ، وهو صريح في ان الجامعة اليوسفية لم تكن اذ ذاك
قاحلة من معاني الآثار ، كما توهم ذلك بعض المنتسبين للعلم ، لان هذه
الكتب الدراسية كفيلة برفع اللبس الخيم على أدمغة القاصرين ، ولقد صرح
صاحب العبر في تاريخه بعناية المثلثين بالسنة حيث قال في صحيفة ١٢٩ من
الجزء السابع : « وجاءت دولة المرابطين فجمعت ما كان متفرقا بالمغرب من
كلمة الاسلام وتمسكوا بالسنة » فأعرب عن تمسك دولة المثلثين باهداب السنة
المطهرة ، كما صرح بذلك في المقدمة ، على ان غيره حكى ذلك المقدار عن
هايتك الدولة ، حتى كاد ان يكون محل إجماع من المؤرخين والفقهاء ،
وكيف لا تكون كذلك وهي أول دولة مغربية قامت بدعوة الحق ،
ونصرة الدين ، وحماية الاسلام ، كما شهد بذلك أبو بكر بن العربي المعافري
في عارضته ، وسنعود لكشف الغطاء عن هذا الموضوع بحول الله في عصر
النور العلمي بمراكش الحمراء لدى ذكر الدولة الموحدية .

القراءة والرسم

لما كان استخراج معاني القرآن مرتبطا بمعرفة نظمها الوضعية التي لها
اتصال وثيق بفهم اسرارها ، كان لزاما على كل من رام البحث فيه ان يلم

بفن القراءات ، ليستعين بها على اكتشاف معاني التأويل ، لذلك كانت العناية بمسألة القراءات من أهم ما شغل افكار المفسرين منذ أصبحت التفاسير فنية ، تشمل في سطورها بحوثاً نظامية تناسب بلاغة القرآن وأساليبه الاعجازية ، وان كانت العناية بها ترجع إلى أمد بعيد ، حيث انها كانت وليدة التنزيل ، منذ تواترت فيه عن الرسول صلى الله عليه وسلم القراءة بالاحرف السبعة التي بها نزل القرآن ، ثم أصبحت بعد ذلك فنامهما من الفنون الاسلامية التي غني بها منذ توزيع المصاحف العثمانية على ممالك الاسلام ، ومن يومئذ صارت جوهرية للمفسر في بحثه العلمي ، يعرضها أمامه ليستخرج ما ينبئ على اختلافها من الانظار لدى اختلاف الرواية ، جمعاً وافراداً ، وغير ذلك مما تكفلت به كتب الرواية الخاصة التي اتسعت دأرتها حتى تناولت الشاذ والغريب ، مما قد تعلل به مغايرة الرسم الوضعي للمصحف التي نتج عنها ابتكار فن الرسم الذي يعني به تحديد اوضاع الكلمات القرآنية ، حسبما رسمت في وقت التنزيل ، وسواء كان ذلك سبباً لوضع الرسم ، او كان من عدم إحسان الخط كما ذهب اليه صاحب العبر ، فذلك لا يهمننا الآن ما دمنا نميل إلى الجزم بأن فن الرسم مرتبط بالقرآن العظيم من ناحيته الوضعية التي تستلزم انتشاره في الوسط المراكشي منذ أصبح القرآن وديعة في صدر الطفل المغربي ، وان كان ابن خلدون جعله في مبحث القراءات مرتبطاً بها حيث قال : « وربما أضيف إلى ذلك فن الرسم ، وهو اوضاع حروف القرآن في المصحف ورسومه الخطية ، لان

فيه حروفا كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخط ، كزيادة الياء في بآييد ، والالف في لاأذبجنه « إلى آخر ما سطر من الكلمات التي احتار في تحليل مخالفتها للرسم العربي ، وابتى التسليم بصحة التعليقات التي يذكرها القراء ، وقد ثار على ذلك في فصل صناعة الخط عند العرب ، حيث جعل تلك المخالفة نتيجة لرداءة الخطوط العربية في طفولتها (١) ،

(١) ان من أهم المشاكل التي يجابهها الباحثون في هذا العصر مشكلة الرسم القرآني التي أصبحت محل صراع عنيف بين المحافظين والمجددين ، فجماعة التجديد — وعلى هامتهم صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر — ترى من الإصلاح الضروري للمصحف تغيير رسمه العتيق ، والرجوع به إلى أوافق الخط العربي ، مجارة للعمران ، وترقية لخط المصحف ، وجماعة المحافظين تصرخ من ذلك وتجعله عبئاً ثقيلاً تطالب بانقاذ الخط المصحفي منه ، لأنها ترى فيه انتهاكاً لقداسة خط الكتاب المنزل ، وهكذا تصبح هذه المشكلة من معترك الأفهام بالقاهرة ، كما نبأنا بذلك الصحف الشرقية ، وعلى هامش ذلك أقول : لقد آن لمشكلة الخط المصحفي ان تسوى بطريق مشروعة توافق الترقى ، ولا تمس بكرامة المصحف ، ولو باحالة تلك القيود الخطية العتيقة على رف المحفوظات التاريخية ، لان التطورات العمرانية تقضى بهذا النوع الجديد من الابتداع الذي تستحسن فيه وحدة الخط العربي التي ينشدها الاستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي ، وهي فكرة سامية يوافق عليها المفكرون ، ما دامت لم تؤد إلى تغيير جوهرى للتلفظ بكلمات القرآن ، وذلك ما لا ينشأ عن تغيير رسم الحيو والزكوة ونظرائها إلى الحياة والزكاة مثلاً في وضعها الخطي الموافق للاوضاع العربية ، وعليه فلا مانع من الموافقة على تنفيذ الرغبة الرامية الى اتحاد خط المصحف بالخط الوضعى للغة الضاد ، اللهم الا اذا قيل ان الرسم توقيفى ، يرجع امره إلى المشرع الاعظم عليه الصلاة والسلام ، وتلك حجة المحافظين التي لا يمكن طردها في الزوائد المحدثه في الرسم القرآني ، المجموعة في كتب سليمان والخراز ، مما يعد صريحاً في عدم توقيف الرسم ، على ان هناك من زعم غير ذلك بان علل ايجاد الرسم على صفته العتيقة لمعنى من المعاني كالاشارة إلى عدم انجاز الذبح بزيادة الالف في (لا أذبجنه) ، أو للدلالة

قائلاً بعد: « ولما جاءت هذه المخالفة لوضع الخط وقانونه احتيج إلى حصرها ، فكتب الناس فيها أيضاً عند كتبهم في العلوم ، وانتهت بالمغرب إلى أبي عمرو الداني . »

ومن الطبيعي لهذه التطورات أن يكون فن الرسم والقراءة انتشرا بمراكش الحمراء في عهد الدولة المرابطية التي كانت تعني بترقية المدارك في عاصمتها الحلدة ، ويستأنس لهذه الحقيقة التي لا يمارى فيها إلا متعصب بقول

على مزيد القوة كالياء في (بأيد) ونظرائها ، مما مار عليه ابن خلدون وزيفه تزييفاً شنعاً فيه على مدعيه بقوله : « ولا تلتفتن إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط » إلى آخر كلامه .

على أن هناك مجتهد جديد زعم أن ذلك ضرب من ضروب الإعجاز اللفظي لغير المتخرجين من الكتاب . ؟ بيد أن القول الفصل في هذه المسئلة هو ما صدع به فيلسوف المغرب في المائة الثامنة من أن الرسم ناشئ عن عدم تحسين الخطوط حيث قال في مقدمته : « وكانت كتابة العرب بدوية — إلى أن قال : — وانظر ما وقع لاحقاً لذلك في رسمهم المصحف ، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير مستحكمة في الإجابة مخالف الكثير من رسوماتهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط ، ثم اقتنى التابعون من السلف رسمهم تبركا — إلى أن قال : — فاتبع ذلك وأثبت رسماً ، وبه العلماء بالرسم على مواقعه ، ولا تلتفتن إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط ، وإن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصل الرسم ليس كما يتخيل ، بل لكلها وجه — إلى أن قال : — ولا أصل لذلك إلا التحكم المحض ، وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيهاً للصحابة عن توهم النقص في قلة إجابة الخط وحسبوا أن الخط كمال فزهوهم عن نقصه ، ونسبوا اليهم السكال باجادة ، وطلبوا تعليل ما خالف الإجابة من رسمه ، وذلك ليس بصحيح » وهكذا يكون ابن خلدون قد رأى وجوب تغيير الخط المصحفي تغييراً يوافق صناعة الخط ولا يمس بجوهر القرآن ، وتلك أمنية الجماعة الآن في وادي النيل ، والله الموفق للصواب .

صاحب العبر في مقدمته ، لما تكلم على الخطوط ، وكيف تقدمت في المغرب بانتقال الفنانين اليه في عهد الممتونين : « فانتشروا - يريد الاندلسيين - في عدوة المغرب وإفريقية من لدن الدولة الممتونية إلى هذا العهد ، وشاركوا اهل العمران بما لديهم من الصنائع ، وتعلقوا باذيال الدولة - إلى أن قال - وصارت خطوط أهل إفريقية كلها على الرسم الاندلسي » مع ما سبق عن ابن خلدون انه يعلل مسألة تخالف الرسم بعدم تقدم الخطوط في صدر الاسلام ، لذلك جعله في بعض بحوثه من متعلقات الخط ، وذكر انه انتقل للمغرب في عهد بني تاشفين الذين اعتنوا بتحسين الخطوط ، مما يبين بجلاء ووضوح موقف الجامعة اليوسفية التي كان لها الحظ الاوفر في إحياء فن الرسم والقراءة ، لارتباط الرسم بالتنزيل ، والقراءة بالتفسير والتاويل ، وذلك ما نريد تخليده في هذا المبحث حيث إن الرسم من الضروري لحافظ القرآن . غير أنني لم أعثر لقراء مراکش في ذلك العهد (١) على تأليف خاصة لهم بهذين الفنانين العظميين ، ولعل ذلك لاعتمادهم على كتب الامام الكبير أبي عمرو الداني التي اشتهر منها في المغرب لذلك العصر كتابه الجامع الكبير ، والقاموس الشهير ، الموسوم بـ (جامع البيان) في القراءات السبع المشهورات ، وكتابه (التيسير لحفظ مذاهب القراء السبع) ذلكم التيسير الذي اعتمده

(١) اما بعد العهد المرابطي فقد ألف المراكشيون في فن الرسم ، ومن اجل ما كتبوه في الموضوع الكتاب المرسوم بـ (عنوان الدليل ، في مرسوم خط التنزيل) للبحاثة الكبير أبي العباس المراكشي ، وجه فيه مخالفة الرسم توحيا معقولا يدل على غزارة علمه وحصافة رأيه .

المراكشيون وعولوا في الرواية عليه ، لانه ينير السبيل امام القارئ النبيه الذي لا يريد تجشم مشقة التبع لمواقع الخلاف في دواوين القراء ، فبقى لذلك المرجع الاعلى للقراءة في المغرب ، لعدم ظهور ما يصرف عنه النظر في ذلك العهد ، كما ائتمد كذلك في الحضرة المراكشية كتابه (المقنع) في فن الرسم حيث اقتنع قراؤها بما رسم فيه من المبادي والغايات ، التي يرجع تعليلها غالبا إلى مراعاة خط المصحف في صدر الاسلام ، وقد وقفنا في بعض الخزان المصرية على كتابي أبي عمرو الداني التيسير والمقنع اللذين ذاع امرهما في المغرب قبل ظهور كتب أبي العباس المراكشي والشاطبي ، وسليمان بن نجاح ، والحراز ، وغير ذلك ، قال ابن خلدون في مقدمته بعد ان تكلم على المقنع لابن عمرو ومنطومة أبي القاسم الشاطبي : « ثم كثر الخلاف في الرسم في كلمات وحروف اخرى ذكرها أبو داود سليمان ابن نجاح من موالي مجاهد في كتبه ، وهو من تلاميذ أبي عمرو الداني ، والمشتهر بحمل علومه ، ورواية كتبه ، ثم نقل بعده خلاف آخر فنظم الحراز من المتأخرين بالمغرب أرجوزة أخرى ، زاد فيها على المقنع خلافاً كثيراً ، وعزاه لناقله ، واشتهرت بالمغرب ، واقتصر الناس على حفظها ، وهجروا بها كتب أبي داود ، وأبي عمرو ، والشاطبي في الرسم » .

الفقه والاصول

لامراء ان الفقه الاسلامي ترعرع في العهد المرابطي بالمغرب ،

وخصوصاً المالكي الذي اتصلت مبادئه بالمغرب الأقصى منذ الفتح الاسلامي ، فوافقت العقلية المغربية ، وصادفت قلباً خالياً فتمكنت ، ولا نعلم ان مذهباً من المذاهب الفرعية دخل المغرب فأتسعت دائرته كالْمذهب المالكي ، وان كانت بعض المبادئ الخنفيه لمحت بها السوانح في العهد الاول ، كما لمحت بمبدأ ابن جرير والاوزاعي ، وكذا المذهب الظاهري تسرب كذلك للمغرب من الاندلس ، وان صحت تلك المزاعم أفادت ان كل تلك المبادئ المذهبية لم تجد لها مجالاً للاتساع ، فرجعت من حيث أتت ، وسواء سلطنا بدخول تلك المذاهب للمغرب الأقصى قبل العهد المرابطي ، ام لم نسلم ، فاننا نجزم بان الفقه المالكي قد تمكن اذذاك من قلوب المغاربة ، وطفى على كل مبدأ كان يحاول التسرب للمغرب ، سيما في عهد بني تاشفين الذين كانوا لا يؤمنون إلا بالفقه المالكي الذي ربيت عليه ناشئتهم ، فأشربت قلوبهم حب ذلك المذهب السديد الذي وطدوا دعائمه في ارجاء المملكة المغربية ، حيث قربوا الفقهاء لدستهم ، ووهبوا لهم من الحكومة كل شيء ، فخصصوهم بمناصب الحكم في الدولة ، فهم قضاة الامة ، ونوابها ومستأثروا اولى الامر فيها ، مما استأسد به الفقهاء ، ورفع مستواهم في جميع الميادين الشعبية والحكومية ، حتى غص بذلك الشعراء ، وحنقوا على تقديم الفقهاء ، لانهم لم يتعودوا ذلك بالاندلس في عهد ملوك الطوائف ، ويظهر مقدار حقهم على الفقهاء بما كالوا لهم من الهجو في مثل قول أبي جعفر احمد بن محمد المعروف بابن البني الجياني :

اهل الرياء لبستموا ناموسكم ❀ كالذئب أدبج في الظلام القاتم
فلستم الدنيا بمذهب مالك ❀ وقسمتم الاموال بابن القاسم
وركبتموا شهب الدواب باشهب ❀ وباصبغ صبغت لكم في العالم
يهجو الفقهاء ، ويعرض باساطين المذهب ، غير ان الفقهاء لم يعيروا
تلك الفئة الخائفة ادنى قيمة ، لذلك أعرضوا عنهم ، واعتمدوا على فقهم
واقثناء ثروتهم ، بدون مبالاة بالهجو ، حيث ان الفقهاء اعتبروا ذلك
ضربا من الجنون ، وقد ذكر صاحب المعجب حالة الفقهاء في عهد علي
بقوله : « فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا ، وانصرفت وجوه الناس اليهم ،
فكثرت لذلك أموالهم ، واتسعت مكاسبهم » قائلا بعد ذلك : « ولم يكن
يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده الامن علم علم الفروع ، اعني فروع
مذهب مالك ، فنفتت في ذلك الزمان كتب المذهب ، وعمل بمقتضاها ،
ونبت ما سواها » مما يعرب عن الحالة الفقهية في ذلك العصر الذي وصلت
فيه الفروع المذهبية إلى ذروة المجد والشرف ، لعطف الحكومة المرابطة
عليها ، وإيمانها بما تضمنته من آثار وأخبار ، لان المالكية لم تكن جامدة كما
اتهمت بذلك من بعض القاصرين في هذا العصر ، بل كانت مزيجا بالسنة
والانظار السلفية ، والاستنباطات الفقهية ، مما كانت به القوانين المذهبية
اوسع مما يفهمه الفقهاء في المختصرات الضيقة التي ولعت بها الافكار ،
وتبارت في مضارها الاقلام ، من عهد ابن الحاجب ، على ان باب الاختصار
قد فتح على مصراعيه من عهد التهذيب للبرادعي ، حيث راعي الفقهاء في

الاختصار تقاصر الهمم ، فأثر ذلك على التعليم ، اوقوف الناس عند حدود المختصرات التي ثار عليها صاحب العبر في بعض فصول مقدمته ، حيث قال ما مؤداه : فصل في ان كثرة الاختصارات مخلة بالتعليم ، حيث عسرت على الافهام لاختصارها ، حتى صارت كالبرنامج للمسائل العلمية ، كما فعل ابن الحاجب في مختصري الفقه والاصول ، قائلًا وهو فساد في التعليم ، وفيه إخلال بالتحصيل ، لعسر تفهم الفاظها ، وتشعب طرقها ، الى غير ذلك مما لا تجده في الكتب المبسوبة التي كانت تروج إذ ذاك في الاوساط العلمية ، مثل البيان والتحصيل لزعيم الفقهاء ابن رشد الكبير ، والعتبية ، والواضحة ، والمبسوبة ، واختصارها لابن رشد ، والمقدمات له على المدونة ، والمختلطة ، والتهذيب ، والنوادر ، وكتب الباجي ، والكافي لابن عبد البر ، وغير ذلك من الكتب الدراسية التي كانت تملأ خزائن بني تاشفين ، وبالوقوف عليها يمكن للباحث ان يرى في سطورها الجمع بين سداد الرأي ، وصحيح الخبر ، ومحكم القياس ، بطريقة محكمة أسست على قواعد الاصول المذهبية ، الموضوعية لبيان استخراج الاحكام من الكتاب والسنة بطرق الاستدلال مما استخلصه الامام المازري في شرحه على البرهان ، على ان كتب الفقه كانت كفيلة بذلك النوع من البيان ، حيث تخللت الاحاديث فصولها كما أفصح عن ذلك ابن خلدون في مقدمته لما تكلم على علوم الحديث وعلى اعتناء المغاربة بشرح مسلم في قوله : « وأما كتب السنن الاخرى وفيها معظم مأخذ الفقهاء فاكثر شرحها في كتب الفقه » فجعل الكتب المتداولة في

ذلك العهد كشروح بليغة لبقية كتب السنن ، وذلك برهان على ما ذهبنا إليه من غناء كتب الفروع بالثروة الحديثة التي كانت تمزجها .

وما يوهمه صاحب المعجب لدى تحدّثه عن الفروع المذهبية بقوله : « ونسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء » من تناسي دراسة الحديث يحمل على عدم العناية بأسانيدھا ، وما يرجع إلى اصطلاحھا ، لا ما يرجع إلى تفهم متونها ، فإن العناية به كانت بالغة حدھا الاعلى ، كما يوخذ ذلك من كلام صاحب العبر ، على ان قول صاحب المعجب (كل العناية) لا يفيد تناسي السنة من كل وجه ، بل ينتج ان بعض الاعتناء واقع مسلم ، ويمكن حمله على ما يخص الاستنباط ، وهو لعمري أهم ما يقصد من الحديث ، سيما بعد تمايز الاخبار ، واجماع علماء الامصار على مراتب السنن ، فلذلك يحق للفقهاء الذين كانوا يعيشون في ذلك العصر ان يفتخروا بهذا الحظ الوافر من الدراية التي تعتبر حجة بالغة على النضوج العلمي حيث انها نتيجة للتمكن من احكام القواعد الاصولية التي تعد صلة وصل بين الفروع المذهبية وبين الكتاب والسنة تلك القواعد التي تستوجب اضطلاع الفقهاء بالمدارك المعتمدة لدى ائمتهم كي يتبعوا منهاجها ويسلكوا سبيلها للأخذ بناصية الاحكام الفقهية . لذلك أصبحت المآخذ الاصولية من اللوازم الضرورية لهم باعتبارھا وسيلة للاستحكامات الفرعية ومن اجل تلك الغاية اجتهد الفقهاء في تحرير مناطھا ببيان طرق الاستدلال وكيفية

الآخذ بكل ما أوتوه من براءة وإحكام، ولقد أشار إلى هذه الحقيقة صاحب المقدمة بقوله: « فلما انقضى السلف وذهب الصدر الأول وانقلبت العلوم كلها صناعة كما قررناه من قبل، احتاج الفقهاء والمجتهدون إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستفادة الأحكام من الأدلة فكتبوها فنا قائماً برأسه سموه أصول الفقه » مما يوضح جلياً ما ذهبنا إليه من أن علم أصول الفقه كان ولا يزال من الفنون الضرورية للفقهاء حيث أن الفقيه الضليع يحتاج في تأصيل مذهبه إلى ذلك الفن البديع الذي يعد واسطة بين العلوم الفرعية والعلوم الأصلية، أو بين الفقيه وبين استخراج مسائله المذهبية بطريقة الآخذ المحكمة، مع التسليم بأن الفقهاء في عهد بني تاشفين برعوا في استخراج المسائل براءة تامة تدل على إحكامهم لوسائل الاستنباط المنوط ببيانها بعلم الأصول، لأن من المسلم المعقول أن التفريع المذهبي والتخريج الفرعي يتعذران على الفقيه بدون أن يلم بالمدارك الأصولية التي اتفق الأئمة منها على الأربعة المشهورة - الكتاب - السنة - الإجماع - القياس - حيث أنها من أهم المواد التي يتوقف عليها الأصولي في تبينه، وإن كان مالك رضي الله عنه زاد عليها مدركا آخر خاصاً، وهو إجماع أهل المدينة وعملهم، على أنه لاحظ في أصوله اعتبارات شتى كالمصالح المرسلة، وسد الذرائع، والجمع بين الأدلة، والاستحسان، وغير ذلك مما هو مسطور في دواوين الأصوليين، وقد خصص ابن خلدون بالذكر عمل أهل المدينة حيث قال: « واختص مالك بزيادة مدرك آخر للأحكام غير المدارك المعتبرة عند

غيره ، وهو عمل أهل المدينة ، لانه يرى انهم متابعون لمن قبلهم ، فكانت هذه المدارك من أهم محتويات الاصول .

وقد كان لفقهاءنا المراكشيين اهتمام عظيم بمداينة فن الاصول في معاهدنا الدينية تحت ظلال العرش المراكشي الذي حافظ على الفقه والسنة ومعالم الاسلام منذ نجم بافق المغرب ، كما يؤيد ذلك ما ذكره ابن البار في معجم أصحاب الصدي في صحيفة ٥٦ من طبعة اوربة لدى ترجمة ابراهيم بن يوسف بن تاشفين حيث قال : « وفي دولة أخيه نفقت العلوم والآداب ، وكثرت النباء وخصوصاً الكتاب ، وحكى أبو بكر بن الصيرفي في تاريخه ان عليا استجاز الراوية أبا عبد الله أحمد بن محمد الخولاني جميع روايته لعلو اسناده فأجازه ، وأبوه أبو يعقوب مع نشأته في الصحراء كان لا يمضي أمراً إلا بمشورة الفقهاء . »

وبالول نظرة في الكتب الفقهية التي كانت سوقها رائجة اذ ذاك بجامعةنا اليوسفية كاليان والمبسوطة وكتب الامام المازري التي كانت تملأ الخزائن المراكشية تدرك ما كان لذلك العهد الحافل من النتائج الحسنة على العقلية المغربية التي أخذت في التطور الفكري والسمو الثقافي من يومئذ ولعل في هذا البحث كفاية لمن ألقى السمع وأنصف الحقيقة وبالله التوفيق .

النحو واللغة

أما النحو واللغة فقد كان اتصاها بالجامعة اليوسفية وثيقاً جد الوثوق

منذ عهدھا الاول لكونھما من اللوازم الضرورية لتناول الفنون ، بل لانھما المفتاح الوحيد لحل مغلفات الفھوم ، ومشاكل العلوم بعد ان صارت الفنون صناعة تتوقف على دراسة الوسائل الفنية للاضطلاع بابعائها ، وكان من اھم تلك الوسائل النحو واللغة اللذان اشتغل المسلمون بدراستهما دراسة أولية منذ ظهور مدرستي البصرة والكوفة على مسرح المناظرة والمبارزة في المائة الاولى لفجر الاسلام حيث أسست قواعد النحو وجعلت اصلاً متيناً لتوضیح مبہمات العلوم ، سيما بعد ان زحرت القواعد النحوية ، والمواد اللغوية ، بانتشار تألیف زعماء المدرستين في الاقالیم العربية ، ككتب الخلیل بن احمد الفراهیدی وكتاب سیبویه الذي أصبح مدونة النحاة شرقاً وغرباً وكتب الکسائي والقرءاء ، التي كانت من يومئذ تتنازع البقاء ، على انه مهما تفوقت مدرسة البصرة على الكوفة فلهفراء انظار معقولة لا تنکر .

غير ان المذهب البصري قد اشتد ساعده وقوي عضده بكتاب سیبویه الذي فاق سائر الكتب النحوية حتى أحرز على مكانة جعلته المرجع الاعلى في الاقطار العربية التي أصبح لفظ الكتاب عندها من الاعلام التي لا تنصرف إلا اليه ، وهو حري بذلك لانه أول دائرة معارف نحوية لغوية أدبية ظهرت في عالم التألیف اذ ذاك فأمدت النحو واللغة والادب وتناولت اللهجات العربية بصفة لا توجد في غيرها الى غير ذلك من المسائل التي لا غناء للطالب النبیه عنها في حياته العلمية ، سيما وهو فقير إلى

دارسة مثل ذلك الاسلوب العربي الساذج ذي البداوة الأخاذة التي تملك عليه مشاعره ، وتمرسه على كثير من الفنون بدون ان يتجشم مشقة التبع لمراحل الانتقال .

وقد تناوله الاندلسيون بالشرح والتعليق كما تناوله بعد المراكشيون . وقد أجادت قريحة البحاثة الاندلسي أبو سليمان يوسف بن سليمان بن عيسى الشنمري المعروف بالأعلم من رجال المائة الخامسة بحثاً ضافياً على شواهد الكتاب سماه « بتحصيل عين الذهب ، من معدن جوهر الادب ، في علم مجازات العرب ، » فكان بحثه من أحسن ما كتب على شواهد الكتاب ، وفي عنوانه ، ما يشف عن عظيم مكنونه ، وقد طبع مع الكتاب بالمطبعة الاميرية بمصر سنة ١٣١٦ هجرية .

ولأهمية كتاب سيوييه اعتنى به الغربيون عناية خاصة حيث طبعت منه أجزاء بأوروبا مراراً ، وقد طبع منه الجزء الاول ببباريس سنة ١٨٨١ م . مع مقدمة افرنسية لمصححه « هورتيج » ، كما طبع الثاني منه على أجزاء صغيرة ببباريس سنة ١٨٨٩ بتصحيح « نورنبرج » مما يدل دلالة واضحة على أهمية الكتاب وقداسته في مختلف العصور حتى عند الغربيين .

على ان كتاب الايضاح للامام أبي علي الفارسي النحوي المشهور لم يكن بأقل انتشاراً في الوسط المراكشي من كتاب سيوييه ، وهو كتاب له قيمته الفنية ، يضم الى النحو الصرف ، وقد بوبه مؤلفه على مائة وست وتسعين باباً ، خصص منها للصرف نحو الثلاثين ، وتوجد منه حتى الآن

نسخ بالخزائن الجنوبية بالمغرب يرجع تاريخ نسخها إلى أمد بعيد ، كما توجد منه بدار الكتب المصرية نسخة بخط مغربي قديم يرجع تاريخه إلى أوائل المائة السادسة وبهامشه تقارير وتلويت مع خروم بسيطة ، وانتساخ هاتيك النسخ بخط مغربي قديم يؤيد ما ارتأيناه من اعتماده في الجو الجامعي بمراكش الحمراء .

على ان اعتناء المراكشيين والمغاربة بدراسة كتاب سيويوه في مختلف العصور نص عليها المؤرخون في كتب التراجم والطبقات ، ورواج مثل كتاب سيويوه في الاوساط المغربية كافٍ في التعرف بهم إلى لغة الضاد ، لأن فيه مقنعاً للراغبين ، غير ان المراكشيين كانت لهم عناية خاصة باللغة العربية على انفراد كفن مستقل عريق في الاستقلال والتفرد ، حيث ان كتب ابن سيده المخصص والمحكم المحيط كانت تملأ خزائهم منذ استيلائهم على ثروة الاندلس الادبية بتوارد الكتاب والادباء على قاعدتهم الجنوبية التي زخرت خزائنها بما يحجي اليها من ثمرات الافكار الاندلسية التي كانت لا تخلو من أمثال المخصص والمحكم ، ذلكما الكتابان العظيمان اللذان أحرزا على مكانة عليا من بين سائر الكتب اللغوية ، مع تباينهما الوضعي حيث ان المخصص رتبة صاحبه على كتب خاصة حلل فيها عوارض الاشياء جاعلا في طليعتها كتاب الانسان الذي افتتح به مخصصه وحلل فيه أطواره وأوصافه خلقا وخلقاً بما لا مزيد عليه من كل ما يستجد على الانسان من عوارض وينتبه من أحداث ، زيادة على ما أودعه ضمن كتبه من أسرار الفرق بين

المترادف الوضعي ، والذي اكتسب اسم الترادف من الاستعمال ، معربا عن تلك الكلمات المتشابهة التي قد لا تؤدي معنى الترادف المطلق وانما لوحظت فيها صفة قد يلزمها ذلك المعنى بملاحظة معنى صفة اخرى ، مما تفنن الناس فيه ومنحوه اسم فقه اللغة كعلم مستقل ، وقد تناول ضمن أبواب المخصص الاوضاع الصرفية ، والاوزان الوضعية لما نطقت به العرب على تلك الصيغ السمعية ، مستقصياً شواذها وشواردها بصفة يغني عن التحدث عنها طبع الكتاب ووجوده في الخزائن العلمية بالمغرب ، على ان ابن سيده وضع مجهوده الفكري في إجادة كتاب المحكم المحيط الذي أبرزه على صفة تتجلى فيها رقة التصنيف ، وصناعة التأليف ، ودقة التصوير للحقائق اللغوية على شكل بديع ياخذ بالالباب ، ويشف عن ثرات عظيم يحفظ للعروبة أفخر ثروة في صفحاته الخالدة ، وقد تناول فيه فصولا حتى من غريب الكتاب والحديث وطرفا من النحو والآداب كما يعبر عن ذلك عنوان الكتاب ورسمه وهو يفاير المخصص في ترتيبه حيث انه رتب على الاحرف الحلقية (١) .

ومن أهم محتويات المحكم تلك القواعد التي أودعها فيه مؤلفه كمرجع متين يطمئن اليه الباحث في الفرق بين المجموع وأسمائها ، والتخفيف البدلي

(١) قد رمز بعضهم إلى ترتيب المحكم بهذه الابيات التي يؤخذ ترتيبه من أوائلها وهي :

☆	قليل كرى جفني شكى ضر صده	علقت حبيبا هنت خيفة غدره
☆	ظلامته ذنب ثوى ربع لحده	سبي زهوه طفلا ديانة تائب
☆	ملاحته أجرت ينابيع وجده	نواظره فتاكة بعميده

والقياسي ، وكذلك الفرق بين القلب والابدال ، والتنقيص على شواذ النسب وصيغه السمعية ، وتصاريف الاوزان الوضعية ، ومواطن الادغام ، ومخصصات الجموع ، إلى غير ذلك من المباحث التي يستظرفها الاذكياء ، ويجهل محاسنها الاغبياء .

وقد كنت شديد الحرص على الاطلاع عليه ايام كنت بوادي النيل العزيز ، فحذا بي الشوق إلى تخصيص وقت للوقوف عليه بدار الكتب المصرية (١) ، فنصفحت بعض أجزاءه ، واستجلت منها معاني لطيفة ، ومباحث لغوية راقية ، منها ما جعله كقاعدة لبيان الفعل المنقلب عن أصل والفعل الذي يعتبر لغة مستقلة ، واضعاً لذلك حداً بين الفعلين ، وهو وجود المصدر ، فكل فعل له مصدر كجذب وجذب فهو أصل مستقل ، لان لكل واحد منهما مصدراً خاصاً ، ومن لا مصدر له كأيس فهو منقلب عن أصله الذي هو يئس ، لعدم وجود مصدر الاول ، مع ثبوت مصدر الثاني الذي هو اليأس قائلاً : « ولا يحتاج باياس اسم رجل ، فانه من الأوس ، وهو القطا ، كما سمي الرجل عطية وهبة الله - إلى أن قال - : وإذا تغير شكل المقلوب عما انقلب عنه علمت أن تحول شكله لا يبرئه من الانقلاب ، كما حكاه الفارسي من قول العرب له جاء عند السلطان فان هذا منقلب عن وجه وان تغير البناء » في أمثال هذه التعابير الراقية ، التي ضمنها في مقدمة كتابه كقانون لبيان الفعل الاصيل والمنقلب عن أصل ، وهو مبحث لطيف .

(١) الموجود منه بدار الكتب المصرية ثمانية عشر مجلداً بخط مغربي قديم .

ومن أطف ما نص عليه في أول المحكم بيان بعض الجموع التي يستوي في صيغتها الخاصة جمع القلة والكثرة ، جاعلا ذلك من الخصوصيات التي امتاز بها المحكم حيث قال : « ومنها أن يكون الاسم يكسر على بناء من أبنية أدنى العدد واكثره ولا يتجاوز به الى غيره ، فإذا جاء مثل هذا فإنه لا يكسر على ذلك ، وذلك نحو الافئدة والاذرع والأكف والاقدام والارجل ، فإنه لا يكسر واحد من هذه عند سيويته على غير هذه الابنية الدالة على أدنى العدد وان غنى به الكثير » ولو لا خشية التطويل لاثبتت كثيراً مما اقتطفته منه ليطالع القراء على نبذ من تصنيفه قبل أن تهيب الاقدار طبعه (١) ليستفيد منه العام والخاص .

وإنما خصصنا المحكم والمخصص بالذكر من بين الكتب اللغوية التي كانت تملأ الخزائن المرابطة في عهد بني تاشفين لما للكتابين من الأهمية في ترقية المدارك الفكرية في وسطنا الجامعي ، وليس معنى ذلك ان المغرب كان خلواً من غير المحكم والمخصص ، والكتاب والايضاح ، ولكن كان التعويل في الدراسة على الكتب الاربعة ، والله الموفق للصواب ، واليه المرجع وإليه المآب .

(١) لقد كان الاستاذ حسن باشا عاصم رحمه الله يقول : « إذا يسر الله لي طبع كتاب المحكم لابن سيده فأنني أموت آمناً على اللغة العربية من أن تموت » وأنا نتحن من صميم أقدتنا ان تهتدي دار الكتب المصرية إلى طبع ذلك الكتاب العظيم وما ذلك على همه مديرها العظيم الاستاذ الكبير الدكتور منصور باشا فهمي بعيد لما لعبقريته من المواقف الخالدة .

الادب

لم يكن الادب فنا نظامياً يدرس بالجامعة اليوسفية كما يدرس الآن بالجامعات الراقية في الشرق والغرب : ولا كانت المعاهد الدينية تعنى بالفنون الادبية إلى درجة تخصيص حصص لها حتى في الاقسام الابتدائية ، كما هي الحالة في هذا العصر ، ولا كانت الدروس العلمية خالية من أفئانه قاحلة من افيائه ، بل كانت وارقة الاغصان ، مورقة الافئان ، بالعلوم الادبية ، التي كانت تتخلل سائر مرافق الحياة العلمية ، حيث كانت الدروس العلمية مصطبغة بالصبغة الادبية الأخاذة ، لان الفقه لم يكن جامداً للدرجة التي هو عليها الآن من حكاية قول فلان وفلان ، بل كان مزيجاً بالسنة المطهرة ، والاراء السلفية الناضجة ، وهل السنة وتلك الاراء السلفية الانموذج فنى من نماذج الادب ، وضرب فتى ملىء بالبراعة والحكمة من ضروبه ! لأن أساليب الكتب الدراسية في ذلك العهد كانت أقرب إلى السذاجة العربية ، والروح الادبية منها إلى القانون الفقهي الضيق المسالك ، لان من أهم ما كانت تعنى به في تحرير سطورها اقتباس فقرات من السنة ، وجمل من آراء الصحابة والتابعين ، وكذلك كانت الكتب الادبية التي كانت سوقها نافقة في ذلك العصر الزاهر تجعل في طليعة مباحثها الادبية نبذاً من جوامع الكلم النبوية كأرقى ما وصلت اليه البلاغة القرشية ، والفصاحة المضرية ، ثم خطبا من كلام الصحابة ، ونتفا من حكمهم واشعارهم ، وما استخلصوه من حكم

وامثال ، كما صنع المبرد في كامله الذي كان يحفل به المتقدمون كديوان أدبي جامع لصنوف الادب ، وكذلك فعل عبقري العروبة أبو بحر عثمان الجاحظ في كتبه الادبية الراقية ، كالبيان والتبيين ، واخلاق الملوك ، وغيرها من مؤلفاته العديدة ، على ان ذلك الجانب المليء بكل حكمة وبراعة لم يهمله ادباء المائة الخامسة ، فقد اعتنى به الاديب الماهر أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني الحصري ، في كتابه زهر الآداب الذي جمع فيه من ذلكم التراث السلفي الخالد جملة يثالج لها الصدر من كلام الصحابة والتابعين ، وطرفاً من أخبارهم وآثارهم ، وذلك أمر تقليدي للكتب الادبية التي كانت لا تخلو من مباحث بيانية ، كتطبيق للاعتبارات البلاغية ، ضمن اسلوب الادب الذي كان أوسع نطاقاً مما يشمل الادب الآن ، حيث ان الادباء ولعوا بدراسة الحياة الاجتماعية دراسة فلسفية شرحوا فيها تلك النظم على حسب ما يترأى لهم في مختلف العصور ، وهل الاديب العبقرى الافيلسوف حاذق ، وموسيقى فنان ، ورسام مبدع ؟ يثير بنغماته الرخيمة ، ومقاصده السامية ، ما تثيره الاوتار من هواجس وخواطر تتحرك بها أوتار القلوب التي يملكها ذلك الفن كما تملكها أوتار الموسيقى الفنان ، فالشاعر المرفه موسيقى بنغماته ، طبعي بتصوراته ، فيلسوف بإحكام تخيلاته ونظرياته ، تلك هي المجموعة الادبية التي تضم إلى سطورها اخبار الامم ، وأحوال الدول ، ونوادير المبدعين التي تبدو ثمرتها في فني المنظوم والمنثور ، لذلك

قال المتقدمون ان الادب لا موضوع له ، وإنما المقصود من موضوعه الثمرة التي ترجع نتائجها غنى القرائح الوقادة بعلم غزير .

وقد تعرضنا لهذا المبحث لتتخلص منه إلى القول بأن ذلك الفن الادبي ، باعتباره المجموعي ، كان محل دراسة خاصة في سائر المستديت الادبية بالحمراء ، سيما النوادي الاميرية التي كانت تضم من فحول الكتاب ، وفرسان الآداب ، اكبر الشخصيات الذين نبغوا في ذلك العصر الذهبي الزاهر ، كعبد الله بن اسباط ، وعبد الغفور ، وابن أبي الحصال ، وابن عبدون ، وأبي مروان ، وابن خاقان ، وأبي العباس المراكشي ، في آخرين من أدباء الحمراء الذين ملئت بأخبارهم ومنتفهم (ذخيرة ابن بسام) (وقلائد العقيان) و (سمط الجمان) و (نظم الجمان) ممن نفقت بمعارفهم سوق الآداب بمراكش الحمراء ، حيث أن العاصمة هي سوق الدولة العام الذي تجبي إليه ثمرات العواصم المنضوية تحت لوائها ، فبالضرورة ازدهرت الفنون الادبية بالجامعة اليوسفية التي اصطبغت دروسها العلمية بالصبغة الادبية لان اساتذتها لذلك العهد كانوا قادة أدباء . لا يعلنون الحرب على حفظ الاشعار ، وممارسة الآداب ، لذلك كان الفقهاء لا يعجزهم الترسل ولا قرض الشعر (١)

(١) على هامش شعر الفقهاء في ذلك العصر أقول : ان فقهاءنا حتى في هذا العصر يحاولون نظم الشعر ويرومون بذلك إقضاء اثر اولئك الأكرام لان التشبه بالكرام رباح ..؟ وسأثبت بعض منظومهم عند ما اصل للادب في هذا العصر بحول الله وان كنت لا أخلي هذا التعليق من قطع نموذجية تمثل شعر فقهاءنا الادباء ..؟ من ذلك قول الفقيه السيد عبد الجليل ابن بلقرز في صديقنا باشا بني ملال السيد بوجعة المسفيوي :

فهذا الفقيه القاضي ابو الحسن ابن اضحى المشاور في العهد المرباطي
يقول في مداعبة له مع الفتح ابن خاقان هذه القطعة الساحرة الدالة برشاقها
ورقة مغزها على خفة الروح، وقوة الشعور، وتذوق الآداب، وسعة الخيال :
أتدني ابا نصر نتيجة خاطر ❀ سريع كرجع الطرف في الخطرات
فاعربت عن وجد كمين طويته ❀ باهيف طاو فاتر اللحظات
غزال احم المقتلين عرفته ❀ بخيف مني للحين او عرفات
رماك فاصمى والقلوب رمية ❀ لكل حيل الطرف ذي فتكات

قالوا لنا لما تزلنا ربوعكم ☆ وتوسموا سمة الغريب الهائم
سيروا الى الباشا الكريم بداره ☆ يلقاكم بطلاقة ومكارم
فأجبتهم ورفقتي ثلاثة ☆ من خيرة الطلاب شم اكارم
قالوا لنا : ألم تطرقكم اخباره ☆ أيخاف حاتم طى من قادم !
وكذلك قوله في هذه القطعة التي وجهها الى كاعتذار منه على خلاف وقع بيني
وبينه في مسألة محفوظة .. ؟

أخلى انك نعم الخليل ☆ وودك صاف عديم المثل
اذا كان يورد نوع من العلوم وقد غاب نهج السيل
وكنا تحالفت افكارنا ☆ لظن دليلي اقوى الدليل
فحن نرى ان فهمكم ☆ في كل البحوث شفاء الغليل
وتوجيهكم بحثا او نقده ☆ على القلب اشهى من السلسيل
فا بالبعد يرى فهمه ☆ ولا بالعسير ولا بالعليل
ولكن تقوص فلا تكتفي ☆ اذا ما تقوص ببعض القليل
فليس وراءك من باحث ☆ يحى بالنقى ولا بالفتيل
وان مني قد صدرت هفوة ☆ فانك نعم الصديق ونعم الخليل
وقد جاء معتذراً لكم ☆ حليف ودادك (عبد الجليل)
مع ملاحظة ما بين العصرين من الفروق ... ؟

وظن بان القلب منك محصب ❀ فلباك من عينيه بالجمرات
تقرب بالنسك في كل منسك ❀ وضحي غداة النحر بالمهجات
وكانت له جيان مشوى فأصبحت ❀ ضلوعك مثواه بكل فلاة
يعز علينا ان يهيم فتنطوى ❀ كئيبا على الاشجان والزفرات
فلو قبلت للناس في الحب فدية ❀ فدينالك بالاموال والبشرات
على ان الفقيه المشاور قد تطنى عليه الرقة الادبية فيفيض وجدانه
بالحكم الفقهي قريضا ، كما يتجلى ذلك في نتفه التي يعتذر فيها لبعض الادباء
عن عدم استطاعته مخالفة القانون المالكي في مسألة المبوثة ، حسبما يظهر
من تحليل القطعة مع ما تشتمل عليه من بديع القول ، بدون تكلف يبدو
على جبينها ونص القطعة :

الا أيها السيد المجتبي ❀ ويايها الألعى العلم
أتنتى ابياتك المعجزات ❀ بماقدحوت من بديع الحكم
ولم أر من قبلها بابلا ❀ وقد نفتت سحرها في الكلم
ولكنه الدين لا يشتري ❀ بنثر ولا بنظام نظم
وكيف أبسح حمى مانعا! ❀ وكيف أحلل ماقد حرم!
ألست أخاف عقاب الاله ❀ ونارا مؤججة تضطرم!
أأصرفها طالقاً بشة ❀ على انوك قد طنى واجترم
ولو ان ذاك النقي الجهول ❀ تثبت في امره ما ندم
ولكنه طاش مستعجلا ❀ فكان احق الورى بالندم

وللفقيه المشاور قصائد عديدة في شتى المناسبات كلها تأخذ بمجامع القلوب ، ولا تحتاج الى تعليق ، من ذلك قوله في ألم الفراق :

أزف الفراق وفي الفؤاد كلوم ❀ ودنا الترحل والحمام يحوم
 قل للاحبة كيف أنعم بعدكم ! ❀ وانا اسافر والفؤاد مقيم
 قالوا الوداع يهيج منك صباة ❀ ويثير ما هو في الهوى مكتوم
 قلت اسمحوا لي ان أفوز بنظرة ❀ (ودعوا القيامة بعد ذلك تقوم)
 والقطعة نهاية في اللطافة ، سيما ما اشتمل عليه المصراع الاخير منها .

واذا كان قضاء الدولة المرابطة ومشاوروها وفقهاؤها بهذه المثابة ، فكيف يكون الوسط الجامعي بعاصمتها التي تضم من نخبة الادباء والكتاب ما لم يسبق لدولة من دول الاسلام ان ضمته الى بلاطها ، كما يشهد بذلك التاريخ ، وقد قال الفقيه الحجوي في محاضرته التي ألقاها بفاس : « فكانت سلطنة يوسف ابتداء عصر ادبي ذهبي امتزج فيه الادب الاندلسي بالادب المغربي . او قل انتقل من الأول للثاني ، على ان المغرب لم يكن خاليا من الادب ، فظهر في دولته ادباء من طبقة عالية ، وعلماء وفقهاء وحكماء كذلك ، والادب والشعر وان كان عربيا ، سواء في الاندلس والمغرب ، لكنه لما جاء المغرب اصطبغ بصبغة مغربية ، وطابع مغربي يعود به لما كان عليه صدر الاسلام من عدم التكلف في التألق ، والبديع والسجع مع تطويل الخطب ، والاطناب في الاشادة بالمقاصد ، فتميز به عما سواه ، فالمغاربة تصرفوا في الادب الاندلسي وحولوه الى وجهة مغربية حسب ذوقهم وبيانهم ، ولم

يكونوا بالجامدين المقلدين الحاكين حكاية السبغاء ، بل الادباء الذين انتقلوا من الاندلس الى المغرب لم يحافظوا على اسلوبهم الاندلسي من كل وجه ، بل تطوروا بآدابهم حسب تطور الزمان والمكان » وهذا الرأي يؤيد ما ذهبنا اليه سابقا من تأثر الادب الاندلسي بالبيئة المراكشية كما في صحيفتي ١٢٣ و - ١٢٤ من هذا الجزء ، وان كانت ثمرة ذلك التأثر لم تظهر الا في عهد بني عبد المومن ، حيث ان الادب المراكشي بقي في عهد الدولة المؤسسة كأنه اندلسي ، سيما في النثر فانه بقي على حالته الاندلسية من الاشادة بالمقاصد ، والاحتفاظ باغلال السجع ، وقيود البديع ، مع التأنق في الالفاظ ، والاغراب في الغايات ، حتى كأنه لم يحد عن صبغته الاندلسية ، قيدا نملة ، ولا دخله ادنى تحوير ، كما تدل على ذلك المراسم المرابطية ، والدواوين المؤلفة في ذلك العصر ناطقة بذلك الاحتفاظ الا النادر منها :

أما الشعر فقد تأثر بمظاهر القوة والتعاضد ، واصطبغ بصبغة حماسية أخاذة كما تدل على ذلك المقطعات الشعرية التي صاغها الادباء في مدح بني تاشفين ، حيث لا يمر القارئ على قصيدة الا ويجد ضمن ابياتها ما يستوقف الخيال من سحرها الحلال المنظم بين أسطارها في ترديد المفاخر النفسية ، والمحاسن الروحية ، والترنم بقوة العزم ، وتلحين أوصاف السيوف والظبي ، والكتائب والفرسان ، والتنويه بمزايا الابطال الصنهاجيين ، الى غير ذلك من المقاصد السامية التي توقظ الشعور ، وتذكي الحماس ، وقد تشبع بتلك الروح الحماسية ، حتى الفقهاء ، كما يلى ذلك من قول الفقيه المشاور ابي

الحسن بن اضحى في الامير ابي محمد عبد الله بن مزدلي لمرابطي المراكشي ،
لما انتصر على (ردمير) في وقعة سرقسطة التي ساجله فيها بيد أمضى من
الحسام ، وعزيمة اقوى من الفولاذ :

يا أيها الملك مضمون لك الظفر ❀ أبشر فمن جندك التأييد والقدر
وأب لنا سالما والسعد مقتبل ❀ والدين منتظم والكفر منتثر
وقد طلعت على (البيضاء) من كشب ❀ كما تطلع في جنح الدجى القمر
حللت في ارضها في حجل لب ❀ كما يحل بها في الازمة المطر
وحولك الصيد (من لمتونة) وهم الأبطال يوم الوغى والانجم الزهر
والعرب ترفل فوق الغرب سابحة ❀ كالاسد ليس لها الا القنا ظفر
من كل أروع وضاح عمامة ❀ كالبدر نحو لقاء الجيش يبتدر
شعاره البر والتقوى ومؤنسه ❀ في ليله رحمه والصارم الذكر
ذؤابة المجد من (قطان) كلهم ❀ ابوهم (حمير) ذو المجد او (مضر)
ومن (زناتة) ابطال غطارفة ❀ ذوو تجارب في يوم الوغى صبر
(ولمطة) وهم اهل الطعان لدى ❀ الهيجاء في زمر تقتادها زمر
كأنهم في جبين المجد اذ ركبوا ❀ مصممين الى اعدائهم غرر
ومن هذا يتضح جليا ان الشعر تأثر في العهد المرابطي بمظاهر العبقرية
التي كانت تلقى العطف من ابن تاشفين الذي كان يميل الى الادب منذ
انتصابه على عرش المغرب والجزيرة ، سيما هذا النوع الحماسي الرائع الملون
بالصبغة العربية من إظهار الاتفة والنخوة وتجيذ الفضيلة حيث يرى في

تلك الصور الادبية كل معاني النبل والكياسة ، لذلك كان يشجع الادب بضم نبغاء الى مجالسه بقدر ما تسمح له ديانتها المتينة التي من اجلها كان لا يميل للمجون ، ولا يقرب من بلاطه الماچنين .

وقد تكونت في عهده كتلة ادبية مراكشية من طبقة عالية قبل انحدار الاندلسيين الى مراکش وقتئذ نقلت اليها الحضارة الانغماتية ، وقديما أنجبت مدينة انغمات شعراء مثل الاديب الكبير ، والرحالة الشهير ، ابي هارون موسى بن عبد الله بن ابراهيم بن محمد بن سنان بن عطاء الانغماتي المغربي الذي رحل الى الشرق وأوغل فيه حتى بلغ سمرقند وأخذ الشوق والحنين الى بلاده فحادث قريحته بهذين البيتين :

لعمري الهوى اني وان شطت النوى ❀ لذو كبد حري وذو مدمع سكب
فان كنت في اقصى خراسان ثاويا ❀ فجسمي في شرق وقلبي في غرب
وفي قول ابن عباد :

شعراء طنجة كلهم والمغرب ❀ ذهبوا من الاغراب أبعد مذهب
ما يشعر بان في المغرب ادباء لذلك العهد ، وهي حقيقة لامراء فيها ، سيما عهد بني تاشفين الذين ألانوا جانبهم للادباء فازدهرت بذلك فنون الادب بالحمراء لما اجتمع فيها من الادباء والشعراء ، يؤيد ذلك ما في القلائد والمعجب ، وفي المحاضرة الحجوية « فقد اصطبغ الادب بالصبغة الادبية الاندلسية في دولة لمتونة على عهد (علي) بن يوسف اذ هاجر اليها كثير من ادباء الاندلس ، وتوظف في وظائف الدولة وظهر بالمغرب ادباء وعلماء

وقضاة مجتهدون ، زيادة على البعض الذي كان به ، فافتخر المغرب بهم ، واستضاء بعلومهم ، ولم يزل (علي بن يوسف) سالكا مسلك ابيه في توطئة كنفه للادباء والعلماء ، واستدعاء من ظهرت فيه كفاءة ونجدة في الفنون الادبية ، حتى اجتمع ببابه ما لم يجتمع بباب ملك قبله - الى ان قال - وما ملأ الفتح ابن خاقان كتابيه القلائد ومطمح الانفس وابن بسام ذخيرته وغيرها الا بنوابغ ادباء هذه الدولة وكتابها ووزرائها ومن كان في عصرها الذهبي الزاهر» الى آخر ما ذبحته يراعة الاستاذ في بحثه حول دولة الملمثين التي سجل من مآثرها الخالدة في محاضراته بعض ما قامت به من تأسيس المجد المغربي وتشديد اركانه في المائة الخامسة ، وتلك شنشته في كل مسامرة يعالج فيها تاريخ المغرب يشيد بما لدولة المرابطين من الفضل على المغرب الاقصى في تكوين نهضته العلمية التي رفعت مكانته وصيرته في صفوف الدول الاسلامية الراقية ، وتلك حقيقة راسخة لا يماري فيها الا صفيق يحاول بكل سخافة قبر الحقائق الثابتة ولكن اني له ذلك والتاريخ وحده هو الحكم العدل في كشف النقاب عن احوال المغرب العلمية واطواره الادبية في عهد بني تاشفين الذهبي .

ومن تصفح التاريخ المغربي يدرك جليا مقدار ما قامت به الدولة المراكشية اذ ذاك من توطيد أسس التعليم وتوسيع أفقه في نهضة علمية ضارعت في مجدها وتراثها اكبر النهضات العلمية في امهات العواصم الاسلامية استنارت من جرائها معالم الدين والادب في المغرب الاقصى

وأصبح العنصر المراكشي كعامل قوي لتنمية التراث الادبي الخاضع لسلطانه المطبوع في مجموعه بطابعه القومي مع احتفاظه بالصيغة الاندلسية الرائعة ، وذلك بفضل استخدام الشخصيات الاندلسية النابغة في جميع مرافق الدولة بمراكش الحمراء الامر الذي كان له الاثر الكبير في تثقيف ناشئة الجنوب وتكوينها ادبيا ، وفي الذخيرة والقلائد وغيرها ما ينبىء عن ذلك بكل وضوح وجلال.

على انه لو قدر البقاء لما أُلّف حول دولتي المغرب المراكشيتين من التأليف الجليلة كما «لأنوار الجليلة» ، في اخبار الدولة الصنهاجية «لمؤرخ دولتهم الشهير بابي بكر ابن الصيرفي الصنهاجي المراكشي و «النبد المحتاجة» ، في اخبار ملوك صنهاجة» لسمى المجد ابي الحسن علي الصنهاجي المراكشي وكتاب «مفاخر البربر» و «نظم الجمان» و «المغرب» ، في اخبار المغرب» لابن سعيد الاندلسي الشهير وكتاب «المسهب» ، في غرائب المغرب» لابي عبد الله الحجاري وغيرها من التأليف العديدة في مآثر دولتي المغرب العظيمتين لا يمكن للباحث ان ياخذ من ذلك صورا واضحة للحياة العلمية والادبية بمراكش الحمراء وقتئذ كان أرقها مطلع العلوم ومهبط الحضارة والتمدن الذي وصفه عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب وأحسن الوصف في شيء من الاعتزاز والزهو بقوله : «فانقطع الى امير المسلمين من الجزيرة من اهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر

دولتهم ، واجتمع له ولابنه من اعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الاعصار . (١)

(١) لقد عبر صاحب المعجب في هذه الاسطر الوحيدة أحسن تعبير عن مدى الحضارة المراكشية الخالدة في عصر بني تاشفين بما لو أراد تحليله لاحتاج الى فصول وفصول وقد استغنى عن ذلك بتشبيه قاعدة المغرب الكبرى «مراكش الحمراء» بقاعدة المشرق العظمى «بغداد الفيحاء» وسر التشبيه بين العاصمتين واضح أسفرت عنه كتب التاريخ التي لها وحدها الحق في الافصاح عن حياة الامم وتقدمها وقد ضل السبيل وأساء للبحث من زعم ان صاحب المعجب اراد نكتة ضعف المشبه عن المشبه به في بحث تاريخي مجرد كل التجرد عن مراعات قيود التشبيه ، وبعيد كل البعد أن يكون ذلك مقصد أسمى لمؤرخ نزيه حمل اليراعة ليخط بألمامه شهادته التاريخية في دولة عظيمة طويت صحيفتها من عالم الوجود وخلفتها على عرشها دولة أخرى وهو عندئذ ناء عن المغرب بعيد عن الوطن رحماك اللهم رحماك ! ما هذا التعصب الذي لا زال يختر في اجسام المفكرين وحمله الاقلام حتى في عصر المدنية والعلم ! اجل ان التعصب وحده هو الذي أسبل هذا الستار على بعض الالباب ولو أريد مقابلة التعصب بمثله لا يمكن عكس تلك النظرية بزعم ان المشبه به قد يضعف أحيانا عن المشبه اذا حلف به مثل ما أحاط بدولة بني العباس في المائة السادسة ، على ان السكاتب النبیه لو تأمل الفقرة الأخيرة من كلام صاحب المعجب وهي قوله «في صدر دولتهم» لادرك جلياً الحقيقة وتسامى عن تسجيل تلك الاوهام التي يخلقها التعصب حتى في مباحث تاريخية تنزه مقاصد النبلاء من حملة الاقلام عن مراعات امثالها في اداء الامانة التاريخية على وجهها الحقيقي كما فعل عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب لما وقع اختياره على جملة رقيقة المعنى عبرها عما كان يختلج في ضميره فامتطى صهوة التشبيه بين عاصتي يوسف والرشيد أحبى الله مجدها وخلد في الخافقين ذكرهما ، وبعدفا هو رأي السكاتب في قول صاحب المعجب « واجتمع له ولابنه من اعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الاعصار » وما سر التشبيه في ذلك ... ؟ وما هو رأيه كذلك في قول صاحب النفع في صحيفة ١٢٤ من الجزء الثاني « ان حضرة مراكش هي بغداد المغرب وهي اعظم ما في بري العدوتين واكثر مصانعها ومبانيها الجليلة وبساتينها ظهرت في مدة بني عبد المؤمن » الى آخر كلامه

على ان للمراكشي ان يقر غينا بالتاريخ الاندلسي المجيد الذي يعتبر بحق وإنصاف كتاريخ مكين لبلاده وغصن باسق ظليل من غراس بني جلده في عهد الدولتين المراكشيتين دولة بني عبد المومن المؤتلة ، ودولة بني تاشفين المؤسسة ، لانه لا يكاد يتصفح كتابا من الكتب الاندلسية البديعة التي دونت في ذلك العصر الا ويقف بين اسطرها الخالدة على أثر عظيم من آثار اسلافه الاعزاء ماثلا بين عينيه كما في المعاجم والطبقات وحتى كتب الرواية والسير والفقهاء كمعجم ابن البار والعريضة والبيان والروض فضلا عن عموم الكتب التاريخية والادبية التي لا تخلو صفحتها من تسجيل ماثرة من مآثر الدولتين ، او ترجمة حافلة لعظيم من امرائها ، او كاتب من كتابها ، او شخصية مستظلة بظلال عرشها المجيد مما تعد معه تلك المؤلفات اثرا ثميناً من آثارها ، ولا غر واذاً من اعتبار الادب الاندلسي بهذه الاعتبارات ادبا فنيا كذلك لمراكش الحمراء ، ومثالا جليا لحركتها الفكرية حين ذاك ، لما لامرائها من الايادي البيضاء على الحركة الادبية التي أحيوا صولتها ، وجددوا دولتها ، بعد سباتها العميق ، وكبوتها الطويلة ، كما أفصح عن ذلك صاحب المطمح في طليعة القلائد وقد اشرنا الى ذلك في ترجمة منقذ الوحدة الادبية بالمغرب والجزيرة ابي اسحاق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي تبارت في ذكر محاسنه قرائح الكتاب والشعراء مما تتباهي اليوسفية بإحيائه في ذكرها التأسيسية وسنختم هذا المبحث بنماذج فنية للادب الذي كان يروج في الجوالجا معى بمراكش الحمراء من منظوم ومنثور ، فمن الاول ما جادت

به أريحية الشاعر العبقرى عبد الجليل ابن وهبون الأندلسى بين يدي امير
المسلمين يوسف ابن تاشفين لما رجع ظافرا من بعض غزواته في عهد
ملوك الطوائف :

أظن خطوبها قالت سلام ❀ فلم يعبس لها منك ابتسام
الى ان قال :

فثار الى الطعان حليف صدق ❀ تشور به الحفيظة والذمام
نما في « حمير » (ونمتك « لحم » ❀ وتلك وشائج فيها التحام
نهجت لسيله نهجا فوافى ❀ وفي آدابه الطامي عرام
فهيل به كئيب الكفر هيلا ❀ وكل رقيقة منها ركام
وأصبح فوق ظهر الارض أرضا ❀ كان وهادها منهم أكمام
عديد لا يشارفه حساب ❀ ولا يحوى جماعته زمام
تألفت الوحوش عليه شتى ❀ فما نقص الشراب ولا الطعام
فان ينسج « اللعين » فلا حكر ❀ ولكن مثل ما تنجو الاثام
« فيا ادفنش » يا مغرور هلا ❀ تجنبت المشيخة يا غلام
ستسألك النساء ولا الرجال ❀ فخذت (ما وراءك يا عصام)
وراقبها بارضك طالعات ❀ كما تهدي صواعقها الغمام
أقت لذا الوغى سوقا فخذها ❀ مناجزة وهون ما تسام
فان شئت اللجين فثم سام ❀ وان شئت النضار فثم حام

جلالك فوق ما يعطيك وهم ❀ وفعلك فوق ما يسمع الكلام
وانت النعمة البيضاء فاسلم ❀ لنا وليطرد فيك التمام
ولا ينقص عن هذه القطعة الثينة جودة ورقة ولطافة ودقة مغزى
ما نثرته همة ذي الوزارة الشاعر الناصر القاضي ابي محمد عبد الحق ابن عطية
الاندلسي في تهنئته للامير ابي محمد عبد الله المعروف بمزدلي المرباطي
المراكشي بظفره العظيم في وقعة من الوقعات الاندلسية الشهيرة حيث قال :
ضاءت بنور ايايك الايام ❀ واعتز تحت لوائك الاسلام
اما الجميع ففي اعم مسرة ❀ لما انجلي بظهورك الاظلام
بادرت أجرك في الصيام مجاهدا ❀ ما ضاع عنك للثغور ذمام
وصمدت معتزما وسعدك منهض ❀ نحو المدى ودليلك الاقدام
كم صدمة لك فيهم مشهورة ❀ غص «العراق» بذكرها «والشام»
في مازق فيه الأُسنة والظبي ❀ برق ونسق العاديات غمام
والضرب قد صبغ النصول كأنما ❀ يجري على ماء الحديد ضرام
والطعن يثعب النجيع كأنما ❀ ينشق عن زهر الشقيق كمام
فاهناً مزية ظافر متأيد ❀ جفت برفعة شأنه الاقلام
واليك ودى واختصاصي سابق ❀ يجلوه من در الكلام نظام
انى وان خلفت عنك فلم تزل ❀ مني اليك تحية وسلام
ولقد الف الشعراء تهنئة هذا البطل العظيم كلما غدا لغزو او راح

فذاك ابن عطية يرفع قصيدته اليه وهذا الشاعر العبقرى ابن ارقم يقف
لينشر لاميته العصماء بين يديه واليك نصها :

سريت واليل من مسراك في وهل	✽	مبرأ العزم من اين ومن كسل
وسرت في حجل يهدى فوارسه	✽	سناك تحت الدجى والعارض الهطل
والبدر محتجب لم تدر أنجمه	✽	أغاب عن سرر أم غاب عن خجل
هوت اعاديك من سار يؤرقه	✽	ركض الجواد وحمل اللامة الفضل
اذا للملوك نيام في مضاجعهم	✽	مستحسنون بهاء الحلى والحلل
لله صومك برأ يوم فطرهم	✽	وما توخيت من وجه ومن عمل
نحرت فيه الكيمة الصيد محتسبا	✽	وحسب غيرك نحر الشاء والابل
اذا صرير المدارى هزهم طربا	✽	أهلك عنه صرير البيض والاسل
وان شتتهم عن الاقدام عاذلة	✽	مضيت قدما ولم تاذن الى العذل
كم ضم ذا العيد من لاه به غزل	✽	وانت تنشدا اهل اللهو والغزل
في الخيل والخافقات البيض لي شغل	✽	ليس الصباة والصهباء من شغلي
ظلمت يومك لم تنقع به ظمئا	✽	وظل رمحك في عل وفي نهل
وكما رامت الروم الفرار أتت	✽	من كل أوب وضمتها يد الاجل؟
فصار مقبلهم نهبا ومدبرهم	✽	وعاد غانمهم من جملة النفل
فكم فككت من الاغلال عن عنق	✽	وكم سدوت بهذا الفتح من خلل
انت الامير الذي للمجد همته	✽	(ولمالك يحمىها وللدول)
وللمواهب او للحفظ أنمله	✽	ما لم تحن الى الخطية الذبل

«لمزدلى» لواء كان يرفعه ❀ مناسب كالضحى والشمس في الحمل
 الجبارين صدوع المعتفى لهم ❀ والكاسرين الظبا في هامة البطل
 والعادلين عن الدنيا ونضرتها ❀ والسالكين على الاهدى من السبل
 «خير التابع والاذواء من يمن» ❀ الغالبين على الآفاق والملل
 يسود في آخر الاعصار آخرهم ❀ وساد أولهم في العصر الاول
 يا ايها الملك المرهوب صولته ❀ والمرتبج غوثه في الحادث الجلل
 من كابد العدم لم يكمل له امل ❀ (والعدم من اقطع الاشياء بالامل)
 لم تبت الاشعار رسالة ❀ عني وحقك لا نقضيه بالرسل
 فاصفح لعبدك يا مولاي مغفراً ❀ ما كان من خطا او منطق خطل
 بقيت للدين والدنيا تحوطهما ❀ اذا حلا الغمض في الاجفان للعقل
 والله در الشاعر الالمى والعبقري المرهف ابي عبد الله محمد ابن سارة
 الشنتريني اذ يقول في شبل من اشبال دولة مراکش المرابطة بل أسد هصور
 من اسود غابها الحصين الذين كانت لهم وثبات جبارة في الذود عن حياض
 الاسلام بالجزيرة الاندلسية امام الحروب الصليبية الطاغية التي كانت تهب
 ريحها العاصفة من اواسط اوربا المسيحية هذه القصيدة التي أنشدها امام
 جمع من الشعراء في قصر الامير ابي بكر بن ابراهيم المرابطي بغرناطة مقر
 ولايته لما رجع من غزوه الظافر وولى على غرناطة من طرف امير المسلمين :
 اليوم اخمدت الضلالة نارها ❀ واسترجعت دار الهدى عمارها
 واستقبلت حديق الورى غرناطة ❀ وهي الحديقة فوفت ازهارها

فكأن (تشرينا) بها (نيسان) إذ ❀ يكسو رباها وردها وبهارها
 في غب سارية ترقق ادمعا ❀ يحكي الجمان صغارها وكبارها
 ما شئت من نهر كصدر عقيلة ❀ شقت اناملها عليه صدارها
 او جدول كالنصل في يد ثائر ❀ أمهي صفيحته وهز غرارها
 ما بين اشجار تميد كأنها ❀ شراب جريال يدير عقارها
 مترنحون إذا لحاها عاذل ❀ تركت سكون حلومها ووقارها
 لله اروع من ذوائب (حمير) ❀ راع العداة فما تقدر فرارها
 راقت به ارض الجزيرة عزمة ❀ خلعت على حب الجمان عذارها
 ما هاله بيد تعسفها ولا ❀ لجج كجنح اليل خاض بحارها
 في فتية تسرى الى نصر الهدى ❀ فتظنهم سدف الدجا اقرارها
 خضبوا السواعد بالرقاق تفاؤلا ❀ أن سوف تخضب بالنجيع شفارها
 «وتلثموا» صونا لركة أوجه ❀ جعل السماح شعارها ودثارها
 المنعمين على العفاة اذا وشوا ❀ والناقضين على العدى اوتارها
 غرسوا الايادي في ثرى معروفهم ❀ جفنوا بالسنة الشناء ثمارها
 لم لا تراح شريعة التقوى بهم ❀ وجفونها منهم ترى انصارها
 ضربوا سراق بأسهم من دونها ❀ وقد اشرب الكفر يهدم دارها
 فوقوا بخرسان الرماح جنبها ❀ وحموا بقضبان الصفاح ذمارها
 ومسومات شرب إن احفرت ❀ نفضت على ثوب السماء غبارها
 لبسوا الدروع على القلوب فدوخوا ❀ ارض العدى واستاصلوا كفارها

- شهب إذا أوفت على أفق الوغى ❀ جعلت «أبا يحيى» الأمير مدارها
 (متلهم) بالصباح فوق أسرة ❀ تهدى إلى شمس الضحى أنوارها
 أورت زناد المسلمين له يد ❀ بالنجح تقدح مرخها وعفارها
 حاشا لا زند شر عنا من كبوة ❀ ويد «ابن إبراهيم» توري نارها
 أصفى مواردنا أراح سقامها ❀ أرخى حرارتها أقال عثارها
 أولي أمة أحمد أبهجتها ❀ مذصرت من جور الحوادث جوارها
 جلبت لك الانعام ضرعا حافلا ❀ ورنّت على افئنانها أطيّارها
 وأرى زناد الرأي منذ قدحتها ❀ أوريت في مقل النجوم شرارها
 وحط الرعية في مريع جنابها ❀ وارأب تألها واصطنع أحرارها؟
 وزد الأكابر من بنيتها خطة ❀ واردد كباراً بالحباء صفارها
 واقدف نحور المشرّكين بحجفل ❀ يححو معالم أرضها ومنارها
 لجب تظن السابغات بموجه ❀ زرقا ونقع السابحات بحارها
 واحلل عرا تلك الجمّاجم أنها ❀ عقدت على بغض الهدى زنارها
 وكانني بك قد ثلثت عروشهم ❀ وسلبت بيضة ملكه جبارها
 وقتلت من نجادها أنجادها ❀ وصرعت في اغوارها اغوارها؟
 لا ترض منهم بالنفوس تحوزها ❀ سمر القنا حتى تحوز ديارها
 وترى بها عيناك ليل صلاها ❀ ويد الهدى فيها تشق إزارها
 صممت سيوفك في العمود وجردت ❀ يوم النزال فحدثت أخبارها
 لما احتست خمر الهياج نصالها ❀ أهدت إلى هام الطفاة خمارها

زارتك في قصر الامارة كاعب ❀ زانت محاسن جيدها تقصارها
 رضعت من الآداب محض لبانها ❀ وتجنبت ممذوقها وسماها
 تشنى الليالي هائمات كلما ❀ نفتت علي بسحرها اسحارها
 فأجل جفون رضاك في أعطافها ❀ كرما وشرف بالقبول مزارها
 وله أيضاً في مدحه :

طاف باكواس مسراته ❀ ما بين ريحان مبراته
 وراح في إبراد إيناسه ❀ ثانی عطفي اريحياته
 قل لابن «يحيى» امام الهدى ❀ محي الندى جامع أشاته
 رعاه من في الارض سلطانه ❀ ودونه حجب سمواته
 يا مالكا أيامه لم تزل ❀ تجرى علي وفق ارادته
 ومن بكفي عزمه صارم ❀ يخاف صرف الدهر هناته
 أصلته التوفيق في كفه ❀ فابتهج الدين لاصلاته
 وأقبل «الفتح» له رائدا ❀ والنصر معقودا «براياته»
 واتصل الانس بأصاله ❀ واقترن الروح بروحاته
 وإنما الدهر له خادما ❀ منتظر لمح إشاراته
 قد صارت الشمس الى جريها ❀ واستقبل اليوم بآداته
 واشرف النيروز (١) فاستغرقت ❀ لي الاماني نحو عاداته

(١) النيروز كلمة فارسية استعملت عند العرب وهي لفظة تطلق على اول يوم من أيام السنة الشمسية ويعتبر عيداً

في شارق ابرز مشبوبة ❀ أشرق منها ليل مشتاته
 يريك خد الورد كانونها ❀ معصراً في غير اوقاته
 روض اذا الريح هفت مذهبة ❀ نضضت السن حياته
 عقارب الشقوة مقبولة ❀ بالشمس منها حول حافاته
 لما بدت في ابنوسيها ❀ ونورها عسجد ياقوته
 منما في صفح كافورها ❀ واوات هماز ولا ماته
 علمت ان الحسن منها نوى ❀ يبدى لنا معجز آياته
 كأنما النارنج أبدى لنا ❀ وجنته عند محازاته
 أوهى شدت عقد ازواره ❀ حتى التظى خامد حياته
 في مجلس يختال عطف المنى ❀ في رفرف من عبقرياته
 زبرجد النبت على ساقه ❀ ولؤلؤ الطل بلباته
 والثلج كالهذب في كرسف (١) ❀ تحلجه أيدى غماماته
 أو زهر من دوحه ساقط ❀ قد هامت الريح بهاماته
 سقوط جدواك على أمل ❀ همت بتكثير عطياته
 فعاد يغشي طرف حساده ❀ بياض نعان بساحاته
 رددت في جسم الندى روحه ❀ حتى غدا ملء مسلاآته

(١) كرسف: قطن وهو نبات عظيم الفائدة الاقتصادية يدر من الارباح على الاقطار التي منتجها الطبيعة شتى المميزات خيرات وافرة

وزار بالغيث الى ان تننا ❀ بعث سحاب صوب ملهاته
 في بلد منذ تبوأته ❀ جر سراويل مسراته
 وكف عنا كفه حادثا ❀ آلمنا مس ملهاته
 لا حظه الله بعين الرضا ❀ فافتحت ابواب جناته
 واصبح الجامد من صخره ❀ والروح يجري في جماداته
 تبوأ الله بفردوسه ❀ رضوانه خازن جناته
 لا زلت معقودا بتأييده ❀ ظملا على ارض برياته

ومن ذلك ما صاغته قريحة شاعر لمتونة المجيد ابي (١) بكر الصيرفي
 يصف ثبات الامير الشاب تاشفين بن علي بن يوسف بن يوسف المراكشي
 في موقف من مواقفه الحاسمة بالجزيرة الاندلسية وقد اشار في جوهر القصيدة
 الى بعض الخطط الحربية التي يراها الشاعر المبدع ضرورية للاحراز على
 النصر والظفر .

يا ايها الملاء الذي يتقنع ❀ من منكم الملك الهمام الاروع
 ومن الذي غدر العدو به دجى ❀ فانفض كل وهو لا يتزعزع

(١) هذه القطعة نسبها ابن خلدون في مقدمته لابن بكر الصيرفي في فصل الحروب
 ومذاهب الامم في توثيقها غير انه اقتصر على ذكر إحدى وعشرين بيتا منها ، بيد ان
 صاحب الحلل الموشية نسبها الى الفقيه الكاتب ابي زكريا يحيى بن العربي ههنا بها تاشفين بن
 علي في موقفه الخالد الذي اظهر فيه شهامة نادرة المثال امام خصومه الالاء وذكر
 القصيدة مطولة مشتملة على ستة وخمسين بيتا حيث انها تضم بين سطورها بعض مفاخر
 بني تاشفين راينا من اللائق ادراجها هنا كاملة حسبا بالحلل .

تمضي الفوارس والطعان يصدّها ❁ عنه ويذعرها الوفاء فترجع
 والليل من وقع السنايك بينهم ❁ صبح على هام الكماة ملمع
 عن أربعين ثنت اعنتها دجى ❁ الفان الف حاسر ومقنع
 لولا رجال كالجبال تعرضت ❁ ما كان هذا السيل مما يردع
 يتحمون على الرماح كأنهم ❁ إبل عطاش والاسنة كرع
 ومن الدجا لهم وعلى قم الربي ❁ وذؤابة بين الظبا تتقطع
 فثبت والاقدام تزلق والردى ❁ حول السرايق والاسنة تقرع
 لا يعظم على الامير فانها ❁ خدع الحروب وكل حرب يخدع
 ولكل يوم حنكة وتمرس ❁ وتجارب في مثل نفسك تنجع
 يا أشجع الابطال ليلة امسه ❁ اليوم أنت مع التجارب اشجع
 ها انت من ملك على صغره ❁ نظر صحيح والقنا تتصدع
 أهديك من ادب الوغى حكما بها ❁ كانت ملوك الحرب مثلك ولع
 لا انني ادرى بها لكنها ❁ ذكرى تخص المؤمنين وتنفع
 خندق عليك اذا اضطربت محلة ❁ سيان تتبع ظاهرا أو تتبع
 وتوق من كذب الطلائع انه ❁ لا راي للكذاب فيما يصنع
 فاذا احترست بذاك لم يك للعدى ❁ في فرصة اوفي انتهاز مطمع
 حارب بمن تخشى عقابك للذي ❁ تخشى ومن في جود كفك يطمع
 قبل التناوش عب جيشك مفصحا ❁ حيث التمكن والمجال الاوسع
 اياك تعبئة الجيوش مضيقا ❁ والخيول تفحص بالرجال وتمرع

حصن حواشيها وكن في قلبها ❖ واجعل امامك منهم من يشجع
 والبس لبوسا لا يكون مشهراً ❖ فيكون نحوك للعدو تطلع
 واحتل لتوقع في مضايقة الوغى ❖ خدعاً ترويهها وانت موسع
 واحذر كمين الروم عند لقاءها ❖ واخض كمينك خلفها اذ تدفع
 لا تبقيين النهر خلفك عند ما ❖ تلقى العدو فامرره متوقع
 واجعل مناجزة العدو عشية ❖ ووراءك الصدق الذي هو امنع
 واصدمه اول وهلة لا ترتدع ❖ بعد التقدم فالكوص تضعضع
 واذا تكاثفت الرجال بمعرك ❖ ضحك فاطراف الرماح توسع
 حتى اذا صعبت عليك ولم يكن ❖ إلا شماس دائم وتمنع
 ورأيت نار الحرب تضرم بالظبا ❖ ودخانه فوق الاسنة يسطع
 ثم انتهض الجميع ما اخذته ❖ حتى يكون له المحل الارتفاع
 إياك تعتب ان تولت عصبة ❖ كانت توفي للوء وود وتدفع
 من معشر إعراض وجهك عنهم ❖ أنكى عقاب في القلوب وأوجع
 وهم الكرام فأين يذهب عنهم ❖ فعل الجميل وسخطك المتوقع ؟
 تكبو الجياد وكل حبر عالم ❖ يهفو وتنبو المـرهفات القطع
 أنى جزعتم «يا بنى صنهاجة» ❖ واليكم في الروع كان المفزع ؟
 ما انتم الا اسود خفية ❖ كل بكل عظيمة مستطلع ؟
 ما بال «سيدكم» بظلم لم يكن ❖ لكم التفات حوله وتجمع
 انسان عين لم يصنه منكم ❖ جفن وقلب اسلمته الاضلع

تلك التي جلبت عليكم خبطة ❀ شنعاء وهن على رجال اشنع؟
 أو ما «ليوسف» جده من على ❀ كل وفضل سابق لا يدفع؟
 أو ما لوالده «علي» نعمة؟ ❀ وبكل جيد ربقة لا تخلع
 أبطأتم عن «تاشفين» ولم يزل ❀ إحسانه لجميعم يتسرع
 خاف العدى لكن عليكم مشفق ❀ فهجتم وجفونه لا تجمع
 ومن العجائب أنه مع سنه ❀ أدري واشهم في الحروب واضلع
 وعفا «وكان العفو منه سجية» ❀ ولسطوه لو شاء فيكم موضع
 يا «تاشفين» أقم لجيشك عذره ❀ بالليل والقدر الذي لا يدفع
 هجم العدو دجى فروع مقبلا ❀ ومضى يهيم وهو منك مروع
 كم وقعة لك في ديارهم انثنت ❀ عنها اعزتها تذل وتخضع؟
 النعمة العظمى سلامتك التي ❀ فيها من الظفر الرضى والمقنع
 كلا أهني لا أخص بنعمة ❀ فردا بها غل الجوانح ينقع
 كادت تكون ولو إذا لتزلزلت ❀ عنها البسيطة والجبال الخشع؟
 وهوت «باندلس» عقاب لم تدع ❀ فيها الذكر الله صوتا يرفع
 لا ضيع الرحمان سعيك إنه ❀ سعى به الاسلام ليس يضيع
 نستودع الرحمان منك وديعة ❀ فهو الحفيظ لكل ما يستودع
 والى هنا تنتهي القصيدة العصماء التي تمثل هذا النوع من الادب الحماسي
 لذلك العهد وهي مشتملة على معاني رقيقة ومباني لطيفة تنفجر بها تلك
 المشاعر الفياضة نحو حامية الفردوس المفقود في المائة الخامسة التي كانت

مواقفها الحازمة في الجزيرة من أهم البواعث المثيرة لقرايح الكتاب والشعراء حتى ضربوا في فنون الادب بكل سهم صائب محبوب واحبب بمثل هذا النوع الطريف الذي منحه ربه ادب الحروب في قوله :

اهديك من ادب الوغى حكما بها ❀ كانت ملوك الحرب مثلك ولع
من تهتز لرقته القلوب ، ولقد سبق لنا في ص ١٥٠ أثناء الكلام على
منقذ الوحدة الادبية بالمغرب والجزيرة أبي إسحاق ابراهيم بن يوسف بن
تاشفين ووعدنا بادراج قصيدة ابن خفاجة التي نشرها بين يديه في حفل عظيم
جاء لتنهشته بعيد الفطر سنة عشر وخمسمائة ، ذلكم العيد الذي وصفه الفتح
بقوله « وكان عيداً كان عهد اهلها - يعني شاطبة - بمثله بميدابل لم يعهد بالقطر
شبيهه ولم يحضر مثله خامله ولا نبيهه الى ان قال فلما كان يوم العيد واحتفل
جمعه واحتشد ، قام ابو اسحاق وأنشد :

سجعت وقد غنى الحمام فرجعا ❀ وما كنت لولا ان تغنى لأسجعا
واندب عهدا بالمشقر سالفا ❀ وظل غمام للصبا قد تقشعا
ولم ادر ما أبكي أرسم شببية ❀ عفا أم مصيفا من سليمى ومربعا ؟
وأوجع توديع الاحبة فرقة ❀ شباب على رغم الاحبة ودعا
وما كان أشهى ذلك الليل مرقدنا ❀ وأندى حيا ذلك الصبح مطلعا
وأقصر ذاك العهد يوما وليلة ❀ وأطيب ذاك العيش ظلا ومكرعا
زمان تقضى غير ذكر معاهد ❀ يسؤم حصاة القلب ان تصدعا
تحولت عنه لا اختيارا وربما ❀ وجعت على طول التلذذ أخدعا

ومن لى ببرد الريح من ابرق الحمى ❀ وريا الخزامى من اجاراع لعلعا
 وقد فات ذاك العهد الا تذكر ❀ لو انى على ظهر المطى توجعا
 وكنت جليد القلب والشمل جامع ❀ فيما انقض حتى حان فارفض ادمعا
 وبلت نجادى عبرة مستهلة ❀ اكفكف عنها بالبنان تصنعاً
 واني وعيني بالظلام حيلة ❀ لآبي جنبى ان يلائم مضجعا
 وأربا بنفسي أن أرى الصبح ابيضاً ❀ بعين ترى ربع الشبسية بلقعا
 كأنى لم اذهب مع اللهو ليلة ❀ ولم أتعاط البابل المشعشعا
 ولم أتخايل بين ظل لسرحة ❀ وسجع لفريد وماء باجرعا
 ولم ارم آمالي بازرق صائب ❀ وأبيض بسام واسمر أصلعا
 وابلق خوار العنان مطهم ❀ طويل الشوى والشاؤ أقود أتلعا
 جرى وجرى البرق اليماني عشية ❀ فأبطا عنه البرق عجزاً ، وأسرعاً ؟
 كأن سحاباً أسحما تحت لبدته ❀ تضاحك عن برق سرى فتصدعا
 وحسب الاعادى منه ان يزجروا به ❀ مغيرا عرباً أصبح الحى ابقعا
 كأن على عطفه من خلع السرى ❀ قيمص ظلام بالصباح مرقعا
 ركضت به بحراً تدفق مأجاً ❀ واقبلت ام الرأى نكبءاء زعزعا
 يؤلسل من اذن فاذن تشوقا ❀ إلى صرخة من هاتف وتطلعا
 كأن له من عامل الرمح هاديا ❀ منيعا ومن ذلق الاسنة مسمعا
 ولما اتحنى ذكر « الامير » استخفه ❀ فخفض من لحن الصهيل ورفعا
 حيننا الى الملك الأغر مردداً ❀ وشجوا على المسرى القصى مرجعا

فمن حب «إبراهيم» أعرب صاهلا ❀ وفي نصر «إبراهيم» كثر تشيعا
 «إمام» يباهي الحمد وشيا مذهبا ❀ به وبرأس المجد تاجاً مرصعا
 غشيت به اندى من المزن رامة ❀ وأطيب أفياء وأمرع مربعا
 طمى الجود في يمانه بجرأ وربما ❀ تدفق في ارجائه فتدفعما
 وغدى نداه الغيث فانهل واكفا ❀ وحسبك من سقياه ان أسجما معا
 فرب حديث عن علاه سمعته ❀ وما طائر البشرى بأحسن مسمعا
 فيا شاعني برق توضح موهنا ❀ وقعقع ارعاد بنجد فاطمعا
 اذا كف من قطريكما عارض الندى ❀ وانكما برق البشاشة فاربعا
 فإن ابا «اسحاق» أخصب تلمعة ❀ واشهى مدى ظل واعذب مربعا
 وحسبكما ان قد تأسى به الحيا ❀ فعاود من رحماه ما كان اقلما
 وعز الهدى منه بأوحد امجد ❀ طويل نجاد السيف أبلغ ادرا
 أحل به العود اليبس سماحة ❀ واخدم مطرود الظي لا تورعا
 اذا دب أخفى من جبال مكيدة ❀ بصوب أبرى من شهاب واسرعا
 دعا باسمه داعى الحفيظة والندى ❀ فلبى على شرخ الشباب وأهطعا
 وهب كما هب الحسام استماتة ❀ وعب كما عب الخضم تبرعا
 وجر به ذيل الخيس ابن غابه ❀ تردى غلاما بالعللا وتلفعا
 وداس العدى ركضا واجرى الوغى دما ❀ باطوع من يمانه فعلا واطمعا
 ولما تدرى منها النصل منطقا ❀ سديداً فريدا او حميدا مقطعا
 تبديد في ذات المكارم واقتنى ❀ وروه في جنب الاله ورفعما

وخفض من صوت الابي وصيته ❀ وزلزل من ذكر العصي وضعضا
 والقت إليه بالمقادة قيادة ❀ تطامن من أعراقها ما ترعا
 وذلل من اخلاقه كل ريش ❀ وأصحب خوار الشكيمة طيعا
 فمن مبلغ الايام عنى أننى ❀ تبوأ منه حيث شئت تمتعا
 وطرت ثناء واطلعت ثنية ❀ فاسرفت إيصاعا وأشرفت موضعا
 وهل بقيت للنفس الا اطلاعة ❀ الى القلم الاعلى بخط موقعا
 فما القمر السارى باجل غرة ❀ ولا الوابل الغادي بأكرم مصنعا
 وهنت عيدا قد تلاقاك خادما ❀ ولم يك لولا أن طلعت ليطلعا
 وحسبك جد قد أظلك خادما ❀ فما هو الا ان تقول فيسمعا
 وحيالك من فرع لأشرف دوحة ❀ نسيم كأنقاس العذاري تضوعا
 يلاعب من خوط الاراقة معظفا ❀ ويمسح من مسرى الغمامة ادما
 الى غير ذلك من القصائد الطنانة التي يحفظها سجل الدولة المرابطة
 المحيدة وسنشفع ذلك ببعض صور النثر المستعمل بمراکش الحمراء من
 ذلك هذا المرسوم المرابطي الصادر عن امير المسلمين الى اهل سبتة بولاية
 الامير ابي زكريا «يحيى» ابن الامير ابي بكر ايده الله ورحم اياه .
 كتابنا ابقاكم الله وأكرمكم بتقواه ، ويسركم لما يرضاه ، وأسبغ عليكم
 نعمه ، وقد رأينا والله بفضلله يقرن جميع آرائنا بالتسديد ، ولا يخلينا في كافة
 انحاءنا من النظر الحميد ، ان نولى ابا زكريا يحيى بن ابي بكر محل ابننا ، الناشي
 في حجرنا ، اعزه الله وسدده فيما فلدناه اياه من مدينتي (فاس) و (سبتة) وجميع

اعمالها حرسها الله ، على الرسم الذي تولاه غيره قبله ، فانفذنا ذلك لما توسمناه من مخايل النجاة قبله ، ووصيناه بما نرجوا أن يحتديه ويمثله ، ويجرى عليه قوله وعمله ، ونحن من وراء اختباره ، والفحص عن اخباره ، لانني بحول الله في امتحانه وتجريبه ، والعناية بتخريججه وتدريبه ، والله عز وجل يحقق خيلتنا فيه ، ويوفقه من سداد القول والعمل الى ما يرضيه ، فاذا وصل اليكم خطابنا هذا فالتزموا له السمع والطاعة ، والنصح والمشايعة ، جهد الاستطاعة ، وعظموا بحسب مكانه منا قدره ، رامتلكوا في كل عمل من أعمال الحق نهيه وأمره ، والله تعالى يمدد بتوفيقه وهدايته ، ويعرفكم بمن ولايته بعزته .
ومن ذلك المرحوم الذي سبق لنا ذكره ، في ص ٢٩ من هذا الجزء وفي ص ٧٢ مع بقية المراسم المدرجة في التراجع السابقة .

ولك ان تجعل من امثلة ذلك مجموعة الكتب الادبية التي ألفت برسم امراء دولة بني تاشفين الخالدة التي أحيت العلم والدين والادب وكانت ايامها الزاهرة اعيادا ومواسم بالعدوة والاندلس ولقد اتخذ الكتاب والشعراء من اهل العدوتين تهنئة الامراء المرابطين بالذكريات الاسلامية باعثا ساميا لاثارة شعورهم الفياض نحو حامية الاسلام والادب بالجزيرة كما اتخذوا من التنقلات الادارية ، بين الاندلس ومراكش سببا قويا لاثارة هو اجسهم الوجدانية ، وعواطفهم الرقيقة نحو بني تاشفين حتى أصبحت التهاني الثرية والشعرية ترف الى الامراء والنبلاء لدى كل مناسبة حتى في سفرهم من الحضرة العلية «مراكش» أو رجوعهم اليها ، وظل ذلك سنة متبعة هنا وهناك مما نفقت

به السوق الادبية أياً انفاق وجمعت بتلك المناسبات رسائل بالتهاني والاخوانيات، ولقد كتب بعض الشاطبيين على لسان جزيرة شقر الاندلسية تهنئة للامير ابي عبد الله تاشفين بن امير المسلمين علي بن يوسف بولاية العهد سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة قال فيها «أطال الله بقاء الامير الاجل الملك الافضل، ولي عهد المسلمين في علو من شأنه، وتمهيد من سلطانه، والدر له مطيع، وشمل الاسلام بظله جميع، جارية على امله الاقدار، مؤيد العزم من اعوانه الليل والنهار، كتابنا من جزيرة «شقر» حرسها الله تعالى بعد أن ورد كتاب امير المسلمين، وناصر الدين، أعلى الله كلمته، وبسط دعوته، على الفقيه الاجل ابي زكريا يحيى بن علي أيده الله ونصره، مضمناً من تولية عهده، وتمليكك أزمة الامر والنهي من بعده، ما تهافتت الاقدام مهطعة الى داعيه، وامتدت ايدي القبول مسرعة إلى ملقيه، وحدقت العيون عجباً لموقعه وأصغت الآذان كلها بسمعته، وضمت الضلوع عليها علاقة، وانبسطت أسارير الوجوه بشراً وطلاقة، فكل رفع يديه، ورمق السماء بعينه، مبتهلين الى من يرجع الامر كله اليه، شاكرين على توفيق امير المسلمين في حسن الارتياح، واجرائه على اكرم عاداته من توطيد البلاد ومصالح العباد، واشارنا منه بالطاهر الاثواب، المتمسك من الدين باوثق الاسباب.

بالمملك اللهم . وغرة الايام، ذى الاثار المرضية، والسير العمرية، وهل هي الا عمد الاسلام أذن الله بتمهيدها، ودعائمه التي رفعت فكانت هذه الولاية من تشييدها، بيعة ميمونة أو ائلهاء واواخرها، مباركة مواردها

ومصادرها ، التزمها كافة اهل الجزيرة واعمالها بانفذ بصيرة ، واصدق علانية
وسريرة ، وتقلدناها فثبت ثبوت الاطواق في الاعناق ، واخذنا بها على انفسنا
أوكد عهد واشد ميثاق ، واعطينا بها صفقة ايماننا طائعين ، لشروطها وعهودها
ملتزمين ، اطمانت لها القلوب وقرت بها العيون ، وتماثلت عليها النفوس
والتأمت الشؤون فما منا إلا شاكر لله أولا ، ثم لامير المسلمين ثانيا ، على ما
خص به من هذه الولاية وعم ، ولا غرو فقد ما بدأ بالنعمة فآتم ، ونحن
نسئل الذي لا يخيب سائله ، ولا يعدو راجيه نائله ، ان يقرن بها سعدا
يفوت الابد امده ، ودواما يتلو يومه غده ، ويعرفنا ويعرفه بمن هذا التقليد ،
ويصل او امره ونواهيهِ بالتوفيق والتسديد ، ويهنيه ما وهبه من تماثل القلوب
على محبته ، والبدار الى التزام بيعته ، كما نسئل ان يهنئنا ما أولانا ، ويوفي
بنا على ما نامله فيه ونتمناه ، فذلك اليه لا رب سواه ، لا زال الامير الاجل
برور السعي حميد الآثار ، سالكا في العدل سبل المتقين الاخيار ، معقودا
بالظفر لواؤه مكبوتة حسدته واعدائه ، بحول الله تعالى والسلام .

ولولا مخافة الاطالة لادرجنا رسائل عدة أرجأناها الى مناسبة اخرى
بحول الله وقوته كما أرجأنا كذلك عدة مراسم ، وفيما تضمنته هذه الكراسة
كفاية لمن كان له لب او اتقى السمع وهو شهيد ، والله المرجو للتوفيق والتسديد .

البيان والبديع

لا ريب أن عالمي الماني والبيان كانا من العلوم الرئيسية التي تعنى بها الثقافة المراكشية عناية خاصة في عهد دولة بني تاشفين التي كانت دأبة السعي في إنشاء وحدة فكرية بين المغرب والاندلس وبالأخص بين مراكش وقرطبة حيث كان ديوانها بالحرء يمثل وحدة أدبية وثيقة العرى بين العدوتين تتجلى متانتها فيما أبدعه الكتاب من الرسائل البليغة والمراسيم البديعة والمقطعات الرائعة التي تبدو في رشاقة أسلوبها الرقيق مطبوعة بذلك الطابع الاندلسي الاخاذ الخاضع في جوهره للقوانين المرعية في معارض التشبيه والكناية وما الى ذلك من معاني البديع التي تفرضها عادة صناعة الترسل على الكتاب والادباء في تكوينهم العلمي من احكام ملكة البيان وإتقان الذوق الادبي. وطبيعي ان تحكم الملكة وينمى الذوق بدراسة ما انضجته التفكير الاندلسي السقديم من تأليف كانت تغمر ابهاء اليوسفية وارجاءها حيث تملى على التلاميذ صباحا ومساء بواسطة أوائلئك الاكفاء الذين يذكرون مع اليوسفية بكل اكبار واعظام كلما ذكر ماضيها المجيد ، ولا بدع فالتعليم بمراكش كان وليد الاندلس التي وطدت دعائمه باليوسفية منذ نشأتها اوائل المائة السادسة ، لذلك اخصبت مرابعها في عهد وجيز ، وأنتجت من النوابع مثل أمير البيان أبي جعفر أحمد بن عطية المراكشي الصنهاجي وأشباهه ممن يحفظ التاريخ المراكشي اسماءهم ، وكيف لا تنخرج اليوسفية مثل أوائلئك ، وقد احكم الاندلسيون غرسها كما أحسن المرابطيون تعهدها بكل حزم وعزم

حتى انبعث في جواهرها بقاء ومتفنون في العلوم العقلية واللسانية جاءوا من كل جديد بما يدل على براعتهم وقوة تفكيرهم وسرعة خاطرهم ، وفي رسائل مخضرمي الدولتين المراكشتين ما يبرهن على حسن النتائج الدراسية في المعهد اليوسفي العظيم منذ فتح أبوابه لاداء رسالته العلمية بكل أمانة وإخلاص تلك الرسالة التي تملئ ضمن نطاقها دروس تطبيقية لعلمي البيان والبديع (١) مما كان الاساتذة يعنون به في تحليل دروسهم الفنية حول كتب مفيدة كانت منتشرة حينذاك في خزائن المغرب كسرار البلاغة ودلائل الاعجاز

(١) من المعلوم اطلاق البيان على ما يشمل الفنون الثلاثة لتوحيد غايتها ، فرعاية مقتضى الحال واعتبار وضوح الدلالة وتوشية الكلام بحسن البديع كل ذلك يزيد الكلام رونقا وبراعة ينتقل فيها الفكر من حديقة إلى أخرى في غير سآمة ولا ملل لذلك كان البديع بقسميه اللفظي والمعنوي من أبدع ما حل به البيان واليك من امثله الرائعة ما يستعذبه الذوق . من ذلك إرسال المثل في قوله :

تهون علينا في المعالي نفوسنا * ومن يخطب الحسناء لم يغله المهر

ومنه القلب في الشعر والنثر فن الاول قول الشاعر :

مودته تدوم لكل هول * وهل كل مودته تدوم

ومن الثاني قول العماد الاصبهاني (سرفلا بيا بك الفرص) ومنها الاستدراك كما في قول الشاعر :

واخوان تخذتهم دروعا * فكانوها ولكن للاعدادي

وخلتهم سهاماً صائبات * فكانوها ولكن في فؤادي

وقالوا قد صفت منا قلوب * لقد صدقوا ولكن من ودادي

ومن أجلها في الجنس المضارع قول القائل :

لا ابتغي وصل من لا يبتغي صلقى * ولا ابن لمن لا يبتغي لبني

والله لو كرهت كي مصاحبتي * يوما لقلت لها عن صحبتي ببني

والطراز وغير ذلك من الكتب القيمة التي كانت محل دراسة في تلك العصور الذهبية ، على أن في مدارس الكتب الادبية الرائجة اذ ذاك بالكلية ثروة فكرية تعين على إتمام الذوق الادبي والذوق الادبي وحده هو سر البيان ، وسحر الجنان لان به وحده تدرك مواقع البلاغة في براعة الكلام وبه وحده يتزن القول ويحسن البيان ، على ان الادب عند الاقدمين كان أعم من الصناعتين ، لذلك نرى الكتب الادبية تعالج موضوع الفصاحة والجزالة والبراعة بكل ما في وسعها من جهود ، وتقتطف ازهاراً من بلاغة العرب في منتخبات نثرية ، ومقطعات شعرية ، كأمثلة لادراك البلاغة في مواقع الكلام وفي دراسة الذكر الحكيم ، وتفهم اسرار معاني التنزيل ما يكون عدة قوية لامتلاك محاسن البيان فسبحان من أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (الرحمان علم القراءان * خلق الانسان علمه البيان) فجعل البيان مقروناً بخلق الانسان.

✧ الطب ✧

لا أقصد من كلمة طب هنا غير ذلك المعنى المتعارف عند الاقدمين ، في الدلالة على معالجة الابدان بواسطة تشريح او تغذية ، مما كان نواة لتشديد اركان الطب العربي في دولة الاسلام التي كانت لها العناية التامة بترقية مهنة الطب في شتى العصور ، لان الطب بضرورة العمران يساير التمدن البشري الذي قرن بنهضة الاسلام منذ نشأة الدولة العربية ، وقد اخذ الطب حظه من الرقي في عهد بني امية بدمشق الفيحاء ثم خطى خطوات شاسعة في

بغداد عاصمة الرشيد في صدر الدولة العباسية، حيث تزود بكل ما يحتاج اليه باستعرا ب الكتب اليونانية وغيرها مما نفقت به سوقه في ذلك العصر الذهبي الزاهر الذي بلغت فيه الحضارة العربية ارقى ما يحفظه التاريخ لدولة عظمى ولا بدع فان الطب أولا كان يتبوأ المقام الاول في المعارف الاسلامية اتوقف التمدن عليه بقدر ما يتوقف العمران على سلامة الاجسام، لذلك كان في طليعة العلوم الاسلامية التي سارت العمران بصور ملونة تلفت الانظار حيث وصلت إلى ارقى ما أنضجه التفكير في القرون الوسطى لدى الشرقيين وما كانت قرطبة وغرناطة وإشبيلية بالاندلس إلا مدارس راقية لتخريج الصيادلة والاختصاصيين من فحول الاطباء يشهد بذلك ما ألف في ذلك العهد من كتب اسلامية راقية وقف الطب الحديث أمامها خاشعا يستوحي الصواب مما رسمته في خصائص الاجساد من اعتبارات فنية يتجدد مع الطب الحديث استصوابها كلما كشف الحكماء من خبيئات الاجسام سرا مكنونا .

ولقد كان هذا الفن من أهم ما ورثته مراکش الحمراء او اخر المائة الخامسة لما سقطت عروش ملوك الطوائف بين يدي الدولة اليوسفية فتصدها من الجزيرة ارباب الاقلام وفحول الاطباء كابى مروان الاشبيلي وابى العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر في آخرين ممن اتمد في طليعتهم اسرة بنى زهر الاشبيليين التي اشتملت على أفراد من فحول اطباء الاسلام لذلك العهد فهذا ابو العلاء احد حكماء المسلمين ممن كانت له اليد البيضاء

على تقدم مهنة الطب في العدوتين، قد اختار مراکش الحمراء مركزاً لمزاولة مهنته الإنسانية في عهد على المرابطي الذي أكرم مشواه ورقاه إلى رتبة الوزارة في حكومته لما كان له من المثل العليا في انقاذ البشرية من جراثيم الأمراض الفتاكة بالحمراء.

وقد كان لتأييد دولة المرابطين مدرسة الطب أثر حسن في نفسية الأطباء الذين بادروا من جانبهم بوضع تاليف مطبوعة برسم أمراء بني تاشفين كتأليف أبي الوليد المحلى مطلع برسم الأمير أبي اسحاق إبراهيم بن يوسف المسمى (بالاقتصاد في علم الاجساد) كما ألف غيره من الكتب الطبية خصوصاً في الطبائع البشرية وخصائص النبات والتغذية وبيان ما تستدعيه المناخات الحارة والباردة من الاعتبارات البدنية، والتطورات الجسمانية في مختلف الاوقات من مراعاة الفصول والعقود وغير ذلك مما ملأ الكتب الطبية لذلك الحين، وكان له الاثر الفعال في ترويج علم الطب في الاوساط العامة بالمغرب، ولقد احسن صديقنا الاستاذ المؤرخ محمد الكانوني في بحث له خاص حول الطب بمراكش نشره في مجلة المغرب تحت عنوان الطب وآثاره بمراكش الحمراء حيث قال: «منذ تأسست العاصمة المراكشية واسط القرن الخامس الهجري اخذ ملوكها من الدولتين اللمتونية والموحدية على عاتقهم بها نشر وسائل الرقي والعمران ورفع مستوى العلوم والمعارف فجلبوا لها من أهل كل فن فحولوا - إلى ان قال - فصارت بذلك مراکش مركز السياسة والحضارة الراقية، وخلفت قرطبة في سياستها ورقيةا وبغداد في

حضارتها وتفوقها ، و من جملة المهن الجليلة التي قارنت هذه النهضة الميمونة مهنة الطب اذ هو ضروري لانظام العمران ، وحفظه من انتشاره والاضمحلال - إلى ان قال - في الطب بعهد الدولة الممتونية فكانت هذه الدولة التي أسست مراکش قد نشرت رواق العدل وحسن الرعاية على كامل المغرب وغالب الاندلس فانقطع اليها من أهل كل فن اربابه فامتعت بها نواميس الرقي والعمران حتى بلغت اوج عظمتها الخالدة في التاريخ ومن الذين تشرفت بهم أبناء زهر الاشبيليون « إلى آخر ما سجله الاستاذ الكانوني في بحثه المتسم الارزاء الذي يحتاج في تحليله إلى تأليف خاص ، وقد كان الطبيب لذلك العهد ماهرا في العلوم الاسلامية وفي الصناعتين الترسل وقرض الشعر كما كان ماهرا في شتى العلوم الدينية التي أسست عليها نظم الاسلام من تفسير وحديث وفقه وغير ذلك مما كان الاطباء يحسنونه زيادة على براعتهم في مهنة الطب فالطبيب المسلم فقيه بدينه زرت الشرائع بمقياس القانون الاسلامي كما هو حكيم بانظاره في بدائع الكون ، عالم بأسرار التشريح وخواص الاشياء ، فهذا التاريخ يحدثنا عن أبناء زهر وعما خلدوه في الطب من آراء وفي الادب من منظوم ومشور ، وقد كل الواحد منهم يستظهر زيادة على ذلك صحيح البخاري متنا وائنادا كما كان يستظهر من كتب الفقه مثل المبسوطة والمدونة ، وقد ذكر صاحب عيون الاخبار في تاريخه ان أبا بكر بن زهر مخضرم الدولتين كان حافظا للقرآن والحديث مشغلا بعلم الادب متمنا لقرض الشعر ولم يكن في زمنه اعلم منه بعرفة اللغة وله

موشحات مع متانة في الدين وقوة في النفس واليقين ، وقد قرأ على ابي الوليد الباجي مسند ابن ابي شيبة ومدونة سحنون زيادة على مهارته في صناعة الطب وقد خدم الدولتين كما خدم أبوه ابو العلاء زهر بن عبد الملك امراء دولة المثلثين ، وكان مثالا أعلى في المعرفة وقد ترجمه بعض المؤرخين بقوله (أبو العلاء زهر بن عبد الملك كان وزير ذلك الدهر وعظيمه وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه وبيته من كبار البيوتات الاندلسية التي جمعت بين تسلسل العلم والرياسة دهرًا طويلا وقد استدعاه ابن تاشفين لحاضرتة فاجاب ولاوامره خضع وأتاب) وذكر له في طبقات الاطباء ترجمة حافلة نقتطف منها ما يأتي :

«أبو العلاء زهر بن ابي مروان عبد الملك بن محمد بن مروان مشهور بالحدق والمعرفة وله علاجات مختارة تدل على تفوقه في صناعة الطب واطلاعه على دقائقها وكانت له نوادر في مداوات المرضى ومعرفة احوالهم وما يجدونه من آلام بحس نبضهم او بالنظر إلى قواريرهم وكان في دولة المثلثين المعروفين بالمرابطين وقد حظى في ايامهم بالمكانة العليا ونال المنزلة الرفيعة والذكر الجليل اشتغل بالطب وهو صغير في أيام المعتضد ومع ذلك لم تكن حرفة الطب حائلة بينه وبين اتحال الادب والاشتغال به وهو حسن التصنيف جيد التأليف وفي زمنه وصل كتاب القانون لابن سينا (انظر صحيفه ٦٤) من الجزء الثاني من طبقات الاطباء فقيها فوائده وفوائد مستوحاة من ترجمة ابي العلاء الذي توفي بمراكش الحمراء ودفن بمقابر الشيوخ، ومثل هؤلاء العباقرة

الكرام والدكاترة العظام من فقهاء الاطباء ونوابغ الالباء هم الذين كانوا يمدون اليوسفية بثروتهم الفكرية الغزيرة التي أودعوها بكل أمانة وإخلاص في أسطوره من علوم وانتخبوه من أدب احيا الله رواقها وانا بالمعرفة اسماءها وارجع لها من العز والمعرفة سالف مجدها حتى ترى من نخبة ابنائها النبلاء علماء ماهرين من أمثال ابى العلاء واضرابه وما ذلك على همسة النبوغ المراكشى ببعيد.

❦ التصوف ❦

ليس التصوف لبس الصوف ترقمه * ولا بسكاؤك أن غنى المغنونا ولا صياح ولا رقص ولا طرب * ولا اغتباط كأن قد صرت مجنونا بل التصوف أن تصفو بلا كدر * وتتبع الحق والقرآن والدينا وان ترى خاشعاً لله مكتئباً * على ذنوبك طول الدهر محزوناً هذا النوع من التصوف الذي يعبد الطريق أمام السالكين هو الذي تسرب لمراكش في باديء امرها واتخذها مربى صالحاً لئلا يبدئه التهذيبية التي صارت بعد من جملة العلوم الروحية التي تنير السبيل أمام المهتدين بسبب رياضة النفس على التحلي بارادية الزهد والورع ، وقد نشأ بمراكش كما كان ينشأ عادة في كبريات العواصم الاسلامية ولاح نجمه بافق الحمراء مع اولئك الزهاد والمتبتلين الذين انبعثوا منها والذين التجأوا اليها واتخذوها دار هجرتهم ومرکز دعوتهم كأبى العباس أحمد بن العريف وابن برجان وأبى عبد الله ابن حرزيم وأبى عبد الله محمد بن خلف المراكشى وأبى الحجاج يوسف بن

موسى و تلميذه أبى مروان في آخرين ممن كانت لهم ميول طبيعية للزهد
ومبادئ معقولة في مسمى التصوف استطاعوا ان يشوها بين افراد الامنة
كعلم اجتماعى يؤيد الدين وينفخ روح التهذيب والترقية الفاضلة في النفوس
بطرق واضحة لا تتنافى في جوهرها مع شىء من العقائد السلفية ولا مع
التشريع الاسلامى لذلك كان التصوف بهذا المعنى ذا صفة مقبولة في الاوساط
العامة تحترم منه خلاصة مبداء الجنيد ونبذة ما في رسالة القشيري وغيرهما من
الكتب التى كانت لا تعنى إلا بتصفية النفوس من الطبائع الرديئة وتخليصها
من الشهوات الطاغية والصفات البشرية السافلة سعياً وراء تحصيل المثل العليا
في الحياة الاجتماعية ، لذلك كانت دولة الملمئين تعطف بوجه خاص على هذا
النوع من التصوف وتجل فيه الكمال الروحي مادام قاصراً على تهذيب النفوس
يستمد مبادئه من الكتاب والسنة لا من التواجد والتوجدات والرقص
والطرب والشطحات والتقصيان وما إلى ذلك من الاوضاع الزائفة التى
طالما نفر العلماء من سموها الفتاكة حيث كانوا يحتلقونها بمكيال أوفى من
النقد والتجريح ورضى الله عن الامام القشيري من أهل المائة الخامسة إذ
صدع بالحقيقة في بيان صوفية عصره لما قال في طليعة الرسالة في معرض
النصح (ثم اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقضوا أكثرهم
ولم يبق في زمننا هذا منهم إلا أثرهم ،

أما الخيام فانها نكيا مهم * وأرى نساء الحى غير نساءها
زال البرع وطوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رباطه ، وارتحلت عن

القلوب حرمة الشريعة ، فعدوا قلة المبالة بالدين أو ثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام واستخفوا بالعبادات واستهانوا بالصوم والصلاة وركضوا في ميدان الفضلات وركنوا إلى إتباع الشهوات وقلة المبالات بتعاطي المحظورات والارتفاق بما يأخذونه من السوق والنسوان وأصحاب السلطان). ولقد أنكر القرطبي على أدعياء التصوف بقوله: (وما الاسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأما القضيب فول من إتخذه الزنادقة يشغلون به المسامين عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فينبغي للسلطان أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ويعينهم على باطلهم) وقديما أفق الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني بتفسيقهم وبطلان صلاة من يقتدي بهم كما نقل ذلك صاحب الهداية الاسلامية الاستاذ الخضر التونسى ولقد خان بعض المتصوفين أمانة الاسلام وحرفوا الكلم عن مواضعه في تأويل معاني القرآن بحملها على مقاصد تنكرها اللغة والشريعة ، وتمجها الفطرة والطبيعة وينفر عنها الذوق بالفاظ إنتحلوها من الباطنية وقدسوها تقديسا وتحصنوا للذود عنها بأنها من الالهام الخفي الذي حجب عنه أهل الظاهر ولقد نص أئمة الاسلام وأركان الدين على أن نصوص القرآن تحمل على معانيها الظاهرة وأن العدول عن ذلك إلى معاني يدعيها أهل الباطن إلحاد والله يعلم هل كانت إساءتهم عن جهل وغباوة أو عن مكيدة وتغريب دبروه

لاطفاء نور الاسلام ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الادياء وغير بعيد على رجال اختلقوا أحاديث عن الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم ابتغاء تأييد ضلالهم تحت ستار سخافة ابتدعوها وهم يعامون أب الدين الاسلامى منهم براء لانه دين الصدق والامانة ، دين الصرامة والاخلاص دين التوكل واليقين ، دين اتباع الكتاب والسنة لادين الكذب والخيانة والنفاق والتغريب وتبديل الشكل والتضليل ورضى الله عن السيوطى إذ سجل عليهم اسم الكذابين والمختلقين والدجاجلة والمفترين حيث قال في التمييز من رواية الحديث الموضوع وبيان مراتب الوضاعين .

والواضعون بعضهم ليفسدا * ديننا وبعض نصر رأي قصدا
كذا تكسبا وبعض قد روى * للامراء ما يوافق الهوى
وشرهم صوفية قد وضعوا * محتسين الاجر فيما بدعوا
فقبلت منهم ركونا لهم * حتى أبانها الى هم هم
وجزم الشيخ أبو محمد * بكفره بوضعه إن يقصد
ولا يدري بأي كتاب أم بأية سنة فرقوا دينهم وكانوا شيعا .

واستحبوا العمى على الهدى فابتدعوا في مدلهيات العصور باسم التصوف بدعا وبدعا ، فساء من أجل ذلك حالهم وكثر اضطرابهم فاصطنع كل فريق منهم حسب استعداده وتصوره ماسوالاته له نفسه مما يراه ملائما لغايته ومقصده ، واختلفت قواعد التصوف ونظمه باختلاف شخصية المتصوف وعصره وجنسه ومصره وميله الفطري إذ مدار التصوف

الرياضة وما يرد على صاحبه أثناءها من خواطر والهائمات حيث أن التصوف لا ضابط يحفظه من الفوضى ولا دستور يقيه من الاضطراب ، غير أن من الصوفية من كانت عمدته الرياضة وحدها ومنهم من يقيدها بالدين فتشعبت لذلك فرقهم وتعددت مذاهبهم إلى زهاد معتدلين وإلى دخلاء مبتدعين وإلى مارقين من الدين يتخبطون حول وحدة الوجود وما إلى ذلك من حلول ولهم في تصوير مذاهبهم عبارات غامضة وإشارات بعيدة قد يخرج الخائض فيها بالجمع بين الكفر والإيمان في صور تشبه في شكلها جوهر الاقنيم عند المسيحيين..... ولله در عبد الحق الاشبيلي إذ يحذر الناس من الاغترار بمثل أولئك بقوله.

لا يخذعنك عن دين الهدى نقر * لم يرزقوا في التماس الحق تأييدا
عمى القلوب عروا عن كل فائدة * لأنهم كفروا بالله تقليدا
ومن تقليد نظراء هؤلاء حذر العلماء وعلى هامتهم سيد الصوفية الامام
الجنيد رضى الله عنه إذ يقول : (الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من
إقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب
الحديث لا يقتدي به في هذا الامر لان عمنا هذا مفيد بالكتاب والسنة).
ولقد كشف القشيري النقاب عن وجه متصوفة عصره وأزاح الستار عن
مقاصدهم الدنيئة وما يضمرونه في صنائعهم من توزيع اتجاهات المسلمين بكل
ما أوتوه من براعة في التلبيس والتدليس حتى انحطت بذلك رتبهم عند
العامة والخاصة وأصبحوا حيارى يستترون تحت ألقاب ابتدعوها وألفاظ

تقديس اخترعوها ، وقد استغل بعض الدخلاء موقف ضعف التصوف فدوّنوا أساطير باسم رسائل إخوان الصفا ، دوّنوا فيها من أنواع الضلال والاستخفاف بمباديء الاسلام ما يدهش العقول ويلفت النظر فاتخذوا بذلك رجال التصوف جسراً صالحاً لعبورهم نحو الغاية التي ينشدونها وغير بعيد أن تكون للامامية والشيعة يد عاملة في وضع رسائل إخوان الصفا حيث ثبت تاريخياً استغلال بعض ضعفة المتصوفة من طرف الشيعة والامامية في مقاصدهم السياسية والاجتماعية ، وهل التصوف في الحقيقة إلا شعبة من شعاب الباطنية والشيعة ، وقد ذكر صاحب العبر امتزاج مذاهب الصوفية بمذاهب الشيعة والامامية حيث قال في متأخريهم (ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفي ما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه وملاؤا الصحف منه مثل الهروي في كتاب المقامات له وغيره وتبعهم ابن عربي وابن سبعين وتلاميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الاسرائيلي في قصائدهم وكان سلفهم مخالطين للاسماعلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول وتأليه الأئمة مذهباً لم يعرف لاولهم فاشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقام المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان) ورضى الله على أبي زكرياء يحيى بن يوغان الصنهاجي حيث قال في معرض الارشاد :

الطرق شتى وطرق الحق واحدة * والسالكون سبيل الحق أفراد
لا يعرفون ولا تدرى مقاصدهم * فهم على مهل يمشون قصاصد
والناس في غفلة مما يراد بهم * وجلهم عن سبيل الحق رقاد
أجل السالكون سبيل الحق أفراد والسالكون سبيل الاهواء رقاد وقد
أحسن إمام السالكين وقدوة العارفين الامام الغزالي رضى الله عنه في التنفير
من تتبع أوعر المسالك واقتفاء أثر المغرورين والهالكين من ذوي الضلال
والشدوذ حيث قال (ومتصوفة هذا الزمان — إلا من عصمه الله — اغتروا
بالزري والمنطق والهيئة من السماع والرقص ولم يتعبوا أنفسهم في المجاهدة
والرياضة النفسية) وقال في كتابه الاحياء بعد أن ذكر صورة الرياضة
(ثم إن قوما من المتأخرين انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب والمدارك
التي وراءه واختلفت طرق الرياضة عنهم في ذلك باختلاف تعليمهم في إمامة
القوة الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر حتى يحصل للنفس إدراكها الذي
لها من ذاتها تمام نشوتها وتغذيتها فإذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد
انحصر في مداركها حينئذ وأنهم كشفوا ذات الوجود وتصوروا
حقائقها من العرش إلى الطش) وهم في كل ذلك يفضلون سبيل الضلال على
طريق الهدى والرشاد في مظهر ترهذى لا يتفق في الغالب مع سرارهم التي
أبان عنها أبو حيان بقوله :

ذئاب في ثياب قد تبدت * لرائها بأشكال الرجال
ومن يك يدعى منهم صلاحا * فز نديق تغفل في الضلال

ترى الجهال تتبعه وترضى * مشاركة باهل أو بمل
 فينهب ما لهم ويصيب منهم * كراهم بمقبوح الفعـال
 ويأخذ حاله زوراً فيرمى * عمامته ويرقص في الرمال
 وتلك شنشنة عرفها حتى المعري الذي قدم للصوفية قصيدته الطويلة
 التي يقول فيها :

لو كنتم أهل صفو قال ناسبكم * صفوية فاني باللفظ ماقلبا
 جند لا بليس في بدليس آونة * ونارة يحلبون العيش في حلبا
 طلبتم الزاد في الآفاق عن طمع * والله يوجد حقاً أينما طلبا
 واست أعنى بهذا غير فاجر كم * إن التقى إذا زاحمته غلبا

ومثل هؤلاء الذين وصفهم القشيري والغزالي وحذر منهم القرطبي وغيره
 واكتشف سرهم حتى المعري الذي جعلهم من جند الشيطان الرجيم هم الذين
 أثاروا الشكوك حول أنفسهم من لدن رجال الدولة المرابطة التي كبت
 جماهم في المغرب والاندلس وفرضت على بعض رجالهم فروضا قاسية
 أدت بهم إلى القتل والتشريد في ظروف عصيبة ذهب ضحيتها أبو عبد الله
 محمد بن يـخلف المراكشي الذي زج به في سجن مراکش مدة طويلة ألف
 أثناءها كتابا في التصوف، كما ذهب ضحيتها كذلك ابن برجان (١) الذي أمر

(١) ابن برجان هو أبو الحكم المشهور بابن أبي الرجال دفين الرحبة القديمة
 بمراكش الحمراء وترجمه في نيل الابتهاج بقوله « عبد الرحمن ابن أبي الرجال هو محمد
 بن عبد الرحمن اللخمي الاشيلي افريقي الاصل يعرف بابن برجان إلى أن قال وكان

بالتقاءه في مزبلة وبعد دفنه من طرف أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين في ظروف عصيبة طغى سيلها على كل ما ينسب للتصوف حتى جرف كتب الامام الغزالي ومن ضمنها الاحياء الذي سطت عليه يد الاقدار وحرق بالصحن في مراکش بعد أن تواتر إفتاء علماء المغرب والاندلس على حرقه (١)

من أهل المعرفة بالقراءات والحديث وبحقيقات في علم الكلام والتصوف مع زهد وجهاد في المبادات، له تاليف مفيدة كتفسير القرآن لم يكمل وشرح الاسماء الحسنى توفي مغرباً عن وطنه سنة ٥٣٠ وقد ترجمه غير واحد من المؤرخين واتفقت كلمتهم على أنه كان من أرباب الاحوال والمقامات وقد ذكره في التشوف أثناء ترجمة ابن حرزم بقوله « لما شخص أبو الحكم ابن برجان من فرطية إلى حضرة مراکش سئل عن مسائل عذب عليه فيها فخرجها على ما تحتمله من التأويل انفصلاً عما لزمه من النقد فقال بعد ذلك لا عشت ولا عاش الذي أشخصني بعد موتي ، فبلغ ذلك أمير المسلمين ولما مات أبو الحكم أمر السلطان أن يطرح على مزبلة ولا يصلى عليه مقلداً في ذلك من تكلم فيه من الفقهاء إلى آخر القصة المتضمنة لسمي ابن حرزم في دفنه بطريقة التي يحفظها التاريخ.

(١) إنه لمن دواعي الأسف أن يصادف كتاب الاحياء معارضة قوية أدت به إلى الحرق في الصحن بمراكش بلا تراث ولا تأمل كما نبأنا، عن ذلك الاخبار مع ما اشتمل عليه الكتاب من علم غزير سواء في باب التهذيب الروحي أو في دراسة الكائنات على ضوء البحث والتحليل، وقد بعض الآراء الكونية التي لاتعق ومبادئ لا ملام مما يهدد معه الاحياء مجموعة إصلاحية تجمع بين التعليم والتهذيب مع نقد منطقي سليم لا أولئك الفقهاء الذين وقفوا أمام نقطة خاصة من العلم موقف التقديس والاحلال فضيعوا بذلك شتى العلوم لا عراضهم التام عن دراسة الكائنات بطريقة

وإلّا ذلك كان بسبب قول أبي حامد في بعض فصول الكتاب (ليس في الإمكان أبدع مما كان) على أن الأسباب العامة التي أدت إلى اضطهاد التصوف في ذلك العصر إلى الحد المعروف قد تكون راجعة إلى أمور سياسية واجتماعية واعتقادية وغير بعيد أن يكون الأحياء حرق لأسباب اجتماعية واعتقادية ولم يكن الأحياء وحده ضحية الحرق بل جرى على غيره

محكمة تبرهن عن رسوخ الاعتقاد بحجة لا تحتل النقيض ولا يعترها الشك وقد عرض الإمام الغزالي في مناسبات عن ضعف أولئك الفقهاء مما أثار حفاظهم نحو كتبه لما ظهرت بالمغرب والأندلس وتوجسوا خيفة من سقوطهم أمام الرأي العام إذا تذوقوا إشارات حجة الإسلام فبستصغرون حتى في عيون أتباعهم ففتوا بحرق الأحياء وحكموا عليه بذلك الحكم القاسي حفظاً لكرامتهم العلمية وصوناً لمخجبتهم من أن تسام الخسف وهذا ما يؤخذ من كلام الشرفيين في الذود عن حجة الإسلام وقد شنعوا على علماء المغرب في ذلك العصر حتى قال صاحب الطبقات الكبرى في الرد على المازري « وأما المازري فإنه مغرّي وكانت المغاربة لما وقع لهم كتاب الأحياء لم يفهموه فحرقوه من تلك الحالة » ولعمري أنه لحكم قاس على المغاربة من صاحب الطبقات لا ينضم له إلا الفارقة أبداً وأنا نقول مع اجلالنا لكتاب الإمام الغزالي ذي الثروة الفكرية والتربية الروحية والمادة الغزيرة في باب التهذيب والإرشاد أن فيه هنات تستوجب النقد وتشير كوامن الصدور لذلك انتقده جماعة من فحول الأئمة الإسلامية شرقاً وغرباً كالبحاث الطرطوشي وابن العربي وابن الصلاح والمازري ومن بعد في صفهم ممن يعدّ عنده فهم كلام الغزالي في الأحياء من البديهيّات غير أنهم كانوا يمتنون الخوض في الطبيعيات والالهيات وفيما وراء المادة بطريقة فلسفية لا اعتقادهم أن ذلك فوق العقول ولزأهم أن الأولى أن يبحث الإنسان فيما ينفعه في دينه وأن يفوض في كل متشابه ،

من كتب ابى حامد ما جرى عليه وقد ذكر صاحب المعجب أن كتب
الامام الغزالي التي وصلت إلى مراکش والاندلس قد جمعت من الخزان
وحرقت بعد أن أفتى الفقهاء بذلك بدون أن يعلل ذلك على أنه لم يتبين
لحد الآن جلياً موجب حرق الاحياء مع غزارة مادته العلمية ووفرة بحوثه
التهذيبية في عبارات واضحة اللهم إلا إذا علل بعموض « ليس في الامكان

لذلك قال الطرطوشي في ضمن كلام الغزالي إلى أنه داخل في وسواس الشيطان الرحيم كما
قل عنه في التصوف أنه غير أنيس بكلام الصوفية اما ابن الصلاح فقد كال للغزالي
في باب النقد بمكيال اوفى بيد أن المازري يصف الغزالي بأنه قرأ الفلسفة قبل استبحاره
في علم الاصول كما قال في وصف الاحياء أنه ذكر فيه جملاً من مذاهب الموحدين
والفلاسفة والمتصوفة وأصحاب الاشارات مع بعد الشقة الكائنة بين اهل السنة من
السلف وبين الباحثين في الفلسفة إذ حرم اهل السنة حتى النظر في علم المنطق والمباحثة
على ضوء قواعده وتمسك اهل الكلام بالمنطق إلى درجة يقول فيها الغزالي في شيء
من الغضب والتأثر من لا يحس المنطق لا يوثق بعلمه وهذا يبين بعد الشقة بين
الغزالي وبين هؤلاء الذين افتوا بحرق كتبه أضف إلى ذلك قول الغزالي « ليس في
الامكان ابدع مما كان » مما يبين أن المغاربة لم يجمعوا على حرق الاحياء جهلاً منهم لمبدئه
وإنما افتوا بذلك لما انطوى عليه الاحياء من المبادئ التي تعتبر خارجة عن دائرة
علوم الدين وأهم مشكلة في الاحياء تناولتها الاقلام بالبحث والتحقيق قول صاحب
الاحياء (ليس في الامكان ابدع مما كان) التي ختلف العلماء في فهمها اختلافاً كبيراً ترتب عليه
انقسام نظريتهم إلى ثلاثة أقسام فمنهم من قال انها لم تصدر عن الغزالي وإنما دسها
عليه المرجفون وقد انكر اثباتها جماعة عنه كما اتبعتها آخرون مما ترتبت عليه منازعة دائمة بين

أبدع مما كان » الذي اهتزت لابهامه أرجاء المعاهد العلمية حتى ابتدعوا ليس في الامكان اقرار الاحياء في أي مكان وعلى أية صفة فان التصوف بمعناه المتعارف عند السلف كان متجليا في افراد مبتلين يعمررون المعاهد والربط التي كان يقطنها جماعة ممن اصطفوا الآخرة على الاولى وتصرعوا بتمقوى الله في سرهم وعلايتهم حتى كانوا محل اكرام وتقديس من رجال

انصار الغزالي وخصومه فذهبت الطائفة الاولى الى أن « ليس في الامكان » ليست من كلامه زاعمين ان وجود مثل ذلك في كتاب صحت نسبه الى امام لا يدل على أنه قالها حتى تنقل عنه نقلا متولرا يستوي فيه الطرفان والواسطة وهذا مفقود في مسئلتنا هذه . وعلى هامة هؤلاء الامام الباقلاني الذي الف في ذلك كتابا سماه الانتصار وتبعه في ذلك الشعراني وصاحب الفتوحات والشيخ عبد الكريم الجبلي والشيخ محمد المغربي الشاذلي والامام البكري والشيخ ابو المواهب التونسي وشيخ الاسلام زكريا الانصاري والجلال السيوطي وله في ذلك رسالة سماها الاركان في ليس في الامكان البدع مما كان وهو محفوظ بدار الكتب المصرية في قسم المخطوط تحت رقم ٥٣٠ مجاميع وذيل على أولئك صاحب الذهب الابريز ويكني في الرد على هؤلاء وجود كتاب للغزالي يمتد فيه عن هفوات الاحياء سماه الامالي على أن شرط التواتر في مثل ذلك غير صحيح كما يلزم عليه من ابطال كثير من الحقائق الثابتة أما خصوم الغزالي فقد انتقدوا عليه كلمة ليس في الامكان بعد برهنتهم على إثباتها وعلى رأسهم الامام ابو بكر بن العربي المعافري تلميذ الغزالي ولامام ابو العباس ناصر الدين بن المنير الاسكندراني الذي صنف في ذلك كتابا سماه بالضيء المتلالي في تعقب الاحياء للغزالي وكذلك الامام كمال الدين ابن ابي شريف والحافظ الذهبي في تاريخ الاسلام حيث قل ومن مدلهيات ذلك العصر سقطت ليس في الامكان وعددها

الدولة المرابطية وما كان علي بن يوسف وابوه يوسف الامثاليين كاملين للتصوف الحقيقي كما تنبىء عن ذلك أحوالهما الشخصية وفي المعجب « كان علي بن يوسف يعبد في صوام النهار وقوام الليل » وهو إلى الزهد أقرب منه إلى الملك وما آثر الرقاق إلا ضرب من ضروب الزهد يشغل قسما وافرا من كتب الحديث على أن الزهد في متاع الدنيا والتزود لدار البقاء ورد في عدة آيات من الذكر الحكيم قال الله تعالى (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) الآية كما قال تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزل له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا فوتته منها وما له في الآخرة من نصيب) والآيات في الباب كثيرة جدا ، وما الصفاء وسلامة الاعتقاد واتباع الكتاب والسنة إلا خلاصة الاسلام وروح التصوف الحق .

التوحيد

كان من أهم ما قامت به الدولة المرابطية في المغرب الأقصى بعد أن

هفوة كبيرة من هفوات الامام الغزالي وكذلك برهان الدين الزركشي في آخرين لا تسمح الظروف بالاحاطة بهم على أن هناك طائفة أخرى توسطت في القضية حيث ذهبت إلى تأويلها زاعمة أن الامام الغزالي أراد الافصاح عن امر ضاقت عنه عبارته فقال ما قال ومن أولئك برهان الدين البقاعي الذي ألف في ذلك كتابا سماه الدلالة على أن ليس في الامكان ابداع مما كان صرف فيه دلالة اللفظ عن ظاهرها وكذلك السهودي في كتابه المرسوم بایضاح البیان لمن أراد الحججة ممن ليس في الامكان ابداع مما كان وقد أيد فكرة التاويل جماعة من كبار العلماء حتى في هذا العصر ارجانا القول فيها عن نظرياتهم إلى الجزء الثالث من تاريخ الجامعة .

تبوأ أريكة الملك هو تنظيف عقائد السلالة المغربية من ادراك
المعتقدات الفاسدة التي كانت لها المقام الاول في الوسط المغربي وذلك
بتثبيت دعائم الاعتقاد على مذهب السلف بطرق عملية واضحة تلين لمبدئها
القلوب لاعتمادها في التبليغ على هداية الكتاب والسنة وسلوكها المنهج
السلفي الاسمي في التفويض لكل ما يؤم ظاهره التشبيه والتجسيم والجهمة
والتخصيص كما هو الشأن في ذلك عند السلف.

وسميا وراء تحقيق وحدة الاعتقاد على طريق السلف وتشديد صرحه على
مبداء اهل السنة قام علماء الكلية اليوسفية بمراكش الحمراء بدور هام بذلوا
فيه أقصى جهودهم في تلقين العقائد السلفية بصور واضحة ظهر أثرها الفعال
في تمزيق سبغ المعتقدات الزائفة التي كانت لا تزال كامنة في شتى
الصدور لذلك العهد وكان في طليعة أولئك الجهابذة الذين وهبوا حياتهم
التيمة للافادة بمعاهد الحمراء زهاء ثلاثين سنة العلامة ابو الحجاج يوسف بن
موسى المراكشي أحد تلاميذ ابي بكر محمد بن الحسن الحضرمي المصري
بمدينة انغمات في علوم الاعتقاد وقد استفادت الدراسة من علمه الغزير في
هذا الفن روة عظيمة كانت كأساس لتهيئة الرأي العام لدراسة التوحيد
بطريقة محكمة تستمد ادلتها من الكتاب والسنة ويقتنع بحجيتها النشء
المراكشي النبيل وقد ظلت من يومئذ عقائد المغاربة موحدة المبدأ والغاية
سواء في ذلك العصر او العصور بعده حتى الآن وقد ظهرت آنذ تأليف
في علم التوحيد منها ما صنفه ابو عمر السلاجلي من علماء الكلية اليوسفية ولا بد

الحجاج في قطعه التزهدية ما يشعر بنوع من التوحيد بدیع حيث
يعرض فيها لتزهده تعالى عن الحد والرسم والكف والقبل والبعد وما الى
ذلك مما بنيت عليه مباحث اهل الكلام واليك بعض ابياتها .

فسبحان من يبدو الينا بذته * فندركه من غير رسم ولا حد
تزه عن ان يسمو الفكر نحوه * وجل عن التكيف بالقبل والبعد
وما الرب الا حاضر غير غائب * وان طاح ذو الالحاذ في هوه الجحد
اذا ما تبدى نوره لقلوبنا * محال كل ظل للضلالة ممتد
فلولاه كنا نأتمين لفهمه * من الشك في ليل من الجهل مسود
الى ان قال وأغرب في المقال .

أرى العارفين السابقين الى المدى * كثيرين في المنى قليلين في العد
ونحن أناس طهر الحق سرنا * ففي الله ما نخفى وفي الله ما نبدي
وقد اشار ضمن ذلك الى التحلي بالفضيلة بعد التجرد في قوله :
فان كنت لا ترضى سوى الحق مطلباً * فيميه من باب التجرد والزهد
كما قال قبل ذلك في القطعة نفسها :

فياراحلا في بغية الحق إنه * يناديك من قرب وابت على بعد
ومن سطع النور المبين أمامه * فما باله يبغيه بالنص والوجد
أعذك أنى لا أرى غير خالق * ولولا قصور الخلق بحت بما عندي
من لم يكن للحق اهلا اضره * كاضرار عين الشمس في الاعين الرمد
أما تأليف السلاجى في التوحيد فانه يوجد بالخزانة اليوسفية في

قسم المخطوط تحت عدد ١٠٠ .

وعليه شرح بديع يدل بكل وضوح على مقدار ما وصل اليه علم التوحيد من التهذيب في عهد بني تاشفين الذين شيدوا مناره ووجدوا منهاجه بعد ان كانت عقائد المغاربة متشعبة ومتباينة لدرجة طالما كانت سببا في اثاره حروب داخلية تأججت نيرانها في افريقيا عموما وفي المغرب خصوصا وقدما كان تباين مدرسة الاعتقاد سببا من أسباب الحروب الاسلامية الدامية وما مشكلة التحكيم الاشرارة من بركانها وقد كان تباين العقائد المغربية مثارا لفتن داخلية دامت من المائة الثانية الى اواسط الخامسة كما نص على ذلك التاريخ فن اباضية (١) تنحدر للاقصى من المغرب

(١) قال في الاعتصام الاباضية هم أصحاب عبد الله بن اباض يزعمون ان مخالفهم كافر غير مشرك وممرتكب الكبيرة موحد غير مومن والمنافق مشرك كما قال في الخوارج هم سبع فرق منهم المحكة وهم الذين خرجوا على علي في قضية التحكيم ومنهم الصفرية وفي الاستقصاء صحيفة ٥٨ بعد ان تكلم على فتنة المهلب بن ابي صفرة وما قام به اتباعه في افران وثار البربر الاباضية من كل وجه الى ان قال وكانت هذه الفتنة هي زبدة الفتن التي مخضتها الخوارج بالمغرب من لدن ميسرة الى ان قال فكان منهم ابوقرة الافرائي في اربعين الفا من الصفرية وعبد الرحمن ابن رستم في خمسة عشر الفا من الاباضية والمسوري الزناتي في عشرة آلاف من الايباضية ايضا وعبد المالك الصنهاجي في الفين من صنهاجة الصفرية وجريز بن مسعود المديوني فيمن تبعه من مديونة وانضم اليهم غير هؤلاء من خوارج هواره وزناته ممن لا يحصى كثرة الى آخر كلامه الذي يبرهن على أن هذه الفرق خاضت غمار الحروب في المغرب وفي ابن خلدون (لم يزل امر الخوارج بالمغرب في تناقض إلى ان اضمحلت دياتهم واقتربت لنحلهم

اللاوسط ويستقر بها النوى في زناتة والسواحل المغربية الى خوارج تنشأ من عهد ميسرة وتتركز في سجلماسة ومكناسة وتمتد الى السوس الاقصى ويحمل رايتها في الساحل المغربي جرير ابن مسعود المديوني وتستمد مبدأها من الخوارج الصفرية الذين لعبوا ادوارا هامة في تاريخ الاسلام .

ومن أولئك الى شيعة (١) رافضية تجر ذيلها للمغرب مع خلفاء العبيدين الذين استولوا على الشمال في صدر المائة الرابعة ونقشوا مبدأهم في المراكز التي خضعت لهم في المغرب ومن أولئك وهؤلاء الى حشوية مشبهة (٢) تضع عصا التسيار في قاعدة الجنوب العتيقة أنعمت تنازعها البقاء العقيدة الموسوية من اتباع ابن ورصند واهلها من فرق المعتزلة وقد شاهد الرحالة الكبير ابن حوقل الموصلية تنازع الطائفتين وشدة ما بينهما من التباغض

(١) أما الشيعة فقد قام بها طرف من المغاربة مدة طويلة قل في الاستقصاء بحيفة ٦١ من الجزء الاول كان المغز واسلافه من صنهاجة بافريقيا على مذهب الرافضة من الشيعة اخذوه عن خلفائهم عبيدين ايام استيلائهم على المغرب في صدر المائة الرابعة وحملوا الناس عليه وامتحنوهم وطارت دعوتهم في أقطار المغرب كله .

(٢) الحشوية قسم من المشبهة قال في التعليق على الاعتصام لدى تحدته عن الفرقة الرابعة فمنهم مشبهة غلاة الشيعة ومنهم مشبهة الحشوية كشبهة الكرامية والمضرية ذكر ذلك في الجزء الاول من معجم البلدان صحيفة ٢٩٥ لما تعرض لمدينة انعمت قال وليس بالمغرب فيما زعموا بلدا جمع لاصناف من الخيرات ولا اكثر ناحية ولا اوفر حظا ولا خصبا منها تجمع بين فواكه الصدود والجروح واهلها فرقان يقال لاحداهما موسوية من أصحاب ابن ورصند والفرقة الاخرى مالكية حشوية وبينهما القتال الدائم وكل فرقة تصلي في الجامع منفردة بعد صلاة الاخرى شاهد ذلك ابن

والتنافر للذين أديا بهما إلى إقامة صلاتين في مسجد واحد بامامين مختلفين لأن كل طائفة منهما لا تري صحة الصلاة من وراء إمام الأخرى وبذلك يتصور تفاقم الخلاف بين الطائفتين يضاف إلى ذلك ما ذكره القلقشندي في كتابه صبح الأعشى أن الدولة المرابطية كانت ظاهرة المذهب إن حمل ذلك على لمذهب الاعتقادي كما هو الظاهر وعقيدة الظاهرية سلفية محضة. وخلاصة القول أن اختلاف عقائد المغاربة تسببت في منازعات أدت إلى توهين قوة الدولة الإسلامية وانهلال وحدتها مما تحطمت على صخرته وحدة العروبة شرقا وغربا ولذلك ذكرنا في هذا المبحث أهم الفرق التي كانت بارزة في المغرب قبل ظهور الدولة المرابطية التي طوت تلك الصحف القائمة من تحت سما المغرب وأحييت بقوتها المعنوية صولة الاعتقاد على مبدأ السلف الذي بقي عليه المغرب إلى أن تسربت إليه العقائد الأشعرية أواسط المائة السادسة على يد المهدي الموحدي فكان تسربها سببا في حروب

حوقل بعد الثلاثمائة ولعل صاحب المعجم قصد بالموسوية المزدارية إحدى فرق المعتزلة فنسبها إلى مؤسسها أبي موسى بن صبيح المزدري وإن كانت هذه الفرقة تعرف بين الملل والنحل بالمزدرية وهي متفرعة عن البشرية انظر الاعتصام للشاطبي والموافق للإيجي وبانفراض تلك العقائد من المغرب بظهور الدولة المرابطية بقيت عقائدهم موحدة على مذهب السلف ثم على مذهب الخلف حتى الآن قال في الاستقصاء صحيفة ٦٣ من الجزء الأول بعد أن تكلم على حال أهل المغرب في الفروع وأما حالهم في الأصول والاعتقادات فبعد أن طهرهم الله تعالى من نزعة الخارجية أولا والرافضية ثانيا أقاموا على

طاحنة أدت إلى قلب نظام الحكم بالمغرب وهكذا يكون تباين المبدأ ماثراً للفتن والدسائس وهذا الذي حررناه من إحياء العقائد السلفية على يد الملمثين بناء على صحة ما حكاه التاريخ من أنها دخلت للمغرب مع الفاتحين ثم ضايقها سيل المعتقدات الزائفة التي تسربت للمغرب أو نشأت فيه فقضت على ظهور العقيدة السلفية بمظهر الكمال حتى انتشلتها من وهدة الانحلال دولة الملمثين الفتيمة مما يعد معه بعث السلفية على شكلها إحياء وتجديد وأما على ما حكاه صاحب التشوف فإن العقيدة السلفية ما دخلت للمغرب إلا بواسطة المائة الخامسة في عهد تكون دولة المرابطين أدخله معه المغرب المرادي نزيل مدينة أغمت ودفين أزكي من صحراء المغرب واليك نص ما في التشوف حرفياً كما بالنسخة المخطوطة بخزنتي الخصوصية بقسم المخطوط تحت عدد ٧٨ في صحيفة ٤٤ من ترجمة أبي الحجاج إذ قال :

«ومنه أبو الحجاج يوسف بن موسى السكلي الضرير سكن مراکش وبها توفي سنة عشرين وخمسمائة وهو من أشيـاخ أبي مروان بن السراج

مذهب أهل السنة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف رضى الله عنهم واستمر الحال على ذلك إلى أن ظهر محمد بن تومرت مهدي الموحدين صدر المائة السادسة فرحل للشرق وأخذ عن علمائه مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري ومتأخري أصحابه من الجزم بعقيدة السلف مع تأويل المتشابه إلى أن قال « ثم عاد محمد بن تومرت إلى المغرب ودعا الناس إلى سلوك هذه الطريقة وجزم بتضليل من خالفها إلى آخر ما في صحيفة ٦٢ من الجزء الأول من الاستقصاء » .

وابن علي الجبائي وكان قد أخذ عن أئمة المغرب فيما أخذ عن أبي بكر محمد
 ابن الحسن المصري الحضرمي المعروف بالمرادي من علوم الاعتقادات وكان
 مختصا به وكان المرادي هذا أول من أدخل علوم الاعتقادات الى المغرب
 الاقصى فنزل باغمات أورنيكة فلما توجه أبو بكر بن عمر إلى الصحراء حملة
 معه وولاه القضاء فمات بازكي من صحراء المغرب سنة تسع وثمانين وأربع
 مائة خلفه أبو الحجاج يوسف في علوم الاعتقادات وغلب عليه الزهد في
 الدنيا وكان لباسه عباءة صوف وكان عالما زاهدا وحضرت مجالسه ووفد
 يوما على السلطان فبعث اليه بجملته مال فلم يخرج من مراکش الى أغمات حتى
 فرقه على المساكين « إلى آخر ما ذكر وهو صريح في أن الجنوب المغربي
 كان مطلع علوم الاعتقادات لأن أول من أدخلها للمغرب على هذا العلامة
 ارادي وقصد أغمات فأسس بها مباحدا لدراسة التوحيد حتى تخرج عليه
 مثل أبي الحجاج وتلك منخورة ضمها التاريخ إلى مفاخر اليوسيفية وارثة أغمات
 والاندلس التي أحييت من علوم الاسلام ما كاد يندثر وألشأت الجليل الجنوبي
 على علم ويقين في جميع ما فيه صلاح دنياه وأخراه سيما علم التوحيد الذي هو
 أساس الاسلام وأول ما يجب على كل مكلف من بني الانسان وبينما الدولة
 المرابطية تقطع أشواطاً عامية وعمرانية بالمغرب والاندلس تحت راية العدل
 وبمعونة السيف والقلم إذ رمتها يد الاقدار بدجال الموحدين وداهية الهرغين
 المهدي بن تومرت الموحدي الذي فوجئته به الدولة في ريعان شبابها
 وعزة سلطانها وعظيم سطوتها فدلست ولبست فوانجها بحلم امير المسلمين على

ابن يوسف بن تاشفين من الوقوع في هاوية لا ينفلت منها حين قام بدعوته التي أسست على أنواع الخداع والمكر إذ تظاهر بدعوى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وخاتل المجموع بافصاحه عن محاسن صلاح الحال وكان ذا دهاء في تصوير دعوته وبراعة طريقته في تنميق الكلام لانه كان جدليا مارس الكلام والمنطق في مدرسة بغداد النظامية أمام حجة الاسلام الامام الغزالي إذا صحت الرواية بذلك وقد غالط على علماء ذلك العصر في المقال وفاجأهم بما أودعه في كتابه أعز ما يطلب الذي كان مادة مناظرته في عموم المغرب إذ ثبت أنه ناظر أولا علماء فاس (١) بما ناظر به بعد ذلك علماء

(١) قال في المعجب لذي ذكره (رحلة المهدي) ولم يزل مقبلا بتلمسان الى ان فصل عنها فخرج قاصدا مدينة فاس فلما وصلها اظهر ما كان يظهره وتحدث بما كان يتحدث فيه من العلم وكان فيما يدعوا اليه علم الاعتقاد على طريق الاشعرية وكان اهل المغرب على ما ذكرنا ينافرون هذه العلوم ويعادون من ظهرت عليه الى ان قال فجمع والى المدينة الفقهاء واحضره معهم فخرت له مناظرة كان له الشفوف فيها والظهور لانه وجد جواخليا واقى قوماصيلا عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع فلما سمع الفقهاء كلامه اشاروا على والى البلد باخراجه ليلا يفسد عقول العوام فأمره والى البلد بالخروج فخرج متوجها الى مراكش وكتب بخبره الى امير المسلمين على بن يوسف فلما دخلها احضر بين يديه وجمع له الفقهاء المناظرة الى آخر كلامه وفي القرطاس « وكان المهدي علما بالجدل فقال لهم قدموا من تقوم به حججتكم الى ان قال وكان جل من حضر ذلك المجلس من الفقهاء اصحاب حديث وفروع وليس فيهم من له معرفة بالاصول والجدل » الى آخر كلامه المشتمل على ما وجهه المهدي للعلماء من الاسئلة السفسطائية التي انحصرت

مراكش ولما أحسوا من براعة كلامه بنو إيا تخبى وراءها أمرا بعيدا
أفتوا باخراجه فامرهم الحاكم العام على فاس من طرف الدولة المرابطية بالخروج
فغادر فاس ثم قصد مراكش وشرع بطريقته المألوفة في المسجد اليوسفي يوم الجمعة ثم
جلس في المقام الخاص بأمير المسامين ولما قيل له في ذلك أجاب بكل صفاقة
أن المساجد لله فامرهم أمير المسامين بتركه وجلس حيث انتهى به المجلس ولما
قضيت الصلاة قصد أمير المسامين فوعظه بعبارات مؤثرة ألفت فيها نظره إلى ما
يجري في رعية هو مسئول عليها بين يدي الله وكان أمير المسلمين رجلا صالحا
فبكى من قوله لشدة ما أوقعه ذلك في نفسه من التأثير وما هي إلا أيام إذ
صادفت دعوة المهدي فلو با واعية وآذانا صاغية كونت له انصارا سئموا كل
قديم وتشوفوا بكل شغف وتلف إلى العقيدة الأشعرية الجديدة التي صورها
لهم المهدي الموحدي باجلى صورة تبعث على الارتياح وسمى أتباعه بالموحدين
تعريضا بالعقيدة السلفية التي شيدت عليها الدولة المرابطية أركان الاعتقاد في
المغرب ولما أمر أمره وتوجس العقلاء خيفة من عاقبة أمره ذكروا ذلك
لأمير المسامين فامرهم بنصب مجلس من العلماء تحت رئاسة مالك بن وهيب
لمناظرته فانعقد ذلك سنة خمس عشرة وخمسمائة فطلب المهدي من هيئتهم أن
يختاروا من بينهم واحدا للمناظرته فوقع اتفاقهم على أحد الفقهاء فوجه إليه المهدي

في استفهامه عن أصول الحق والباطل التي عم فيها على العموم نجاح في مقصده أمام الرأي
العام وسنوضح ذلك بحول الله في الجزء الثاني من تاريخ الجامعة .

هذا السؤال (ما هي طرق العلم ؟ فاجابه بانه الكتاب والسنة فكرر عليه السؤال ثم قال له المهدي في سفسطة وبهرجة ما فهمت السؤال فضلا عن أن تجيب عنه فكبر ذلك على العلماء وأهاليه لذلك وهم كانوا لا يقولون بالمنطق ولا بالبراهين العقلية في الكلام فضلا عن أن يمارسوه ويستندوا في أدلتهم على أقسيته وقد أشاروا بعد ذلك على أمير المسلمين بقتله فاني قائلا : لا أقتل رجلا يقول ربى الله ثم أشار عليه وزيره بن وهيب بسجنه فقال وهل السجن إلا أخو الموت فان أقم عليه حجة شرعية تستوجب ذلك فعلها ولا تخلوا سبيله ثم ترك المهدي وشأنه إلى أن كان من أمره اكان وهكذا يكون مبدأ الاعتقاد سببا قويا في قلب نظام الحكم بالمغرب وفي القضاء على دولة الملمين وإلى ثورة المهدي يشير صاحب رقم الحلل في نظم الدرر بقوله :

حتى إذا يوسف ولي وقضى * قام على نجله النذب الرضى
إلى أن قال :

ثم رماه الله بالمهدي * مزاحما بالنكب القسوي
ولم يقصر في الدفاع جهده * كم عدد أفنى وكم من عده
مستظهرا بعزة وشدة * لم تغر شيئا في تمام المدة
فما حثف الله أبو الحسن * وكل قول منه أو فعل حسن

ذلك ولما أحس أمير المسلمين بخطر دعوة المهدي الموحدى طلبه فاستعز المهدي حينئذ بما يهدده فقر إلى تينمل من قبيلة كندافة قرب السوس الأقصى فاتخذها مقرا للبعوث به ومربيا صالحا لدعايته وذلك لمناعية حصونها

المتكونة من سلسلة جبال شامخة يعسر اقتحامها ويتعذر على المشاة والفرسان صعودها وبنى بها مسجده وبث فيها عقيدته فتبعه جماعة من المصامدة وايدوا دعوته التي سرت في كثير من القبائل سريان الدم في شريان الانسان وقد مهد السبيل لاثبات دعوة المهدي أسباب منها تسامح أمير المسلمين علي مع المهدي في أول أمره حتى انقأت من بين يديه وأصبح خطرا عظيما يهدد كيان دولته ومنها إقصاء المصامدة عن الحكم في العهد المرابطي حتى عن قبائلهم مما جعلهم يتحينون الفرصة للثورة منشدین بلسان حالهم قول القائل :

إذا لم يكن المرء في دولة امريء * نصيب ولا حظ تمنى زوالها
وما ذاك عن بغض لها غير أنه * يريد سواها فهو يهوى انتقالها

ومنها إحكام خطة المهدي التي رسمها ووضع أسسها على مبدأ العقيدة والمهدوية والقول بعصمة الامام في البرنامج الذي خطه مع أصحابه العشرة ومنها نشر دعوته في قبائل جبارة منيعة محصنة بأقوى الجبال الشامخة حتى كون له مجموعة من الانصار في عموم قبائل المغرب نازل بكلماتها الابطال حامية المرابطين ومنها ما جبل عليه البرابرة في غابر العصور من إثارة المشاكل لقلب الحكم في مصالحهم الخاصة لاسخطة ونقمة خصب بل لتطلعهم دائما لكل جديد ينشد لسان حالهم « لكل جديد لذة » ومنها أن الدولة المرابطية اعتمدت على ركون الشعب إلى عدلها فاستطابت النوم وأخلدت إلى الراحة وعدم تقوية جيشها وإمداده بكل ما يستدعيه الحال مع صمود المهدي الموحدي ورفاقه في أعز الحصون المنيعة وسط الاطلس الجباري تر بص الدوائر وينشد قول أبي مسلم الخراساني

مازلت أسعى بجهدي في دمارهم * والقوم في غفلة بالقرب قد رقدوا
 حتى طرقتهم بالسيف فانتبهوا * من نومة لم ينمها قبلهم أحد
 ومن رعى غما في أرض مسبعة * ونام عنها تولى رعيها الأسد
 ومنها خلود رجال الدولة المرابطة إلى الملاذ النفسية حتى كادت تفقد
 منهم العزة والشهامة والحمية ففقدوا بذلك الكفاءة والنجدة وكانوا سببا في
 انحلال الدولة وهكذا تفقد الامم عزها وسلطانها إذا هي فقدت من ابنائها
 رجالا أكفاء لا يقدرّون المسؤولية ولا يراعون الصالح العام بسهرهم على
 مصالح الدولة بعين يقظى لا تعرف للسنة معنى ومنها وفاة أمير المسلمين على
 في شبوب الفتنة واضطرار ابنه تاشفين إلى قيادة الجيوش في محل حالت
 بينه وبين اتصاله ببقية رجال دولته يد الاقدار فسقط بفرسه في شاطئ
 تحطمت عليه حياته وفقدت بذلك الدولة أعز رجالها وشجعانها ومنها إطالة
 الحصار بمراكش حتى اشتدت المجاعة وتفشت الامراض واضطرت فرقة
 من دخلاء الجيش إلى فتح بعض الابواب المراكشية مما مهد السبيل أمام
 الفرق الموحدية إلى الاستيلاء على عاصمة المغرب والاندلس مراكش
 الحمراء فطويت بذلك الصحيفة الذهبية المرابطة ووضع أمام التاريخ سجل
 الدولة الموحدية ليسجل فيه السار يخ ما ستقوم به من الاعمال الجليلة . وهناك
 أسباب أخرى أرجأناها إلى مبحث آخر بحول الله وقوته وهنا وقفت بنا
 اليراعة في اتمام الجزء الاول من تاريخ الجامعة اليوسفية ، وهو خاص بما
 اثر الدولة المرابطة ، ويليه الجزء الثانى وهو مشتمل على عهد الدولة الموحدية

والمرينية ثم الجزء الثالث وهو مشتمل على عهد دولة الاشراف السعديين
ودولة الاشراف العلويين نرجو الله تعالى أن يهين لنا أسباب طبع الجزئين في
القريب العاجل والوقت المناسب الملائم وان يجعل عملنا هذا نواة لبناء صرح
مجيد من صروح المغرب الخالد والحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى



✧ التقاريط ✧

منها ما ورد علي من مصر وهو أننى لما شرعت في طبع تاريخ الجامعة
اليوسفية أحطت شقيقى الاستاذ الجليل السيد ابراهيم عثمان المراكشي علما بذلك
فبعث لي بهذه الكلمة تشجيعا منه لآخيه وكتقريظ لتاريخ الجامعة الذى أوشك
على التمام بقوله « وإليك من أخيك هذه الكلمة: أخى محمد ارفعت بكتابك
تاريخ الجامعة الذى يعد جامعة للتاريخ مكانة العلم وذويه في كلية بنى تاشفين
الخالدة التى كانت مهد معارفك الاولى فخلدت بذلك ما كنت أقرأه في صفحات
وجهك من العبقرية الفذة وإنى إذا شهدت لك بمآثور الفضل وموفور
الجهاد فلانى أعرف الناس بنشأتك على الهدى واعتصامك بالصواب
واقتناصك للباب الحقيقة من كل باب ، واحتفاظك بشعائر الآداب في
ابتسام الصبا واقتبال الشباب ، وأحمد الله على أن جمع بيننا بروابط الاخوة
والنسب ، ثم زادنى منك برابطة العلم والادب ، ولئن أبرزت لعالم الوجود
تاريخ الجامعة الذى يعد أولا في بابه فتلك نتيجة لاجتهادك المتواصل
وحرصك على الفضيلة أرجو أن تكون هذه ثمرة ناضجة تتلوها ثمار ،
ونورا منيرا تتبعه من القلم أنوار ، نجاهد محققا ، واعمل موفقا ، بارك الله

لك جهادك ، وحقق لك من الخير مرادك ، وأدامك للعلم وأدام العلم لك ،
والسلام عليك من أخيك
إبراهيم عثمان المراكشي
خريج الجامعة الازهرية

كما وردت علي هذه القطعة من صديقي المحترم الاستاذ الصاوى علي
شعلان خطيب جمعية مكارم الاخلاق كتقريظ من الجامعة الازهرية إلى
الجامعة اليوسفية :

أنا لم أقرأ المؤلف يوما * بل قرأت المؤلف المفضلا
وعرفت الآداب منه كتابا * ينشر الفضل ويذيع الجمالا
فن الروح هممة تتسامى * ومن الفضل حكمة تتوالى
من نضار التاريخ يعطيك كنزا * من علوم تنسى لديها المالا
فاقرأ السفر أو فسافر إليه * واغتم في طلابه الترحالا
وارتشف من جناح خمر أزلالا * واقتبس من سناه سحرا حلالا
هذه يا محمد بينات * يستعيد البيان منها الجمالا
قد جمعت العصور فيها عقوداً * وتلاقى العصور كان محالا
فاذا ما شئت قل إنه من * فضل ربى سبحانه وتعالى

الصاوى علي شعلان

خريج الجامعة الازهرية بمصر القاهرة

ومنها تقر يظ صديقنا المناضل المحترم موقت الجامعة اليوسفية ونصه:
 إن مما تثالج به الصدور وترتاح له النفوس ويبعثنا على الثقة بحسن
 مستقبلنا ما نراه من إقدام بعض أبناء قطرنا المراكشي على خدمة ما يعود
 نفعه على الوطن وحده ونشأطهم المعلن بنجاحه وتقدمه وأنه
 سينتشل من وهدهته وينتعث من عثرته ويستيقظ من رقدته ويعود له ما
 كان في سالف مجده وعندنا اليوم من هؤلاء الاجلة ذوى الحمية
 الوطنية من هم من أكبر المناوئين لاصحاب تلك الخرافات والهذيان
 والترهات التاريخية لالكونها تمس بالعقيدة بل لان الوقوف معها يشجع
 على العناد والتراخي والشروع عن أسباب الترقى وينتج البلاهة والغاوة
 وتبديد الرجولة والشهامة، والانسانية تآبى هذه الاخلاق الوخيمة فلذلك
 كان من الواجب عليهم أن يجعلوا للتاريخ خصوصاً ولتاريخ مراكش الفيحاء
 صبغة اخرى ونشأة اخرى غير الاولى لتكون الحقيقة ناطقة صادقة غالبة
 قوية يمكن معها تلاشي تلك البقية من بقايا الجهالة والجنون ولعلمهم بالقيام
 بهذا المرغب الذي عز فيه الطالب والمطلب يقومون بتأدية ما يفرض عليهم
 الواجب الوطنى من الحقوق التى يقتضيها نظام الهيئة الاجتماعية ومن تحرك
 فيه عرق الحماسة لذلك حتى أطلق لسانه وبيانه وهيج شعوره ووجدانه
 وساعده الوقوف على أفكار المتقدمين وآراء المتأخرين وأفاض به وحي
 بديته فأسعف المطلب وتحقق أنه في الحقيقة تحفة فاخرة جليلة الفائدة

يحتاج لها العصر الحاضر صديقنا الفقيه العلامة الاصولي المشارك المحقق المؤرخ الحافظ المحدث الشريف ابو عبد الله سيدي محمد بن عثمان الادريسي المراكشي حفظه الله فانشأ نشأة جديدة لمراكش الحمراء سماها (الجامعة اليوسفية) أظهر فيها ما كانت عليه في سالف مجدها من كونها مملكة من أشهر الممالك ، وكعبة يؤمها كل سالك وناسك ، إذ كان التمدن فيها كهلا حين كان عند غيرها صبيبا وطفلا ، وترجم لبعض أطوارها الراقية رجال الحزم الذين عززوا أنفسهم بالمعارف وزينوها بمحافل الاخلاق وحي من أخبارهم ما لابقى معه شبهة أدى الواقع عليه بأنهم من أساتذة العالم ومحكمي نظامه وواضعي علومه ومؤسسي حضارته ومشيدي ممالكه وأنهم وأنهم وكشف الغطاء عن تلك العقبات التاريخية أعنى الاحتفاظ بالتقديم والابقاء على الباقي التي بلغت منا مبلغا أنسانا ذكر الحقائق النافعة والمصالح المهمة حتى صرنا نظن أن الزمان الحاضر هو السالف وحارب رعاه الله تلك الخرافات التاريخية التي اجتاحت شرف التاريخ وكادت أن تهبط به إلى حضيض النذل بعد عزه المجد ولازال يرتكب الاعلى إلى ما هو أعلى بالقاظ راقية عذبة المذاق ، متسقة المساق ، تتسابق معانيها إلى الازدهار وتبرز دقائقها في عالم العيان ، والواقف عليها يذشرخ صدره وتقر له العينان ، إذ فيها من كل فاكهة زوجان ، وفي الحقيقة إن تاريخ الجامعة غالبها خواطر لمعت في ذهن صاحبها فما زال يذكرها بمراجعة الفكر حتى صارت كواكب ثابتة الضوء

ظاهرة البهاء ذات بحوث طريفة وآراء ناضجة ووقائع ثابتة وسمرة سائلة
ونكت منسجمة سيالة فالناظر فيها يرى اجمالا لا ينبيء عن تفصيل وقيلا
لا يقال له قليل كانه صورة مصغرة لتلك الروح الكبيرة أو برنامج لتلك
الايدي المنشورة وبالجملة فالجامعة شديدة التمسك بحرية الفكر ومن كان
كذلك أدى للشعب واجبه وأنا لارجو لها شهرة ذائعة وصيتا خالدا وذلك
باجادة عمل الاستاذ واتمام صنعه وحسن تفكيره ومعلوم أن العمل اذا كان
متقنا نوه بذكر صاحبه ورفعته على أقرانه واظهره بمظهر العارف الكامل
فهنيئا للاستاذ بهذا العمل الخالد والنصرة الكبرى للوطن هذا ويمجزي
صوغ عبارات الشكر عن تبيان مزاياها مهما أوتيت من بلاغة او فصاحة
وبيان فليعذرني الاستاذ إذا اعيانى البيان له من أدباء العصر ابلغ شكران
قاله بلسانه وكتبه بينانه محمد الموقت بحجامع ابن يوسف بمراكش حفظه الله
ومنها ما خبرته براعة صديقنا المفضل الاديب السيد عبدالكبير الزمراني
المراكشي ونصه :

الحمد لله

في ١٤ صفر عام ١٣٥٩ بمراكش

إلى الاخ الحنين والعلامة الشريف النابغة سيدي محمد بن عثمان
المراكشي السلام عليكم ورحمة الله وبعد . فيما ان الجهود التي بذلتها لرفع
مستوى الكلية اليوسفية والتعريف بحقوقها امر واجب علينا شكره وتقديره
فيرجو اخوك ان يكون وفق إلى تشجيعها بالقطعة الآتية : إني بعملك

لمسرور حيث فتحت لنا بابا يلج منه إن شاء الله بنو الجراء إلى النهوض
والطموح والسلام

- لئن صار هذا الأمر من بعد اصدق * فقد حزت في رقيعه قصب للسبق
ومهما اخو الاغراض هاجم حائلا * تجردت للتدفاع في سرعة البرق
ولولا اعتلال في القلوب تحفظت * عليه لعاش الناس طرا على وفق
يمينا لقد أنصفت امك رافعا * علاها فلم تدع برورا ولم تبق
وبينت وجه الحق كالبدرساطعا * وأطلعت من بعد في سائر الافق
ولومات هذا الحي وانطوى امره * تفخت فيه الارواح من شدة الحذر
وافضل ما خطت يمينك صفحة * أزاحت لثام النى عن غرة الحق
وأشرف نفس من إذا بعد الورى * عن الصدق ما نامت على نصرة الصدق
رأيت الذي دجيت أنفذ صارم * فأفرغته لذلك في قالب الرفق
كتاب تحال اللفظ فيه كتائبها * تدوس رقاب النى في خيلها البلق
فلو صح أن يكون روضا تطلبت * جميع الورى مجناه من سائر الطرق
ولكنه فصل من القول قاطع * وشهد وفي الشهد الشفاء لدى حلق
سيليقي بقلب الحب اخصب موضع * ويوقع قلب الضدي شدة للضيق
ورب فتى يفض من حسن خلقه * وقد أشتم الحسناء ناقصة الخلق
رفعت ابا عبد الاله رؤوسنا * امام بنى العرفان في الغرب والشرق
تعودت صنع الخير دهر كحيث ما * رأيت صنيع المرء يسعد او يشقى

ولولا شباب أدر كوالا امر لارتمى * بنا الامر حتى بات فثقا بلا رتق

عبد الكبير الزمراني

ومن ذلك ما جادت به اريحية صديقنا الأديب الاستاذ العبقري السيد
الحسن البونعماني مما سبق له نشره في جريدة السعادة الغراء بمعدد ٤٦٢٥
تحت عنوان « الجامعة اليوسفية في تسعة قرون »

تعتاد هذه النفوس أن تميل بطبيعة حالها إلى كل جديد يبعث فيها
نشاطا خاصا وشعورا طبعيا تحس به كلما سنج لها أن تظفر بكل ما فيه
روح التجديد وذلك هو السر الذي يمتاز به الجديد عن القديم ، وقدما قيل
« لكل جديد لذة » غير أن تلك اللذة تختلف بحسب الميول والاذواق فمن
الناس من يستلذ أول باكورة ظهرت في شجر التفاح فتراه كان يرتقبها بفارغ
الصبر عند اوان اقتطافها ليودي لشهوته منيتها ومن الناس من يرى شكلا
عجيبا من الديباج الملون ظهر لأول وهلة او يرى مطلق ثوب رائق يستلفت
نظره بلونه الجميل فيحتم عليه ميلان ذوقه أن يأخذ منه ما تطيب به نفسه
ويهدأ له خاطره ، ومنهم من يتعطش لأول شيء في بابه من رواية قصصية
أو غرامية أو كتاب علمي أو أدبي أو تاريخي يدل اسلوبه الاخاذ على
مدلول التجديد بكل معانيه فيجد مطالعته متعة تنسيه كل متعة .

وليس من معنى التجديد أن تكون هناك زخرفة اللفظ وجزالة فقط
مع متانة الاسلوب في المعنى . إنما التجديد — بعد رشاقة الاسلوب — أن

يكون هنالك قبل كل شيء ابتكار الموضوع الذي يريد الكاتب أن يطرقه
اذ لا يمكن لأي قلم من الأقلام أن ينال أية منزلة إلا إذا أتى فيما طرق
بإختراع لم يتيسر لغيره وطبع عليه بطابع الفن .

وأما من طرق موضوعا طرقه من قبله ووقع عليه حافر الخيل المار هنالك
وسلكه كل واحد فلا ينتظر من النفوس أن تنزل عند الإعجاب به إنما
تسأم كل ما ترى من ذلك القليل ولسان حالها ينشد قول شاعر العراق
الفيلسوف الزهاوي الذي لا يعجبه من الحياة إلا كل مبتكر جديد أنظر
إليه كيف تضجر وتآثر أمام مطروق قديم لا يمت إلى التجديد :

سئمت كل قديم * عرفته في حياتي

إن كان عندك شيء * من الجديد فهات

ولما نامسه من روح التجديد في كتاب الجامعة اليوسفية في تسعة
قرون فأننا نعلن هنا أشد ارتياحنا وإعجابنا بمادجته يراعة مؤلفه الاستاذ
المقتدر المطلع محمد بن عثمان المراكشي

ذلكم الكتاب الذي أعاد فيه مؤلفنا للجامعة اليوسفية الكريمة ريعان
ماضيها الخافل وشيد فيه مآثرها باللوبه الجديد البديع وخلد فيه ما يحفز
همم أبناء القطر المراكشي على مر الدهور والاحقاب إذ كتاب الجامعة
اليوسفية نعتبره خير تراث مجيد للجيل الآتي بمد ما نعتبره لسانا ناطقا
نصيحيا للمصور الماضية ينادي ويقول أين أحفاد هؤلاء العظماء الذين تحقق

بنود العلم في ايديهم بهذه الجامعة التي كان يستضيء بافكار رجالها المغرب
والاندلس وما وراءهما

درس المؤلف في كتابه هذا أطوار الجامعة اليوسفية وأحوالها
التاريخية من حيث الميول الفكرية والحركة العلمية التي كانت تزخر فيها
منذ أسسها أمير المؤمنين علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني وحل فيها تلك
العوارض والتطورات التي مرت فيها على حسب تعاقب دول المغرب
وميول امراءها العلمية وآرائهم الخاصة في الفنون التي يرون دراستها في
معاهد المغرب الاقصى مما تتلجج اليه ضمائر الباحثين

ويفاعئك هذا الكتاب النفيس بغير ما تعهد وتقف فيه على ما لم
تكن تترب من فوائده رائقة ونكت بديعة وفن طريف وتراجم تنبئك
عن مختلف العصور زيادة على ما يشتمل عليه الكتاب من الصور الفوتوغرافية
التي تمثل بعض الآثار الفنية الجميلة والمعاهد المراكشية مع احتوائه على
زهاء ثلاثمائة صفحة تليها كلمة اصلاحية ضمنها المؤلف نظره السديد في
تنظيم تلك الجامعة كتمن لها مستقبلا زاهرا يكفل الاماني التي يرقبها
الطالب المراكشي النبيل في أرقى عصر تحت رعاية مولانا السلطان
المؤيد بالله صاحب العرش المغربي الذي نشط الحركة العلمية في عصره
المزدهر واهتم برفع مستوى المغرب إلى الاوج اللائق بعزه وكرامته في
صف الامم الراقية الحية فكان من عجيب الاتفاق أن صادف اتمام تنظيم

الجامعة اليوسفية مثل هذا الكتاب للطبع وقد أطلعنا في قسمه المطبوع على تلك الكلمة التي يستعطف فيه المؤلف جلالة الملك أيده الله أن ينظر الى مكانة الجامعة بعين رعايته وينشر عليها حالا موشية من رضاه وعطفه وينظمها تنظيما يتفق مع مكانة تاريخها العظيم

وقد اعتنى المؤلف بطبع الكتاب طبعا ايقا على ورق صقيل جميل يمثل ارقى ما وصل اليه فن الطباعة بالمغرب مع تحليته بفهرس للاعلام وفهرس البلدان زيادة على الفهرس المعتاد مما يستحسنه اللبيب

ونحن نبشر رجال العلم بهذا الكنز الثمين ونلفت انظار عشاق العلم والادب والتاريخ الى اقتناء كتاب الجامعة اليوسفية خصوصا عشاق التجديد الذين سيرون في كتاب الجامعة ما يروقهم من تحقيق الدرس وتحليل البحث وأفكار عانية وارااء صائبة وتعاليق ممتعة وعمما قريب جدا يتم طبع الكتاب ويخرج الى الوجود فهناك يمكن للمطالع أن يتذكر بسهولة هذه الحروف التي نكتبها حول الكتاب ثم يحكم بعد المشاهدة ويكفي في الكتاب تقديراً واحساساً أن موضوعه وابتكار عنوانه من أول شيء في بابه وذلك ما حدا بنا الى القلم وحررنا هذه الكلمة الموجزة لشكر المؤلف الكريم جهوده ونحضره لا يخل على الجامعة اليوسفية وأبنائها بما عنده من عوامل النهضة الفكرية

الحسن البونعماني

ومن ذلك ما بعث به ابن عمنا الفقيه الارضى قاضي المذكرة السيد
ابو بكر بن علال ونصه إذا كانت العبقرية صفة روحية لبعض الشخصيات
قد تظهر من أياها في قليل من الافراد كل عصر من العصور فهي من
الصفات التي كنت أقرأ سطورها في جبين اخي العزيز وابن عمي الكريم
الاستاذ الضليع السيد محمد بن عثمان أيام كنت ارتشف معه زلال المعارف
في مدينة الرباط سنة اربع واربعين والثلاث بعدها امام شيخ الجماعة والاسلام
الحافظ الحجة سيدي ابي شعيب الدكالي ومحدث العصر ومفكره العلامة
الجليل سيدي المدني بن الحسنى وبين يدي نابعة الزمان وبخائمه المفسر
العبقري سيدي محمد بن العربي العلوي وغيرهم من نخبة علماء الرباط وسلا
في ذلك العصر وأمام أولئك القطا حل العظام ارى من مناقشة الاستاذ
ابن عثمان وبحته ومطالعة ملامح العبقرية والنبوغ حيث كان لا يعتمد في
تحصيله إلا على ما استخلصه من مطالعته التي اولع فيها جد الولوع في آياليه
الساهرة بين كتبه ومجربته ذلك ما كنت اشاهده في مطامح الاستاذ أيام
اغترافه من معين المعرفة إذا فلا غرو ان يفاجئنا ببجته الطريف وخلاصته
الجليلة التي أودعها في تاريخ الجامعة اليوسفية الذي يعد بحق وانصاف من
أهم الموارد التاريخية المفيدة التي أفصحت عن مكانة الكلية اليوسفية في مختلف
العصور ولقد ابان فيه بوضوح وجلاء عن استقلال الكلية اليوسفية بالثقافة
للجنوب المغربي كما ابان عن قدمها الراسخ في ميدان التعليم منذ تاريخها

التاسيسي حيث كانت ولا تزال القاعدة الكبرى للحركة الفكرية منذ اتصالها بالاندلس والقيروان مما يكشف الغطاء عن هذه الناحية من نواحي التعليم المغربية يضاف إلى ذلك ما اشتمل عليه جزء الجامعة من البحوث الطريفة التي تستوجب لصاحبها الشكر الجزيل من شباب المغرب الناهض واني أهني حضرة الاستاذ بنجاحه في تميم هذا الجزء الذي استخرجه من بين اوقات يتعذر فيها على الانسان أن يؤدي مثل ذلك الواجب المقدس امام أشغال وعواصف وزجوا له إتمام تاريخ الجامعة اليوسفية وإمام ما حبرته يمينه من المؤلفات القيمة التي سبق له أن رتب موادها كرسالته التفسيرية و كوكب المدجج الساري في حدائق رجال البخاري . والرحلة الحجازية وشرح منظومة البهاري في الوضع وغير ذلك مما أنجزه في السنوات الماضية أدامه الله لنشر الفضيلة وأدام الفضيلة له والسلام حرر في رجب الفرد عام ١٣٥٧ من هجرة الرسول

قاضي المذاكرة ابو بكر بن علال المسفيوي وفقه الله

فهرست الكتاب

فتح تامسة وإخضاع البرغواطيين ٨٤ وفاة ابن ياسين واستقلال أبي بكر ٥١ رجوع أبي بكر إلى أغمت ٥٣ خروجه للصحراء واستخلاف يوسف ٥٤ تنازل أبي بكر ليوسف عن الملك ٥٥ يوسف وبناء مراکش ٥٦ حياة منشئ الحمراء ٦٢ خلعه للملك الطوائف ومصادقة بني هود ٦٩ اعترافه بالخلافة والتلقب بأمر المسلمين ٧٣ رجوعه للفقهاء ٧٨ تقدمه لأحوال الأندلس وعهده ٨٧ لأبي الحسن وفود المبايعين وتجديد العالئ ببغداد ٩٤ تأسيس المعهد اليوسفي وعناية أبي الحسن بالعلوم ٩٨ ﴿ تراجم العلماء ﴾ أبو الوائد ابن رشد الكبير ١١٠ أبو عمر عثمان السلاوحي ١١٩ أبو القاسم ابن الجسد ١٢٢ أبو عبد الله بن أبي الخصال ١٣٣	نشأة الدولة المرابطية ١٣ نشأة أول أمير مرابطي ١٤ الأمر التي استقبلها أبو عبد الله ١٥ أبو زكرياء الجدالي ١٥ رحلته إلى الشرق ١٦ رجوعه إلى المغرب ١٧ محاولته جلب الأماندة من القيروان ١٨ إشارة أبي عمران على أبي زكرياء ١٩ الكتابة إلى وجاج ٢١ اتصاله بوجاج ٢٢ انتخاب عبد الله بن ياسين ٢٣ نضوج عبد الله الفكري ٢٤ ذهابه للصحراء مع أبي زكرياء ٢٥ شروعه في أداء الواجب العلمي ٢٦ أثر المعارضة في موقف أبي عبد الله ٢٧ تفكيره في الانحلال وموقف أبي زكرياء ٣١ اهتمامه بفتح أجدالة ٣٥ شرط قبول التوبة عند ابن ياسين ٣٧ تطهير ديني يتنوه ترتيب إداري ٣٩ عزمه على فتح بقية الصحراء ٤١ تولية أبي بكر المتوفي ٤٥
--	--

٢٠٢	النحو واللفظة	١٣٠	أبو بكر ابن القيصرة
٢٠٩	الأدب	١٤٢	الأمير أبو إسحاق المرابطي
٢٤١	البيان والبديع	١٥٥	أحمد بن العريف
٢٤٣	الطب	١٦٧	أبو العباس أحمد بن الصقر
٢٤٨	التصوف	١٧٤	ذو الوزارة مالك بن وهيب
٢٦٠	التوحيد	١٨٠	مظاهر الفهضة العلمية في العهد المرابطي

﴿ فهرست الصور ﴾

٥٧	مراكش	١٨٤
٨٣	بقية أطلال مسجد يوسف	١٩١
١٠٢ - ١٠٣	المسجد اليوسفي	١٩٦

﴿ المعلوم ﴾

١٨٤	التفسير والحديث
١٩١	القراءة والرسم
١٩٦	الفقه والأصول



مصادر تاريخ الجامعة

الاستقصا للناصرى	الذخيرة لابن بسام
تاريخ مكناس للنفيع بن زيدان	الديباج لابن فرحون
الاعلام بمن حل مراکش من	الحلل الموشية لابن السماك
الاعلام للمؤرخ عباس بن ابراهيم	رقم الحلل لابن الخطيب
محاضرة الاستاذ الحجوى	الريحانة » »
خلاصة تاريخ العرب لسديو	الاحاطة » »
الجدوة لابن القاضي	طرف من نفاضة الجراب »
الاسلام والحضارة لكرد على	نفح الطيب للمقرى
حاشية الوزاني على التحفة	الروض الهتون لابن غازى
طبقات الشافعية	انس الفقير للقسمطينى
معجم الادباء لياقوت	الحلل السندسية في الاحباس التونسية
» البلدان »	ازهار الرياض في اخبار عياض للمقرى
القلائد للفتح	النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى
المطمح »	صبح الاعشى
تاريخ ابن خلدون	نهاية الارب للنورى
زهر الآس للجزائى	اليواقيت الثمينة
تاريخ الدولتين للزركشى	تاريخ مصر للجبرتي
طبقات الاطباء لابن أبى أصبغة	وفيات الاعيان لابن خلكان
دائرة المعارف لوجدى	تاريخ الجزائر للمبلى
السلوة للكتانى	

ملوك الطوائف للدوزي تعريب كبلاني	نيل الانهاج للشيخ بابا
نبذة من مفاخر البربر	الاحياء للغزالي
نظم الجمان لابن اقطان	شرح الاحياء للشيخ مرتضى
ريحانة الالباء للخفاجي	الرسالة القشيرية
بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد	اللزوميات للمعري
درة الحجال لابن قاضي	رسائل اخوان الصفا
صلة ابن الزبير الجزء المطبوع	المنقذ من الضلال
بغية الوعاة للسيوطي	معاهد التنصيص
المعجب للمراكشي	فهرست ابن النديم
الرحلة العياشية	التشوف للتادلي
الوفيات لابن قنفذ	على التشوف للصومعي



تصويبات

يجد القارئ في كثير من صفحات هذا الكتاب بعض أخطاء يتضح صوابها للقارئ اللبيب وعذر المؤلف في ذلك واضح كما ان هناك بعض تحريف في قصيدة ابن أرقم وقصيدتي أبي عبد الله محمد بن سارة وأبي بكر الصيرفي مما لم نهدد لاصلاحه وتركنا للقارئ كامل الحرية في اختيار الاصلاح المناسب وقد أشرنا للخطأ والصواب في التعليق بحرف (ت) والله الموفق للصواب

خطأ	س	ص	صواب	خطأ	س	ص	صواب
بفكر	١١	١٨	فكر	فراة	١٤	٤٢	براعة
كأدات	١	١٩	كأادة	مام	١	٤٧	أمام
يما	٥	٢٢	فما	الولاية	٦	٤٨	ألوية
ضميره	٨	٢٢	في ضميره	السادقة	١	٥٠	السائدة
تدليل	٩	٢٢	تدليل	بالسهم	١٦	٥٢	بالسيوف
الاندليس	١٧	٢٤	الاندلس	متاعب	٣	٥٥	متاعب
ببداها	١٤	٢٨	بها	محضر	٢	٥٤	حضرة
اصتفت	١٢	٣٠	اصطفت	طلاعة	٦	٥٥	طلاعة
ترويدهم	٨	٣١	ترويضهم	صفحة	١١	٥٨	صفحة
الخال	١٤	٣٢	اخل	اذ صدفت	٣	٦٤	صادفت
على	٥	٣٦	عن	ثاقت	١١	٦٦	ثاقت
انهزام	١٣	٣٦	هزم	القيين	١٥	٦٦	القيان
الحامية	٢	٣٧	الحية	وانتمروا	١٧	٦٦	وانتمروا
ذالك	٤	٣٧	تلكم	ذو	٣	٦٧	ذوي
المؤسس	٥	٣٩	المؤسسة	ورائهم	١٧	٦٧	وراءهم
الرياسة	١	٤١	لرياسة	ذا	٥	٦٨	ذا

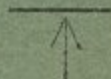
خطأ	ص	س	صواب	خطأ	ص	س	صواب
غيبضا	١٩	٦٩	غيبضا	يحتار	١٦	١٣٧	يحتار
خطابا	١٧	٧٥	صحب معه خطابا	والجيب يوتى	١٤	١٣٧	والجيب يوذى
بتمحبص	٧	٨٢	بتمحبص	دوحة	١٤	١٤٣	دولة
العائين	١	٨٥	العائين	التقسيم	١	١٤٩	التقسيم (ت)
أيد	١٩	٨٧	أيدي	الفارات	٥	١٤٩	الفارات
قد دعيا	١	٩٢	قد دعوا (ت)	أوتته	٩	١٦١	أوتته (ت)
السيطة	١	٩٦	السيطة	تاريخنا	٤	١٦٨	تاريخنا
يبؤه	٩	١١٣	يبؤه	خابر	١٣	١٦٩	خبر
الحزمية	٥	١١٥	الحزمية	العربى	١٠	١٧٧	العربية
لا تتجرأ	٤	١١٦	لا تتجرأ	مجارة	١٠	١٧٨	مجارة
خترمه	٣	١١٩	اخترمه	لد	١٣	١٨٢	لدن (ت)
الذر	١٦	١٢٠	الذر	يعيننا	٧	١٨٤	يعيننا
على	٤	١٢٤	عن	مجتهد	٤	١٩٤	مجتهداً
التأثرة	٦	١٢٤	التأثرة	المدنية	١	٢٠٢	المدنية
المسارع	١٢	١٢٦	المسارع	عنى	٢	٢١١	على
المخصب	١٢	١٣٠	المخصبة	دليلي	٩	٢١٢	دليلي (ت)
صفقة	١٧	١٣٢	صفقة	شنشته	٩	٢١٨	شنشته
على غير	١	١٣٦	على حين	حجفل	٤	٢٢٤	حجفل
الدال	١٧	١٣٦	الدال	فراها	٧	٢٢٦	قراها

L'HISTOIRE de L'UNIVERSITÉ EL-YOUSSOUFIA DE MARRAKECH

Par

Le Directeur de L'Université :
MOHAMED OTMAN

Homme de Lettres Arabes et Président de Majless-ilmî
à Marrakech



نشرات تحت الطبع

للمستاذ محمد عثمان

مدير الجامعة اليوسفية ورئيس المجلس العلمي بمراكش

(١) المنة المقصور في مآثر ودولة أبي العباس المنصور لابن القاضي

(٢) ديوان الوزير ابن ادريس

وفيات أعيان وعلماء القرن الثالث عشر للصقلي

اشترك في تصحيحه والتعليق عليه

علي بن المعلم و محمد العبادي

الكني



Princeton University Library



32101 079541270